حريم
في حياة الزعيم سعد زغلول

الثورة التي أيدها الحرملك

أشرف مصطفى توفيق

الكتاب: حريم في حياة الزعيم سعد زغلول " الثورة التي أيدها الحرملك"

الكاتب :أشرف مصطفى توفيق

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.comE-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

توفيق ، مصطفى أشرف

حريم في حياة الزعيم سعد زغلول "الثورة التي ايدتها الحرملك"/ أشرف مصطفى توفيق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ١٣ – ٦٧٧٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع ٢١٨٠٥ / ٢٠١٩

حريم في حياة الزعيم سعد زغلول
الثورة التي أيدها الحرملك

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

(إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)
(سورة التحريم– آية ٤)

في الفترة من (١٩٩٠– ١٩٩٥) عملت مع الأستاذ حسن عامر الذي كان يشرف على مكتب جريدة الأنباء الكويتية في القاهرة.. تبناني الرجل وبعين فاحصة كان يطلب مني الأعمال التي تجمع بين (البحث والصحافة) فهو يريد أن ندخل الأرشيف ونعاود البحث والتنقيب عن القديم في الدسك الصحفي ثم نبعثه خلقاً آخر برؤية جديدة الخبر الطازج كان موهبته، فهو لا ينتظر الخبر بل يصنعه؟! وهو تأتيه الفكرة ويقول: (دور وقوللي هل هذه الفكرة حقيقية، أو أضغاث أحلام؟!)

وفجأة استدعاني (حسن عامر) وقال خذ هذه الأوراق إنها أرشيف (أمينة السعيد) ادرسه واذهب لتذكرها به، فقط ذكرها به وستسمع العجب! وبعد يومين جاءني تليفون منه، عدل الفكرة ووضع (قضية المرأة) كعنوان فوقها، وقال لي أدير جدلاً بين أمينه السعيد، وسهير القلماوي حولها.. سلام! أما سبب التعديل أنه قرأ هذه العبارة لمصطفى أمين: انقسمت الجامعة إلى حزبين، حزب ينتصر للآنسة سهير القلماوي الطالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب، وتلميذة طه حسين المفضلة، وحزب ينتصر للآنسة أمينة السعيد الطالبة بالسنة الأولى بقسم اللغة الإنجليزية..

وتركني الاستاذ حسن عامر لحيرتي!!

وجاءت البداية هكذا: صدر كتاب استفزازي من عنوانه ومن ورقته الأولى للأخيرة الكتاب يدين الحركة النسائية المصرية وعنوانه "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" يقول فيه المؤلف: "كانت الدعوة إلى هتك الحجاب وتقييد الطلاق ووقف تعدد الزوجات هي إحدى النغمات التي عني بها المستعمر وراح ينشرها لإضعاف المسلمين والقضاء على سر تفوقهم، ثم استشهد بما قاله "طلعت حرب" إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوروبا من قديم لغاية في النفس ضد الإسلام، وأنه لذلك لم يكن عجباً أن تكون الحركة النسائية في مصر. وهي تهدف في جوهرها إلى تغيير النظام الاجتماعي للأسرة – المسلمة — وثيقة الصلة بهذا الاستعمار حتى أن "درية شفيق" أسست حزب (بنت النيل) ومجلتها الشهيرة التي بنفس الاسم، من أموال السفارة البريطانية في مصر! بل أنه يتهم قاسم أمين من أنه تلقى تعليمات في صالون الأميرة نازلي فاضل الوثيقة الصلة باللورد كرومر المعتمد البريطاني بوضع كتابه (تحرير المرأة) وهو في نفس الوقت يعتبر صالونها ضد الآداب والتقاليد الإسلامية حيث سمح بالاختلاط فيه والسهر حتى ساعات متأخرة من الليل!! ثم أنه يدين الاتحاد النسائي المصري الذي كونته هدى شعراوي ١٩٢٤ لأنها ابنة "مُحَمَّد سلطان باشا" الذي كان يرافق جيش الاحتلال في زحفه على العاصمة أيام ثورة عرابي وبعد فشل هذه الثورة، بل أنها وضعت فرية غريبة عجيبة حينما سمحت لنفسها أن تحمل اسم زوجها شعراوي باشا كالغربيين دون أبيها وأنه يعتقد أن هذا مقصود حتى لا يتذكر أحد مأساة أبيها ضد عرابي!! وأنه لا يعرف سر الاهتمام الإعلامي الأجنبي وقتها بهذا الاتحاد المصري المحلي الصغير حيث حضرت (د. ديدت زعيمة الاتحاد النسائي الدولي)

وأعلنت مناصرة الحركة النسائية المصرية!!) ثم بدأت نغمات قاسم أمين تظهر جلية عام١٩٤٩ حين كونت د. درية شفيق حزباً نسائياً وتطرف حزبها حتى وصل إلى المطالبة بإلغاء تعدد الزوجات وإدخال القوانين الأوروبية الخاصة في الطلاق لمصر، وخاصة القوانين الفرنسية بحجة أن القانون المصري يأخذ في معظمه بالتشريع الفرنسي!! وأن الغرب يعرف أهمية مصر بدليل أنه بعد ظهور تنظيم هدى شعراوي المصري وتنظيمها النسائي ظهر الاتحاد النسائي العربي يحمل مبادئ قاسم أمين وينقل نقلاً عن الاتحاد النسائي المصري!

وبهذا الكتاب الساخن ذهبت لدار الهلال وطالبت أمينة السعيد أن ترد وقد انفعلت بشدة وقالت: هذا الكاتب مكانه مستشفي المجانين، لأنه يهذي بكلام لا يصدقه عاقل وليس لديه أقل معرفة بتاريخنا؛ فأنا عاصرت د. درية شفيق[١] وأعرف أخلاقها ومبادئها وهي لا يمكن أن تقبل معونة من أي جهة أجنبية وخاصة إنجلترا أو أمريكا كما يقول هذا الكتاب لسبب إنها لم تكن تجيد الإنجليزية، لأن ثقافتها فرنسية حيث قضت سنوات طويلة في جامعة السوربون. ونالت شهادة الدكتوراه من هناك، ثم إنها لم تكن جاهلة بالإسلام أو المرأة في الإسلام فرسالتها الفرنسية موضوعها "المرأة في الإسلام" وقد أثبتت أن حقوق

---

[١] درية شفيق أعطت حياتها لقضية المرأة وأصدرت مجلة (بنت النيل) و(المرأة الجديدة) وحدث في سنة ١٩٥٤ أن اعتصمت في نقابة الصحفية وأضربت عن الطعام مطالبة ضباط الثورة (بحق المرأة في الانتخاب) وفوجئت السلطات المصرية في ٦ فبراير ١٩٥٧ بـ درية شفيق تدخل السفارة الهندية بالزمالك وتعلن الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى الموت وتصدر بياناً، ولم يغفر لها عبد الناصر ذلك واتهمتها مراكز القوة بالجنون ولولا تدخل (نهرو) الذي طلب السماح لها بالذهاب إلى منزلها وترك السفارة دون القبض عليها وتم تحديد إقامتها في شقتها بالزمالك وضغط على زوجها الثاني د/ نور الدين رجائي فانفصلا .. وتركت (درية) وحيدة، حتى حينما تغيرت الدنيا ومنحت المرأة حق الانتخاب ودخلت نائبات مجلس الأمة والشعب (البرلمان) وعينت وزيرة وأكثر نسي الناس أول من طالب بذلك. وظلت درية شفيق شبه مسجونة في شقتها بالدور السادس بعمارة وديع سعد بالزمالك لا تزور أحد ولا يزورها أحد وكتبت (١٦ كتابا) في عزلتها لم يكشف أحد عنها شيئا!! وفي ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ لم يعرف أحد كيف ماتت وجدوا جثتها تحت شرفتها.. وقد سقطت من الطابق السادس .

المرأة في الإسلام سابقة وإضعاف حقوقها في أي دين آخر، بل يكفي د/ درية شفيق أنها عام ١٩٥٤ كانت واحدة من أهم عشر سيدات في العالم.

قلت لها: ولكن دكتوراه السوربون عن الإسلام ليست حجة علينا، إنها من إشراف أساتذة مستشرقين، وبخاصة أن درية شفيق تحمل شهادة في الآدب الفرنسية (الليسانس من السوربون) بباريس، ولا أحد يعرف لماذا اختارت هذه الرسالة بل إن لديها مغالطات عن المرأة المسلمة بدليل طلاقها من الصحفي الكبير أحمد الصاوي مُحَمَّد، حينما رفضت قوامته عليها في الخروج والدخول حتى ضاق ذرعاً بها وطلقها.. إنها لم تكن تطالب بحقوق المرأة في الإسلام ولكن تطالب بحقوقها في فرنسا

قالت: هل تريد من المرأة بعد أن تتعلم وتحصل على الدكتوراه أن تجلس لتعد العجة لسي السيد، إذا كانت القوامة للرجال فإنها لها شروطها ثم إن العمل للمرأة لا ينكره الإسلام، إننا بحاجة أن يتحرر الرجل وليس المرأة، لأن (قضية الصاوي ودرية شفيق) لا تزال تعيش بيننا.. أنت نفسك تكمل في نفس الطريق. لقد عرف الصاوي درية شفيق وهي (ستار) ومشهورة وصاحبة حزب ورضي عن ذلك وتزوجها عليه، ولم ير فيها عيبا أو فضيحة، ولكنه على طريقة سي السيد طلقها!! المفزع أنني أجد هذه الأفكار الظلامية تعشش في رؤوس عدد لا يحصى من نساء الجيل الجديد.. تقول سأدرس وأقعد في البيت بعد الزواج!! هذه الأفكار الرجعية من الرده الدينية في الاجتهادات التي ابتلانا بها زمن التطرف والتيارات الدينية.. أما إذا كانت الأميرة (نازلي فاضل) استطاعت أن تستقطب (قاسم أمين)، (والشيخ مُحَمَّد عبده) وكل عظماء ومفكري مصر،

بل وتخرجهم عن الملة كما يقول هذا المجنون صاحب الكتاب فدعني أرفع لها قبعتي!!

وإذا كان الكتاب الساخن قد أغضب أمينة السعيد فانفعلت معه وخرجت أعصابها وارتفعت نبرات صوتها حادة متحدية، فإن شيئا من هذا لم ينتب د/سهير القلماوي، وعلقت بشكل غير مباشر بقولها: المؤسف أن عشرات الكتب من هذا النوع تزحم أرفف مكتباتنا وتباع على الأرصفة ليست في قضية المرأة وحدها بل في الدين والسياسة وهي كلها مليئة بالافتراءات وإذا منع كتاب منها قامت الدنيا ولم تقعد مع أنه ليس كتاباً وإنما مرض اجتماعي وقد قلت أكثر من مرة إن الهدف هو "تأسيس عقل المرأة وليس تذكير هذا العقل" بمعني أن أجعلها مؤمنة بوطنها وأن تكون قضيتها كالرجل قضية هذا المجتمع كله بلا تجزئة أما الكثيرات فلا يزلن على سياسة تذكير عقل المرأة أي جعل قضيتها خاصة ومتعلقة بالرجل وسائرة وراء كل ما يفعله ويريده. إنها قضية مهمة ولكنها واحدة من قضايا متعددة في مجتمعنا، ولا يحق أن أعزلها عن القضايا الأخرى فهناك قضية الفقر، والتخلف، و..،.. وبطريقة الفصل، والتجزئة (على الفقراء أن يجعلوا قضيتهم مع الأغنياء هي المطالبة بأكل الكافيار) والحديث عن قضية المرأة فقط يهمش كل القضايا الأخرى وهذا تقليد للغرب، والحقيقة أنه لا توجد قضية للمرأة في الشرق وقد منحها الإسلام الكثير: حق الملكية والاسم والميراث والذمة المالية المنفصلة ونظم لها العلاقة مع الرجل (هي لها دور ورسالة – وهو له دور ورسالة) وهما يتكاملان ولا يتصارعان.. إن هذا واضح حتى في الطلاق؛ فالطلاق في الغرب صراع لأن هناك ذهاب للأبد، يقتسمان كل شيء أما عندنا فيبقى على الزوج واجب النفقة، وواجب الرعاية للأولاد، لأنه ذهاب ولكنه ليس للأبد !!

قلت لها: ولكنك رغم ذلك توليت رئاسة اتحاد المرأة العربية لفترة طويلة وكما يقول كتاب "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" إن هذا الاتحاد صورة لما أنشأته هدى شعراوي وإنه تكريس لكتاب قاسم أمين (تحرير المرأة) بل هو الشكل المعاصر للنسوية الغربية!

قالت: نعم توليت هذا المنصب منذ ٥٦ وحتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه، فكان لا بد أن أتركه ولم يكن يضم إلا ١٦ دولة عربية فقط ولم تكن لنا أهداف ولا خطوات (إلا تقارب البلدان العربية عن طريق المرأة) لا أفكار قاسم أمين ولا هدى شعراوي

قلت لها: عملت مع هدى شعراوي، وتوليت رئاسة تحرير مجلة المصرية وهي مجلة الاتحاد النسائي المصري، فكيف تكوني رئيسة لمجلة هذا الاتحاد ولا تؤمني بقضية المرأة الخاصة؟!

قالت: مع الأسف بعض كتاب التاريخ يذكرون ذلك، والحقيقة أني رفضت رئاسة تحرير هذه المجلة، ولم أتول هذا المنصب؛ فالسيدة "هدى شعراوي" طلبت ذلك ولكنني رفضت لعدة أسباب أهمها أن المجلة كانت هي التي تصدرها، ومعنى ذلك أنني أعمل لديها، وأنا لا أعمل لدى أفراد إطلاقا.. صحيح أن المجلة كانت تصدر عن الاتحاد النسائي، ولكن هذا الاتحاد يتبع السيدة هدى شعراوي هي ومجموعة معها.. وهي التي أسسته وتولته وتنفق عليه.. لقد اقتربت وأدركت بأنه اتحاد (هدى شعراوي) وليس اتحاد المرأة؟!

قلت لأمينة السعيد: الذين يحبون الأدب من أمثالي يشعرون بالألم لأنك أخلصت للصحافة على حساب الأدب وبخاصة أن روايتك الوحيدة "الجامحة" ومن عنوانها كانت بداية الأدب الروائي النسائي؟!

قالت: أصدرت رواية (الجامحة) في ١٩٤٦ وكنت وقتها أسير على مقولة "أميرة" بطلة الرواية: (أما أنا فقد رسمت مستقبلي، ولن أغير منه خطا) وقد حول أستاذي مصطفى أمين نشاطي الأدبي للصحافة، وتنبأ أني سأكون صحفية كبيرة وبدأت الكتابة بدون اسم وكتبت عن المرأة في أول موضوع لي من خلال "حمام سباحة الحريم في فندق سان ستيفانو برمل الإسكندرية" وفوجئت بأن أسرار الدولة على لسان السيدات في الحمام وبخاصة أنه كان فيهن زوجات وزراء وكن لا يعمن وإنما هناك حبل يتعلقن به وهات يا رغي!! وأحدث الموضوع ضجة في الدولة والتهمتني الصحافة للأبد حتى أني لم أجد وقتاً لأكتب سيرتي الذاتية كما طالبتني بذلك "لطيفة الزيات"، ولكن عيني لم تغب عن كتابات المرأة الأدبية.

قلت لسهير القلماوي: مجموعتك القصصية (حكايات جدتي) يؤرخ بها للقصة القصيرة النسائية فماذا بعد؟!

قالت: نشرت المجموعة القصصية عام ١٩٣٥ وذلك بعد تخرجي مباشرة وقبل رسالة الماجستير، حيث تسرد الجدة ذكرياتها على الحفيدة، وبذلك تنحصر الحكايات بين الثنائي الراوي والمستمع، وتركز الذاكرة التاريخية في حكايات جدتي على حياة النساء اللواتي بقين قابعات في منازلهن في أوقات الحرب، والأمر يقترب جداً مما فعلته بعد ذلك، وتخصصت فيه أدب (ألف ليلة وليلة) ومثلما كانت الجدة تسلي الحفيدة، فألف ليلة في حقيقتها أكثر من

٢٠٠ كتابا تروي قصصا كانت تروى لتسلية الملوك والحكام، وعلى ذلك فليس فيها الخصائص الشعبية مثل "أبو زيد الهلالي" فهي لم تكن ولم يعرف أنها كانت تروى على ربابة، بل أؤكد أن صورة "شهر زاد الجنسية مقحمة على النص العربي" ومع الأسف الذين كتبوا عنها – ومنهم توفيق الحكيم – أكدوا هذا المفهوم المغلوط، فشهريار استبقى شهرزاد ليس لأنها جميلة ولا للجنس، وانما لغرامه بالحكايات الغريبة لشهرزاد. ولم أستمر في الكتابة لظروف العمل العلمي والأكاديمي، ولأن كاتبات جيلي توقفن عند مشكلة اضطهاد الرجل للمرأة.

واستمر الحوار، معى، ومعهما، بطريقة "حسن عامر"، تارة هنا، وتارة هناك، وقالت أمينة السعيد: الرئيس عبد الناصر لم يعارض أن أصبح عضو مجلس إدارة دار الهلال، وأذكر عندما أصدر وزير العدل في الستينات قانوناً خاصاً بالمرأة "الناشز" وضرورة وضعها في بيت الطاعة أن دفعت من جيبي مبلغاً استأجرت به عدد من"الأوتوبيسات" وكان معي حوالي ٢٠٠٠ سيدة وذهبنا إلى مجلس الأمة وقتها في مظاهرة سلمية، وكان الرئيس الراحل – رحمه الله – أنور السادات هو رئيس المجلس وعندما أبلغوه بالمظاهرة طلب حضور قائدة المسيرة فأخذوني له، ودخلت عليه فقال لي: "أنت مين يا شاطرة" فقلت له: أمينة السعيد الصحفية بالمصور، وحضرت ومعي النساء لتحتج على قانون (بيت الطاعة) فقال لي:"ماذا ستفعلن لو تم إلغاء القانون؟" قلت له: سنهتف لكم من قلوبنا ونعرف أنكم أحرار لا تضنون بالحرية على المرأة.. فقال: "وماذا لو تم إقرار القانون" قلت له: اطلعوا لنا بره وشوفوا هنعمل فيكم إيه؟!.. وضحك السادات ولم يغضب وقال: أعدك بأننا سوف نعيد النظر في القانون، وقد كان، وتم إلغاؤه بالفعل. وفي الثمانينات عينت رئيسة لمجلس إدارة

دار الهلال، فكنت أول سيدة بذلك القرار ترأس مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبيرة، وقبلها أول رئيسة تحرير لمجلة (حواء)، إلا أن خلافاً وقع لا أعرف سببه، كنت ضمن رؤساء مجالس الصحف في طائرة الرئيس المتجهة إلى أمريكا وجلس يتحدث عن (معاهدة كامب ديفيد) وقال أن لديه معلومات موثوق بها أن السعودية ستوافق على المعاهدة، ولكني قلت له: إن معلوماتي تؤكد أن السعودية سترفض المعاهدة. وثار الرئيس ثورة عارمة وشديدة أخرجتني عن وقاري وقلت للرئيس: لا تصدق حملة المباخر!! وغضب علي وألقاني من رئاسة تحرير المصور ومجلس إدارة الهلال، وصدر قانون بإحالة الصحفيين للمعاش في"سن الستين"، وأعتقد أني أنا المقصودة بالقرار وطبق عليّ.

قالت سهير القلماوي: عينِّي الرئيس أنور السادات مرتين في البرلمان مرة وهو اسمه مجلس الأمة، ومرة واسمه مجلس الشعب، وليس بذلك علاقة بين السيدة جيهان وعلاقتي بها؛ فجيهان شخصية نسائية مهمة ويمكن أن يؤرخ بها لنجاحات كثيرة للمرأة في مصر، ولقد قلت لها حينما تشاورت معي في أمر تعديل قوانين الأحوال الشخصية بأنني لست متخصصة، ولكني أعتقد أنه يجب ألا يكون الطلاق سهلا، فليس كل خلاف يمكن أن يجعل أسرة كاملة تتأرجح لكلمة وأننا علينا أن نعمق أنه أبغض الحلال عند الله، وقد كانت رؤيتها في تعديل القوانين لصالح الأسرة والطفل. وتم التعديل عن طريق رجال الدين ولم يكن به تجاوز وإنما نقل من مذهب لمذهب، وقد قيل وقتها من الفقهاء أن المعايير الشرعية تجعل الطلاق لا يقع إلا خلال ثلاث سنوات وليس فوريا، وخاصة إذا ما كان هناك حكم من أهله وحكم من أهلها، وحينما سكتت ذكرتها بأنها أستاذتها والمشرفة على رسالتها، بل أني لمحت من بعيد إلى كتاب صدر لحسن عزت الضابط الثائر صديق السادات والمتزوج من إحدى قريبات

(جيهان السادات)[٢] وقالت: الرسالة موجودة في الجامعة ويمكن الرجوع إليها، ثم أن مناقشتها كانت علانية وفي التليفزيون ولا يمكن التضحية بقواعد وأصول الجامعة تحت أي ظرف من الظروف ثم إن هناك من هن أقل في الشخصية والاستعداد والبحث وحصلن على الدكتوراه في الجامعات، فالدكتوراه مجرد اعترف بأن الطالب يعرف طريقة البحث العلمي وكيفية الإلمام بموضوعه، وجيهان تدرس الآن في جامعات أمريكا

وقالت أمينة السعيد: ظلت علاقتي بها حميمة طوال الوقت حتى في عز غضب الرئيس السادات علي، وكانت تزورني في المنزل وأهدتني كتابها "سيدة من مصر" وأعترف بأنها قدمت للمرأة المصرية الكثير، فقد عدلت قانون الأحوال الشخصية واستطاعت أن تحصل على ٣٠ مقعدا للمرأة في البرلمان المصري، ولكن فور وقوع زوجها انقلبوا عليها وأهانوها وشنعوا عليها حتى اتهموها بالزواج مرة أخرى!!

وهكذا تعلقت بقضية المرأة، وبحثتها، وكانت دوما من اهتماماتي الثقافية وتنقلت فيها بين السياسة والأدب، عشت فيها، وعاشت فيّ.

أشرف مصطفى توفيق

[٢] الكتاب هو "العمالقة والأقزام السبعة" وقال فيه أنها حصلت على أسرع ماجستير عام ١٩٧٩ ثم تراخت المساعدات بعد وفاة السادات فلم تحصل على الدكتوراه إلا عام ١٩٨٦ أي بعد ٨ سنوات وقال إن كل من ساعدها حصل على مكافأة سخية!!

قبل الأسفار

على عتبات حرملك سعد زغلول ١٨٥٦- ١٩٢٧

ولأسباب كثيرة قال سعد زعلول: مافيش فايدة!!

كان الزعيم سعد زغلول صاحب خطاب نهضة، وكان يمكن أن يتقدم الرواد المناصرين لقضية المرأة في بلادنا، وكان يملك أدوات التقدم عليهم جميعاً (الثورة، الشارع، حزب الوفد، فصاحة اللسان، والخطابة) ولم يكونوا جميعاً بعيدين عنه أو بعيداً عنهم فهو أزهري سافر للغرب كرفاعة الطهطاوى وتلميذ للشيخ مُحَّمد عبده، وصديق لقاسم أمين ومشارك ومعاصر لأحمد لطفي السيد، وهو من القلائل الذين عاصروا الأميرة (نازلي فاضل) وجلسوا لصالونها، وكان محل تقديرها وسرها، فهو محاميها الخاص!! ولذا فإنه لم يستغرب ويفتح فاه من اصطلاح (النسائية) عند ظهوره علنياً (في المحروسة عام ١٨٩٩– معاصرا لكتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين) هذا الاصطلاح الذي يعني بمفهومه التحليلي "الوعي الناشئ عن الظلم الواقع على المرأة بسبب جنسها"، وبمعناه التطبيقي صراع المرأة للتحرر من القهر الاجتماعي أو السياسي الواقع عليها وأنشطتها النضالية المختلفة لدفع هذا القهر، ولكن الرجل كان مهموماً بقضية الوطنية. يبحث عن وصفة سحرية لثورة شعبية تسرق الاستقلال لبلاده من تحت عرش الخديوي ومن وراء ظهر دبابات الإنجليز كان يحلم بتفجير الشارع مدنياً، وإن كان قد سبق له المشاركة في ثورة عرابي التي فجرت الشارع، حيث قام الجيش

بانقلاب عسكري على الخديوي، وبالطبع لم يغب عنه أهمية مشاركة المرأة في هذه الوصفة السحرية الجديدة، ولكنه اعتقد أن النساء في ثورته كصفية زوجته، سيسرن خلفه وسيعطين لقضيته الوطنية أسبقية على قضيتهن النسائية، سيدفعن الثمن ولن يطالبن بالمقابل، سيرضين بالفتات ولن يخرجن عن دائرة القناعة، وكم كان واهماً!!

وقد أعطى سعد زغلول للنساء حرية عريضة إذا ما كان الأمر مرتبطا (بالوطنية) وترددت خطواته معهن إذا تعرض الأمر لثورة أخرى أردن أن يخوضنها تحت مظلة الوطنية مرتبطة بذواتهن ولم يكن الأمر مع النساء يقبل ما قبلته (زوجته صفية) تضع البرقع الأبيض على وجهها في منزلها فإذا سافرت إلى أوروبا في الصيف، خلعت الحجاب ومشت سافرة!!

وعندما خرجت النساء في مظاهرات ثورة ١٩ وسقطن شهيدات. لم يعد مقبولاً من سعد زغلول تأجيل النسائية وتفضيل الوطنية، لم يفلح معهن الشعار القديم (لا صوت يعلو على صوت المعركة) الذي ردده الوفد في مقولة (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) لذا فقد ابتعدن بشكل ملحوظ عن وضع تحرير المرأة تحت مظلة التحرير الوطني، طالما أنه يؤجل الهدف الأول (النساء) إلى حين تحقيق الهدف الثاني (الاستقلال). وكما تقول المستشرقة (مارجو بدران): إن طرح سؤال هل يتعين على المرأة إعطاء النسائية أسبقية على الوطنية؟! كان يحمل في طياته صيغة إدانة تفرضها السلطة الأبوية وتفرض على المرأة اختيار بين أمرين، ويفرض عليها عبئاً قومياً ووطنياً، ويلح على تاريخها الطويل الذي تعودت من خلاله على

تفضيل الآخرين على نفسها، ويدعوها إلى القيام بتضحيات وتأجيلات لا نهائية، ويثير الإحساس بالذنب لدى اللائي يفضلن ذواتهن ونسائيتهن.

وفي هذا الوقت كانت النسائية كاتجاه عالمي تطبع الأشياء حتى الأدب، ولذا تم التضحية بإنتاج أدبي جيد لأنه لا يخدم قضية النساء بالاتجاه نحو ذاوتهن مثل رواية (سيد العزبة) لعائشة عبد الرحمن (د/ بنت الشاطئ – ١٩٤٢) لأن بطلة روايتها (سميرة) تقول: إذا كان هذا يرضي السيد فماذا علي من الناس؟ وتمت التضحية برواية جميلة أخرى رائدة لا يذكرها أحد وهي رواية (صابحة) لملك فهمي سرور (١٩٤٨) لأن شخصية صابحة النموذج التقليدي للمرأة في علاقتها بالرجل لا تروقهن الآن!! فهي على سبيل المثال "تود أن تتزوج رجلا يأمرها.. لا ربيبا يطيعها.. رجلا شرسا.. منفعلا غضوبا ..ثائرا ناقما" وتقول: أنها كفء أن تتحمل كل هذا وترضيه!

تم رفض نوع معين من الكتابات! وفرض نوع معين آخر، تقول الناقدة د. هدى وصفي إن قهر المرأة أوجد أدبا يسمى بالأدب النسائي حاولت المرأة فيه تخيل (يوتوبيا خاصة) حلم فلسفي بالمساواة مع الرجل على المستوى الإنساني.

وفي ١٦ مارس ١٩١٩ وقبل خروج النساء في مظاهرات وطنية احتجاجاً على نفي سعد زغلول والتصاقاً بثورته الوطنية دارت مكلمة حول الوطنية والنسائية كان طرفها النساء في جهة بقيادة صفية زغلول

وهدى شعراوي، وأقطاب الوفد الذكور في طرف آخر، ووصل الأمر بالذكور لحد رفض الدور الوطني للمرأة!! وإذ بصوت "عبد العزيز فهمي" يعلو: إني أعجب أن تقترح سيدة عاقلة مثل صفية هانم مظاهرة النساء في الشوارع؟! ويذهب لبيت الأمة ويحاول أن يمنع ذلك ويعود خائباً فيقول في اجتماع موسع بالحزب أنه يخشى أن تكون النساء قد أصابهن نفي سعد بهزة أثرت على عقولهن!!

وظهرت عبارة لصفية زغلول قوية ومؤثرة: إن نساء مصر لسن أعضاء في الوفد ولا توجد امرأة تمثلهن في الوفد؛ ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن.. إننا نخرج التزاماً بقضايا بلادنا ولا نخرج لنؤيد سياسة حزب!! وهرول (عبد الرحمن فهمي) متطوعاً أن يقنع صفية هانم زغلول، نظراً للعلاقة الوثيقة بينه وبينها، وقال لصفية زغلول عبارة غريبة: إن سعد زغلول قد جعل (بيت الأمة) لكل المصريين، ولكنه بنى في بيته الذي تعيشين فيه (سلاملك) يستقبل فيه الرجال من باب خاص بهم، بينما تدخل السيدات من باب آخر إلى صالونات خاصة بهن ولم يقل عبارة – الحرملك – فاتركي الحال على ما هو عليه الآن حتى يحضر سعد زغلول ويعيد تغيير الأبواب!! ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل!! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تخرج المرأة بنفسها في السياسة؟!

وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة زعيمه سعد زغلول، إنها تريد أن يخرج النساء للشوارع في الوقت الذي وقفت تحدثه من خلف الباب!!

إنه لم يرها، بل سمع صوتها فقط، فقط من وراء الحاجز!! ولولا أنه يعرفها ويعرف صوتها لاعتقد أنها غواية من الأخريات، فإن كيدهن عظيم ولكنه صوتها، إنها صفية زغلول.. يعرف الصوت وقت الصفاء، كما يعرفه وقت العراك، ولذا سارعت هدى شعراوي بتقديم استقالتها من (لجنة نساء الوفد) واعتذرت عن الاستمرار عندما وجدت (سعد زغلول) غير مهتم بأن يكون النساء عضوات عاملات في الحزب، مكتفياً بأن يعملن منتسبات من خلف أزواجهن أعضاء الوفد "كتوابع للأزواج"!! رغم أن النساء عندما وقع الصراع بين عدلي وسعد، انضممن إلى سعد زغلول، حتى أن علي شعراوي باشا انضم إلى عدلي، وإذ به يفاجأ بزوجته هدى شعراوي تؤيد سعد وتهاجم خصومه ومنهم زوجها! أي أنهن لا يتبعن في مصالح الوطن إلا أنفسهن. واعتقدت (هدى شعراوي) بأنه في لحظات الخطر لا يبدي الرجل أي اعتراض لظهور المرأة بجواره ولكنه يغير نظرته إليها فيما بعد؟! وكونت اتحادها النسائي منفصلة بقضية النسائية، جاعلة الوطنية من خلال رؤيتها الخاصة كأنثى بدليل اهتمامها الواضح بآثار معاهدة **١٩٣٦** وقضية فلسطين، وإن كان سعد زغلول قد أوضح بشكل مباشر للزعيمة الوفدية الجديدة التي تولت لجنة نساء الوفد بعد هدى شعراوي – منيرة ثابت– أنه لا ينكر حركة المرأة وحقوقها ولكنه يؤجلها – وإن التأجيل لا يعني الإنكار وإنما يعني الانشغال بما هو أولى – إنه شيء يشبه ما فعله عمر بن الخطاب في عام الرمادة – أوقف إعمال نص قطع يد السارق، ولكنه لم يكفر بالنص– وطالبها بأن تضع التحولات الوطنية

والأعراف والميراث الاجتماعي في الاعتبار، ولكنها أتعبته أكثر من هدى شعراوي! فهي صغيرة وحاصلة على ليسانس الحقوق من السوربون وثائرة لحد التطرف لقد فاجأته سنة ١٩٢٤ عندما ألف أول وزاة شعبية بقولها أنها وزارة لا تمثل الشعب؟! وسألها الزعيم لماذا؟! إنها أول وزارة يدخلها الأفندية.. وقالت له: وزارة بلا وزيره امرأة لا تمثل الشعب!!

وإذا بمنيرة ثابت تعارضه: أنا لم أتزوج بعد يا سعد بيه ولا ينوب عني إلا امرأة.. الرجل لا يمثلني في البرلمان!! وانبرت للزعيم بلسانها الطويل (التقاليد منعت الأفنديات أن يصبحوا وزراء، وأنت كسرت التقاليد الذكورية وجعلتهم وزراء!! فلماذا لا تكسر التقاليد الأنثوية وتدخل المرأة البرلمان؟ إنك رئيس وزراء ثورة). واعتقد سعد زغلول أنه غير العادات الشائعة، فإذا كان لا يجوز للمرأة أن تمشي وحدها في الشارع يجب أن يتبعها خادم. فإذا كانت مع زوجها، تعمد أن يمشي أمامها، وتمشي هي خلفه. فإذا به يمشي مع زوجته ويخرج معها ويركبا الحنطور جنباً إلى جنب.. ومما يذكر أن صورة الزفاف لسعد زغلول وصفية ظهر فيها العريس سعد جالساً على مقعد وكانت صفية واقفة وراءه! ولكن بعد الثورة بدأت صفية تظهر في الصور الفوتوغرافية جالسة إلى جواره أو واقفة بجانبه.

وحدث أن رفع سعد الحجاب عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في إحدى حفلات بيت الأمة وكرر ذلك مع الآنسة "فكرية حسني" عندما

ألقت خطاباً وعلى وجهها حجاب؛ فقال لها: تحملنا ألا نراكِ ولكن لا نسمع ما تقولين؟!

ولكنه لم يحتمل ما فعلته (منيرة ثابت) كيف يخرج رجل غريب مع آنسة غريبة في الشارع جنباً إلى جنب؟! بل أنهما يتنزهان، ويجلسان في الأماكن العامة؟! وفرض على منيرة والأستاذ عبد القادر حمزة "الزواج ؟! مع أنهما كانا يعملان معاً في جريدة واحدة؟! إنه في الوفد لا يسمح بما في جامعة السريون..

وبهت سعد زغلول من منيرة ثابت وهي تقول له: أنها موافقة على الزواج ولكن الأستاذ (عبد القادر حمزة) متزوج وعنده أولاد وهي لا تريد أن تكون لها ضرة.. إنها ضد تعدد الزوجات، والمعنى أنه عليه أن يطلق زوجته الأولى! وقال لها سعد: لا تملكي تعديل نصوص القرآن يا منيرة، وقالت له أنا أتحدث بالشريعة (ولن تعدلوا)؟! وإذا بسعد يثور ويصيح إنك تفسرين القرآن بالفرنساوي الذي تجيدينه!! العرب يعرفون التفسير الصحيح فلقد اعتقدت منيرة ثابت أن الأربع كلمات السحرية التي كررها (سعد زغلول) "الدين لله والوطن للجميع" قد حيدت الدين عن نظر طموحاتها النسائية وأن قبول الزعيم للسفور يعني قبوله للتبرج، وأنه إذا كان قد سمح لزوجته بقلع اليشمك فإنه سيسمح للنساء ولها لخلع نصوص الدين!!

وأسقط سعد زغلول (منيرة ثابت) من برجها العاجي ومن ثورتها الفائرة وزوجها رغما عنها برجل متزوج – ليقطع الألسنة عن أن تمسها بسوء – وقبلت أن تكون زوجة ثانية!!

لقد أقنعها سعد زغلول بأنه لم يخلع الجبة والقفطان، ولكنه لبس فوقها الملابس الأفرنكية!! وأن تحييد الدين الذي يفهمه سعد الأزهري، الأفندي، الفلاح، الثائر، الزوج بلا ولد، الأب لكل الشعب، السري، العلني، المنفي، الحاضر. هو التمهيد لدولة مصرية خالصة لا يقتلع فيها الدين من القلوب ولكن يقتلع فيها (الباب العالي) من الحكم. دولة مدنية لا يتاجر في سياستها باسم الدين وتهب حق المواطنة والتمثيل لمن يثبت صلاحه قبطيا كان أم مسلما. إن عبارة الدين لله، إنما تعني أن التقديس لله وحده والناس جميعاً عبادة. ويبدو أن صفية زغلول كانت تقر سعد فيما ارتضاه فقضية المرأة متصلة بقضية وطنها ولا تنفصل عنه، فإذا قامت بدورها في (الوطنية) فعليها أن تعود وتجلس في بيتها، فقد رفضت من يقول لها أنها زعيمة الوفد بعد موت سعد. إنها تكمل رسالته ولا تعرف من أين تبدأ من بعد ما انتهى!!

ويعتقد البعض كما سجلوا في كتاباتهم أن سفور صفية زغلول في إطار النسائية ولكنها كانت تراه في إطار الوطنية وثورة ١٩!! فلقد أدهش صفية زغلول أن (لجنة نساء الوفد) عند المقاطعة المدنية لكل ما هو إنجليزى من بضائع وتعاملات الذي قادته الثورة النسوية الزغلولية، يضع معظمهن (البودرة) على وجوههن!!

وكانت إذا أرادت أن تصف فتاة بأنها مؤدبة قالت: إنها لا تشرب القهوة ولا تضع ساقاً على ساق! وأذهلها عندما رافقتها (فهيمة ثابت) في سفرها لسعد زغلول في منفاه عند مرضه بجبل طارق أن هذه المرأة الثورية التي تركت أسرتها وأولادها لتكون في خدمتها وزوجها سعد لتقدمهما في السن– تدخن السجائر!! وبدا وكأنها تعيد أفكارها عن المرأة الفاضلة والمرأة الثائرة؟!..فهي كانت تراهما امرأة واحدة، متجاهلة اختلاف الشروط بين الديناميكية والاستاتيكية؟!

وحينما زارتها السيدة (فاطمة نعمت راشد) سنة ١٩٤١ أول مرة مرتدية بنطلونا طالبة منها أن تكون رئيسة شرفية لأول حزب نساء في مصر أسسته نعمت راشد في ١٤٩٢ استغربتها جدا من شكلها ومن طلبها

صفية: لماذا لا تلبسين مثل النساء؟!

نعمت: تقصدين البنطلون، إنه أكثر حشمة وحرية للمرأة العاملة.

صفية: ولكنه أكثر فتنة بالناس في الشارع، المرأة لا ترتدي البنطلون إلا إذا خلع الرجل بنطلونه وأعطاه لها!!

وانصرفت فاطمة نعمت قبل أن تكمل قهوتها.. لقد سمعت منها أنها لم ترفض زوجة النحاس لأنها مطلقة وإنما لأنها تلبس البنطلون، وأنها لم ينطلق لسانها ضد امرأة بأنها سيئة السمعة. ولكن البنطلون يسئ لسمعة

المرأة (إنه يصفها ويشفها) ويبدو أن بنطلون فاطمة هانم كان من أنواع الاسترتش!!

وفي حزبها الخاص قالت فاطمة نعمت: لقد كبرت وخرفت صفية زغلول، ذهبت لأكلمها عن أول حزب للنساء في مصر؛ فكلمتني عن البنطلون الذي جعل النحاس يترك أخت القاضي مصطفى حسن ويتزوج بزينب الوكيل. إنها وقفت عند مسائل شكلية!!

وأسقطت المسائل الشكلية حزب فاطمة نعمت حينما رأت أن من حق المرأة أن تكون ضابطة في القوات المسلحة!! لأن من حقها دخول كل الوظائف وسألوها إذن يمكن تكون مجندة وعسكرى ومقاتلة ولم ترد؟!.. ووزعت الجاتوه لتوقف الكلمات والأسئلة عن الألسنة!!

فهناك مرحلتان للوعي الوطني النسائي:

– المرحلة الأولى (من نهاية القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٩).

– المرحلة الثانية (من ١٩١٩ حتى ١٩٢٣).

واستندت المرأة في المرحلتين وتعكزت فيهما على الحداثة الإسلامية والحركة الوطنية التي بطابعها كانت مسلمة، ولأن النسائية في المرحلة الأولى كان لها مفهوم شرقي (ففي هذه الفترة المبكرة ركزت المرأة على إعداد نفسها والجيل المقبل من النساء على حياة جديدة في المجتمع، وذلك عن طريق التعليم الذاتي، والتعليم الرسمي فقد بدأت المرأة بالتحرك تدريجياً

وبحذر شديد نحو الحياة العامة، بينما ظلت محتفظة بتقاليد العزلة، لتتجنب فقدان الاحترام والاستغلال الجنسي)، ولقد حذرت كل من: ملك حفني ناصف، ونبوية موسى، من رفع الحجاب في بداية القرن حتى لا تتعرض المرأة لمضايقات الرجال الذين لم يتعودوا رؤية المرأة المحترمة في المدينة بدون حجاب. وفي عام ١٩١٠ ردت ملك حفني ناصف على حديث لعبد الحميد أفندي، دعا فيه إلى رفع الحجاب وقالت:

– إنني مندهشة لدعوتك لنا برفع الحجاب في الوقت الذي مازلنا نتعرض فيه للحملقة الوقحة، وللملاحظات غاية في الإحراج عندما نسير في الطريق!!

كانت النسائية التي تطالب بها المرأة في هذه الفترة تختلف عن النسائية التي ينادي بها الرجل المتحرر، والتي يدعو فيها إلى وضع نهاية فورية لنظام الحريم ورفع الحجاب، ولقد أصرت المرأة على تحديد جدول أعمال خاص بها، وتحديد أولوياتها، وعملياً كان على المرأة – وليس على الرجل – أن تواجه المجتمع الأبوي، ولقد رأت أن الوقت لم يكن مواتياً بعد. وفضلاً عن ذلك فإن السخرية الكامنة في تلقي المرأة للأوامر من الرجل بالنسبة لتحررها، لم يكن خافياً عليها؛ لذا رأت ثورة ١٩ أهمية الاستفادة من الوعي الوطني النسائي وإشراكها في قضية تحرير بلادها، وفي هذه المرحلة الثانية اشتركت نساء الوفد مع رجال الوفد كما أنهن حللن محلهم أثناء غيابهم. إن نجاح الوفد يرجع بدرجة كبيرة إلى التأييد الكبير الذي كان يحظى به، فلقد لعبت نساء الوفد دوراً أساسياً في تنظيم وتنسيق

وتوسيع نطاق التأييد للوفد، وفي الأيام الأولى للثورة عندما تم استبعاد الزعماء من الرجال على وجه السرعة من مسرح الأحداث حافظت النساء المصريات على الحركة متأججة وحشدن التأييد الوطني من خلال تعبئة شبكات الاتصال بين السيدات في كل أنحاء البلاد؛ فمنذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٢ مرت فترات طويلة كان فيها سعد زغلول ورجالات الوفد مبعدين بالاعتقال والنفي وحل محل الرجال النساء في هذه الفترة ولعبن أدواراً رئيسية مثل الحفاظ على الروح المعنوية للشعب وتخطيط الاحتجاج، وإدارة الشئون المالية ومواصلة الاتصال بالزعماء الغائبين وسلطات الاحتلال، ووسائل الإعلام والخارج.

وشاركت المرأة كمناضلة في الكفاح أثناء الثورة، بصفتها مواطنة مصرية وليس بصفتها امرأة، وكما أن الوطنيين من الرجال قبلوا النضال الوطني للمرأة، عندما كان يروق لهم ذلك مثل مظاهرات المرأة والمقاطعة الاقتصادية على سبيل المثال تحت ظروف القهر وعندما كانوا يودعون السجون أو يرحلون إلى المنفى، ولكن عندما كانت العناصر الوطنية من الرجال لا تزال على مسرح الأحداث، ولها السيطرة على مقاليد الأمور، أهملوا وجهة نظر المرأة، ثم بعد الاستقلال حرموها كمواطنة من حقوقها السياسية المكتسبة حديثاً.

وكان قد أصبح جلياً لرائدات الحركة النسائية خلال النضال الوطني بعد ذلك أن وطنية الرجل تتسم بطابع السلطة الأبوية، وكانت تجربة المرأة مع سعد زغلول، تجربة مفيدة فقد وضح فيها أن الوفد يريد أن يذيب

الحركة النسائية في الحركة الوطنية، والحركة النسائية تريد أن تركب الوفد لتحقيق طموحاتها ولم يكن السؤال كيف يمكن وضع الوطنية والنسائية في زجاجة واحدة؟! وإنما كان السؤال من يسبق الآخر في الأولويات والتحرك الوطنية أم النسائية؟! ودون الحكم على التجربة فإن الدرس المستفاد أنه عندما تتعايش الوطنية مع النسائية، فمن المفيد التحري عن البعد الوطني للنسائية والبعد النسائي للوطنية مع أخذ العديد من الأسئلة في تجربة سعد ونساء الوفد بعين الاعتبار..

كما أن إبعاد الوطنية عن النسائية والنسائية عن الوطنية تجزئة لا طائل منها، وسيخسر منها الطرفان، ولكن علينا أن نقرر أن حزب الوفد قبل أن يتعامل مع النسائية بالمفهوم الشرقي واقترب منها وحن عليها بأقصى ما يحتمل – برغم أن النسائية بطبيعتها مفهوم غربي يتعين مقاومته باعتباره صورة من الاستعمار الثقافي – وأنه منذ عام ١٩٢٢ أخذت النسائية مظاهر غربية واضحة، وقد اعترفت المرأة حديثاً بذلك ففي بحث لمركز دراسات المرأة الجديدة ١٩٩٥ عن (الحركة النسائية في مصر) أقر البحث بأن من سمات هذه الحركة أثناء وبعد ثورة ١٩ وحتى ١٩٥٢.

- **الاتصال بالغرب الذي كان له أثره في المقارنة بين أوضاع المرأة المصرية والغربية.**

- **تبني التفسير المتقدم للدين في مسألة النساء في أغلب الأحوال.**

• فك اللثام عن العادات التركية في ملابس النساء التي وصلت لحد الاعتقاد في عدم أصولها الدينية.

ولكن العمل النسائي كالعمل الحزبي في مصر في تلك الفترة اعتمد على النخبة والصفوة المثقفة، وأنه باستثناء لحظات الاحتدام الثوري أثناء ١٩١٩ حيث اندفعت كتل النساء للمشاركة في التظاهرات والإضرابات ظلت المساحة الأساسية للعمل للرائدات المثقفات وربما من طبقات بعينها. وكان مركزها الأساسى المدن الكبرى والعاصمة القاهرة، ولم تصل للريف المصري، ولم تتماس مع نساء الطبقات الفقيرة إلا من خلال بعض الخدمات.. إذن فقصة سعد مع النساء ليست قصة غرامية مشتعلة، ولا فضيحة صحفية صفراء، ولكنها جزء من تراث شعب، وقصة مستمرة كانت ولا تزال موضوعا للحكي والدراسة، وإن كان فيها كل ما يميز قصص النساء من تجاذب وتنافر وعشق، وهجران، وأحيانا التباس؟!

فسعد زغلول زعيم مع مطالب الحريم! ولكنه زعيم أيضا ضد تطرف الحريم؟! هو مع حقوق المرأة العامة التي تهم كل النساء. ومستعد في ذلك أن يضع رأسه على كفه، ولكنه لا يتجاوز ذلك ولا يتجاوب فيه!! وقد فعل، وفقد وظيفة (وزير الحقانية) من أجل حقوق الأميرة (صالحة هانم) فإحدى أميرات القصر الملكي وهي صالحة كريمة الأمير إبراهيم حلمي عم الخديوي عباس حلمي الثاني. تزوجت من دبلوماسي روسي مسيحي هو (فلاديمير يوركومنيش) وثارت ضجة حول هذا الزواج لأن الزوجة مسلمة، والزوج مسيحي، فأمر الخديوي بمحو اسمها من سجل أفراد أسرة مُحَمَّد علي

وتعيين قيم على أملاكها ليقوم بتقديم كشف حساب عنها كل عام لوزير الحقانية – والذي كان وقتها (سعد زغلول)– وشعر سعد بأن هناك مؤامرة على ثروة تلك المرأة، وذلك لقيام القصر بالتدخل في إقصاء أمها من الوصاية لصالح أبنائها من زوجها الأمير واعترض سعد على اختيار السرايا الأول (مُحَّد باشا حسن) وقال أنه لص تاريخه لا يؤهله للوصاية، فاختار الخديوي حسن محرم وكيل وزارة الحربية الذي كان في نفس الوقت يد اللورد كيتشنر الإنجليزي وعينه على القصر!! فلما راجع سعد زغلول هذا الحساب وجد فيه إجحافاً خطيراً فأمر بعزل حسين محرم وكان صديقاً حميماً لكتشنر، وللسراي أيضاً.. فلما شكاه تحدث إليه كتشنر بأنه لم يعمل حساباً لصداقة حسين محرم باللورد وإقصائه من وظيفة تدر عليه دخلاً، وطالب بعودته، وهو ما اعتبره سعد تدخلاً في صميم عمله، فاستقال.

ولكنه ضد نزوات النساء الخاصة، إنه لا يعتبرها تحرر وتقدمية، بل تخلف وعبودية. وذات يوم سمع (مصطفى وعلي أمين) سعد يتحدث غاضباً عن سيدة اسمها (صفية) وبهت الطفلان.. إن سعد يهاجم صفية هذه بعنف ومرارة، إنهما يعرفان أن ستهما اسمها صفية وهي زوجة سعد، وهو يحبها كل الحب، ويحترمها أشد الاحترام، وإذا بالطفلين يبكيان في وقت واحد حزناً لأن جدهما يشتم ستهما بهذه الألفاظ القاسية!

وتنبه سعد إلى بكائهما ودهش، وسألهما عما يبكيهما؟ فقالا في صوت واحد: لأنك تشتم ستي! وضحك سعد طويلاً وضحكت صفية

زغلول.. وقال سعد أنه لا يهاجم صفية زوجته، وإنما يهاجم صفية السادات أرملة صديقه الشيخ علي يوسف! وكانت هذه هي أول مرة يسمع فيها الطفلان سعد يقسو في الحديث عن امرأة!.. وكان سر قسوته أنه سمع أن أرملة صديقه أحبت بعد وفاته ممثلاً مغنياً اسمه زكي عكاشة، وأنها قد تتزوجه، وكان سعد ثائراً على هذا التصرف، فقد رأى فيه عدواناً على ذكرى صديقه الذي أعطى هذه المرأة اسمه ومجده وحياته فداست على كل هذا بالأقدام من أجل ممثل شاب!.. وهاجمت سعد زغلول (نبوية موسي) و(منيرة ثابت) و(روز اليوسف) وقلن: إنها لم تخن زوجها ولكنها تتزوج بعد موته بـ٧ سنوات. ثم أنه عندما مات زوجها علي يوسف كانت صفية السادات في السادسة والعشرين!!

وقالت روز اليوسف: ألأن زكي عكاشة مشخصاتي؟!

وقالت نبوية موسي: أخشى أن يفضل زعيم الوفد الطريقة الهندية في التعامل مع الأرملة بعد موت زوجها، فنحرقها حية مع جثة زوجها الميت!!

وقالت منيرة: إن سعد زغلول يريد وفاء المرأة بعد الموت، ولا يعترف بوفاء الرجل في الحياة أين وفاء الرجل إذا كان له زوجة ثانية وثالثة ورابعة!!

ولكن سعد زغلول كرجل فلاح لم يتصور أن تنتهي قصة حب شهدها، هذه النهاية كان يعتبر أن (زكي عكاشة) نزوة، على صفية السادات عليها أن تعلو فوقها وتتخطاها!!..كانت القصة التي أثارت سعد زغلول كل هذه الثورة، من الغرابة بمكان، فقد كان الشيخ علي

يوسف فلاحاً فقيراً في قرية بلصفورة في الصعيد، وجاء إلى القاهرة ودرس في الأزهر، ولكنه لم يستطع إتمام دراسته لشدة فقره، فعمل في الصحافة، وبرز فيها. وأصدر جريدة المؤيد، وأصبح الصحفي الأول في مصر، وكانت المؤيد تهاجم الإنجليز وتنشر مقالات مصطفى كامل، وكان سعد يساعد المؤيد مالياً عندما تقع في صراعها مع الإنجليز.

وأحب الشيخ علي يوسف الآنسة صفية السادات ابنة الشيخ السادات وهو عميد أسرة عريقة من الأشراف تنتسب إلى سلالة الحسين أحفاد النبي (ص) وتقدم الصحفي الأول إلى الحسيب النسيب يطلب يد ابنته ووافق الأب في أول الأمر ثم تدخل خصوم الصحفي الأول وأقنعوا الأب بأنه لا يليق بكرامة أسرة السادات العظيمة أن تزوج ابنتها لصحفي وضيع الشأن من أسرة حقيرة لا تنتسب للنبي (ص) ولا للخلفاء الراشدين. واقتنع الأب وصرف النظر عن الزواج، وإذا بالآنسة صفية تتصل سراً بالصحفي الأول تبادله الخطابات الغرامية وتتفق معه على أن تهرب من بيت أبيها وتتزوج منه، وفعلاً تم الزواج وفوجئ به الأب، ولم يكن سعد في أول الأمر موافقاً على هروب صفية من بيت أبيها ليتزوجها حبيبها الصحفي الأول، ولكنه لم يلبث أن وقف مع الصحفي علي يوسف عندما رأى الرجعية كلها تقف ضده، فقد أوعز الإنجليز إلى الأب أن يرفع قضية أمام المحكمة الشرعية يطلب طلاق ابنته من الصحفي الأول بحجة عدم كفاءة علي يوسف لابنته لأن نسبه حقير وحرفته وهي الصحافة مهنة حقيرة بل أحقر الحرف، حرفة كلها عار وشنار لا يحترفها إلا كل متشرد آفاق وكل من لا صناعة له وكل من لفظته الأعمال الشريفة! وفوجئ سعد

بأغلبية الرأى تقف ضد الشيخ علي يوسف وتقول أنه لا يجوز للصحفي الذي هو فلاح من أسرة غير منسبة، أن يتزوج من ابنة كبير الأشراف! ووجد سعد نفسه في معسكر علي يوسف ضد أغلبية الرأي العام في مصر. إنه هو أيضاً فلاح مثل علي يوسف. إن أسرته لا تنتسب للنبي (ص) مثل علي يوسف. إنه كان صحفياً مثل علي يوسف، ومع ذلك فقد تزوج من ابنة رئيس وزراء مصر، ولم يجرؤ أحد على أن يقول أن هذا الزواج غير متكافئ!

لم يصدق سعد زغلول أن صديقه (الشيخ علي يوسف) الذي صبر بعد حكم التفريق بينه وبين زوجته لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها يحمل الباشوية، ووجد أن هذا الحادث قد أعاق زواج صفية السادات من بعده – فتزوجها مرة أخرى ومن يد أبيها الشيخ السادات، فهو الباشا صاحب أكبر جريدة في مصر لتنتهي قصته بأن تزوج أرملته من ممثل شاهدته وهو يؤدي دور روميو في مسرحية لشكسبير!! فإذا كان الطهطاوى تنبأ بفتح الباب للنساء ووقف ينظر من النافذة، وإذا كان الشيخ مُحَّد عبده لم يجد غضاضه دينية في ترك الباب مواربا ولكنه أغلق على زوجته حجرتها؟ وإذا كان قاسم أمين سهل أمر فتح الباب وجعله مجرد ستارة يسهل اختراقها!! فإن سعد زغلول هو الذي قرر فتحه ولكنه قرر أيضاً أن يبقى مفتاحه بيده.

الفصل الأول

سفر التكوين

نازلي فاضل ١٨٥٥– ١٩١٤

يقول رجاء النقاش: وأعود إلى زيارتي لبيت الأمة، أو بيت سعد زغلول، فقد لفتت نظري صورة معلقة في حجرة نوم سعد، وظننت في أول الأمر أن هذه الصورة هي صورة زوجته (صفية زغلول) ولكن صديقي المؤرخ الفنان صلاح عيسى الذي كان يصاحبني في هذه الزيارة قال لي: لا هذه صورة الأميرة المشاغبة (نازلي فاضل) وتأملت الصورة جيداً وتعجبت أن تكون هناك صورة لأميرة في بيت زعيم الفقراء والثائر على الأمراء أو (زعيم الرعاع) كما كان أعداء سعد يطلقون عليه تهويناً لشأنه وتصغيراً لمكانته، فالرعاع هم عامة الشعب، وهو الغوغاء في نظر الأرستقراطية التي كانت تضيق بشعبية سعد زغلول وحب الناس له.

وطرح السؤال نفسه: من هي الأميرة نازلي التي وضع سعد زغلول صورتها الكبيرة في حجرة نومه، واشتد إلحاح السؤال عندما قرأت هذا الحوار في كتاب (الهانم والزعيم) للكاتب الصحفي الداهية "رشاد كامل"

وجاء السفرجي يحمل الطعام، وتقدم به أولاً إلى (سعد زغلول) هكذا كانت التقاليد في ذلك الوقت، لكن السفرجي فوجئ بـ سعد وهو يشير

إليه بتقديم الطعام إلى (صفية).. فوجئت (صفية) وكتمت دهشتها لكنها لاحظت أن ضيق سعد يتزايد، وكآبته تملأ وجهه وهموم الدنيا كلها تطل من عينيه، وبكل رقة وحنان سألته:

- مالك يا سعد؟! هل أنت مريض؟!

- رد سعد: ياريت.. بل هناك مصيبة أكبر من المرض؟!

دهشت (صفية) من الإجابة وعادت تسأل بقلق أكبر..

- خير يا سعد.. مصيبة إيه!

رد سعد وهو متجهم الوجه: السلطان فؤاد سيتزوج (نازلي)!

ولم تستطع (صفية) أن تخفي دهشتها وانفعالاتها، وربما فرحت وارتاحت وهدأ بالها، فلأول وهلة ظنت أن السلطان فؤاد سيتزوج (الأميرة نازلي فاضل) غريمتها السابقة في حب سعد زغلول، لكنها سرعان ما أدركت أن الأميرة (نازلي فاضل) كانت قد توفيت منذ بضع سنوات!!..وعادت صفية لتسأل (سعد) بدهشة: (نازلي) مين التي سيتزوجها (السلطان فؤاد)

سكت (سعد) قليلاً وطال صمته، وخرجت زفرة حارة من صدره، وقال: نازلي خطيبة سعيد زغلول ابننا؟!.. وسعيد هو الأخ الأصغر لسعد زغلول، وقد رباه في منزله مع زوجته صفية ولأنه ابنهما لم تملك (صفية)

نفسها من الذهول وصدمة المفاجأة وصرخت قائل: مش معقول!! مش معقول!! لكن (سعد زغلول) عاد يؤكد لها قائلاً : هذا ما حدث يا صفية!! ورغم تأكيد (سعد) لم تكن (صفية) تريد أن تصدق ما تسمعه، وقالت لسعد متسائلة وبدهشة: هل أنت متأكد يا سعد مما تقله الآن!.. رد سعد وقد بدأ صبره الطويل ينفد: نعم يا صفية (السلطان فؤاد) سيتزوج نازلي بنت (عبد الرحيم باشا صبري) والتي يريد سعيد ابننا خطبتها!..وسكتت (صفية) من هول الصدمة!!..وإذا كانت صفية زغلول سكتت من هول الصدمة!! فقد تحركت من هول صدمة غير مباشرة أصابتني فرجاء النقاش يقول: صورتها في غرفة نوم الزعيم! ورشاد كامل يكتب: إنها غريمتها السابقة في حب سعد زغلول!! أما صلاح عيسي فيصفها: بالأميرة المشاغبة.

وإذا بقطع الميكانو تتجمع حينما ذكر كتاب (الأميرة التي هزت عرش الخليج؟!) عبارة: وفتنت الأميرة نازلي فاضل الإمام مُحَمَّد عبده عن قضيته فصار بينهما علاقة وثيقة وصلت لحد تبادل الرسائل الخاصة!! بدأت البحث عن حبيبة الزعيم الأميرة المشاغبة التي وضع صورتها في حجرة نومه!! ولأن سعد زغلول كان أكثر من صديق لعباس العقاد الذي قال في رثاء سعد زغلول:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الشرق عليها فبكاها

والشمس هنا هي (سعد زغلول) في رأى العقاد، واعتقدت أن لوضع الصورة هذه نفس معنى لوحة (الشهد والذباب)[٣] التي وضعها العقاد في حجرة نومه. لما قرأت عن ما قاله المتقولون عن الإمام مُحَّد عبده، والأميرة نازلي فاضل، ولكنني كنت واهما؟!!

إن نازلي فاضل – ومرجعي الأول هو بحث الدكتور الشناوي الصغير الممتع – هي "نازلي مصطفى فاضل" ابنة الأمير "مصطفى فاضل" شقيق الخديوي إسماعيل، وعم الملك فؤاد، وقد كان المفروض أن يصبح مصطفى فاضل ولياً لعهد إسماعيل وحاكماً لمصر من بعده، ولكن إسماعيل استخدم كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من الرشوة والدسائس وغير ذلك لكي يغير نظام الحكم للأكبر من أبناء هذه الأسرة، جعله مقصوراً على أولاد إسماعيل وأحفاده، وبذلك تم استبعاد مصطفى فاضل من ولاية العهد، وأصبح الخديوي توفيق ولياً لعهد أبيه إسماعيل، ثم حاكماً لمصر من

(٣) طلب العقاد (صلاح طاهر الفنان التشكيلى المعروف)، وطلب منه أن يرسم لوحة غريبة تحمل معاني الشعر الذى كتبه في حبيبته بعد أن هجرها وهجرته: فاتفقا على رسم فطيرة حلوة شهية يشتهيها الجائع والشبعان، ولكن حام حولها الذباب. فأصبحت هذه الفطيرة على هذه الصورة.. لا يقترب منها أحد.. بل تعف النفس منها وتعزف العين عنها!! ووضع العقاد هذه الصورة في حجرة نومه.. فقد عزف عن حبيبته كما تعزف العين عن هذه الفطيرة!! والبعض يرون أنها ترجمة لأشعار للعقاد تقول:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى..
وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد.. فألقاك جسماً مستباحاً
وطالما لقيتك جم الخوف جم التردد..
إذا لم يكن بد من الكأس والطلا..
ففي غيد بيت كان بالأمس مسجدي.

وكان يرى أن الحب له فلسفة، وخلاصة التجارب كلها في الحب أنك لا تحب حين تختار ولا تختار حين تحب، وإنما مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت، لأن الحياة وتجديد الحياة، وفقد الحياة هى أطوار العمر التى تملك الإنسان ولا يملكها الإنسان.

بعده، وفي عهده وبمساعدته تم احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ وقد حول مصطفى فاضل قصره إلى مدرسة أصبحت المدرسة الخديوية القديمة، وكان صاحب أكبر مكتبة خاصة في مصر أصبحت فيما بعد هي دار الكتب المصرية ومعظم كتبها كانت من عيون الأدب والتاريخ العربي التي كانت في حيازة الأمير مصطفى فاضل. وإذا كانت نازلي قد خرجت إلى الحياة العامة، بعد الاحتلال البريطاني والذي بسببه كان الشعور الشعبي يضطرم بالكره للسراي، فإن والدها – الأمير مصطفى فاضل– كان محبوباً بين المصريين لموقفه من إسماعيل ولانصرافه للعلم والأدب دون السياسة. وقد انعكس الجو الأدبي والفكري الراقي الذي نشأت فيه نازلي فاضل على سلوكها، ففتحت في قصرها الذي كان قائماً إلى جوار قصر عابدين مكاناً أو صالونا يلتقي فيه أهل العلم والأدب من صفوة المصريين الأصلاء في مصريتهم مثل سعد زغلول وإبراهيم المويلحي والشيخ مُحَّد عبده، ولو لم يكن صالون (نازلي فاضل) يحتضن الفكر التحرري والتقدمي فقط، بل والثوري أيضا. فكان يغشاه الفيلسوف والثائر جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الصحفي (الشامي) الثائر أديب إسحق..

يقول الدكتور الشناوي: (أنشأت الأميرة نازلي فاضل هذا الصالون داخل قصرها فكان أول صالون أدبي في مصر الحديثة وكان رواد هذا الصالون لا يكتفون بالحديث حول الأدب والشعر والأمثال والحكم، ولكنهم كانوا يتدارسون أحوال البلاد ذاتها سياسياً وفكرياً وأدبياً كما كانوا يتصدون للكتب الأجنبية التي تصدر عن مصر في الخارج وتهاجم مصر والأحوال الاجتماعية فيها مثل كتاب (داركور) الفرنسي الذي كان يعمل

قاضياً في المحاكم المختلطة المصرية، وهو كتاب عنوانه (سر تأخر المصريين)، فكانت الأميرة نازلي فاضل تدفع رواد صالونها لتفنيد هذه المزاعم بالحجج السليمة وبالأسلوب الأوربي، أي الأسلوب المبني على الوقائع والبراهين العلمية والعقلية، وليس الأسلوب المبني على العاطفة والتعبيرات الإنشائية، وكانت الأميرة تدفع كل النفقات اللازمة لنشر آراء المصريين وردودهم على الذين ينتقدونهم ويستهينون بهم من الأوروبيين، سواء تم ذلك في كتاب أو في الصحف العربية والصحف الفرنسية.

(كل ذلك كان يتم دون أن تتباهى هذه الأميرة بما تفعل أو تمن به على شعب مصر)..

ثم يقول الدكتور الشناوي: (إنه على عكس ما كان منتظراً لهذه الأميرة النبيلة من التقدير والاحترام، فقد لقيت الأميرة تجاهلاً تاريخياً يكاد يكون كاملاً، هذا فضلاً عن أن البعض تعرض لها ولعدد من أصدقائها وعلى رأسهم الشيخ مُحَمَّد عبده بالتشكيك، لأن بعض الإنجليز كانوا من رواد صالونها، أو لأن كلمتها كانت ذات وزن وتأثير لدى السفارة البريطانية، والواقع أن الإنجليز كانوا يحترمونها ويقدرونها وكانوا يرون في رواد صالونها هذا خلاصة الفكر الراقى بين الوطنيين المصريين الذين كان الإنجليز أنفسهم حريصين على تعرف نبضهم ومحاولة استقطابهم إن أمكن.. ولكن هل يمكننا إلا أن نشك في أن رواد هذا الصالون من أمثال سعد زغلول وقاسم أمين وقبلهم جميعاً مُحَمَّد عبده كانوا مخلصين لمصر وفوق

أي شبهة من شبهات العمالة للإنجليز وأن تقرب الإنجليز منهم لم يكن سوى سياسة وكياسة؟!

وهناك شهادة من رجل تثق في شهادته ذكر فيها أنه كان زائراً لصالون (مي زيادة) الأدبي، وصالون (نازلي فاضل) الفكري، وأنه قد حضر قليلاً في صالون نازلي وكثيراً في صالون مي، ففي الأول الأرستقراطية والفرنسية، أما في صالون مي فنحن على سجيتنا نحلق مع لغة الضاد وإن كانت مي تعرف أكثر من لغة (حددها العقاد لنا بخمسة).

هذه هي شهادة الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥– ١٩٤٨) والذي كان وزيراً للأوقاف وشيخاً للأزهر وأستاذاً للفلسفة الإسلامية في جامعة القاهرة، وكان والده صديقاً للشيخ مُحَّد عبده، بل أن مصطفى عبد الرازق نفسه كان تلميذاً للشيخ الإمام ومن أكثر الناس التصاقاً به ووفاء له ومعرفة بأفكاره وقد كتب مصطفى عبد الرازق بحثاً عن أثر المرأة في حياة الشيخ مُحَّد عبده يقول فيه: (إن صالون الأميرة نازلي فاضل كان مجتمعاً للعظماء وقادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وقد اتصفت هذه الأميرة بصفات شخصية عالية جعلتها تميز قيم الرجال وتخص الشيخ مُحَّد عبده بمكانة تجمع بين الحب والإجلال.

وكتب بحثاً آخر عن صالون مي[٤] زيادة قال فيه: إن مي أميرة النهضة النسوية في الشرق، بل أميرة النهضة الشرقية على إطلاقها.

وشعرت من كتابات الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الصالونين كانا متعاصرين ولكن التاريخ يذكر أنهما كانا متعاقبين: صالون نازلي فاضل سابق، وصالون مي لاحق فقد بدأ صالون مي بعد وفاة الأميرة نازلي فقد توفت عام ١٩٤١. وفتحت مي صالونها في ذلك العام. ولمدة عشرين عاماً لاحقة. وتؤكد السيدة سيزا نبراوي في مذكراتها بأن (مي زيادة) التحقت بالاتحاد النسائي شأنها شأن الكثيرات من المثقفات المصريات آنذاك – وكانت تؤيد اتجاهه السياسي والاجتماعي وإن كانت تهتم أكثر بالموضوعات الأدبية – إلا أنها لم تعترض قط على عرضنا لأية قضية من قضايا المرأة – وبرغم أنها أطلعت على الكتب والمخطوطات التي سجلها صالون الأميرة (نازلي فاضل) فإنها لم تكتب في الصحف إلا الموضوعات الأدبية والعلمية التي كانت مثاراً للجدل.

وأنها علقت على ما كتبه قاسم أمين حول كتاب المستشرق دراكور (سر تأخر المصريين) في كتابه الأول (المصريون) بأنها محاولة جيدة لتحرير الرجل فالمرأة تطالب بأن تكون متساوية بالرجل طالما أنها مثله في الواجبات والمسئوليات، فهل كل النساء مستعدات لذلك؟! وتساءلت (يا

---

[٤] تركت (مي) مئات الرسائل التي تبادلتها مع رموز عصرها ومنها رسائل (للعقاد) ورسائل (لأنطون الجميل) ورسائل (ليعقوب صروف) ورسائل (لأمين الريحاني) ورسائل (لأحمد لطفي السيد)، ولكن أكبر كم من الرسائل كان لجبران خليل جبران (٤١ رسالة) وفي عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مي والعقاد وقال في فصل عنهما: لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي أو كتبت إليها لكانت بضع مجلدات!! .

ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة.. أيها الرجل لقد أذللتني فكنت ذليلاً حررني لتكون حراً. حررني لتحرر الإنسان).

وأعود إلى صالون الأميرة نازلي فاضل؛ فعندما هاجم المستشرق الفرنسي (مسيو هانوتو) المسلمين والشرقيين وانبرى الأستاذ الإمام مُحَمَّد عبده – مفتى الديار المصرية آنئذ – للرد عليه مركزاً على الجوانب العقائدية والتاريخية للإسلام، فإن (زينب فواز) قامت بالرد أيضاً متناولة دور المرأة في المعركة بين الشرق والغرب، ورفعت مبدأ نطالب به الآن وهو تصميم السيدات على مقاطعة المنتجات الأوروبية والتمسك بالمصنوعات المحلية والوطنية. وقد أمسكت الأميرة نازلي بالقصاصات التي كتبتها زينب فواز[٥] وقدمتها لقاسم أمين وهي تقول له: انظر ما ترد به المرأة المصرية على الفرنسيين، ولكنك تهاجمنا مثلهم!! والقصة الحقيقية لأفكار قاسم أمين ودور مُحَمَّد عبده والأميرة نازلي فاضل في تكوين هذه الأفكار هي قصة تختلف تماماً عما هو شائع: (عاد قاسم أمين في أواخر القرن الماضي من فرنسا، حيث درس القانون هناك وكتب بعد عودته مباشرة عدة مقالات في جريدة (المؤيد)، ومن العجيب أن هذه المقالات التي كتبها قاسم أمين بعد عودته من فرنسا كانت قائمة على الهجوم العنيف ضد المرأة المصرية

---

(٥) زينب أفندي فواز (١٨٤٥–١٩١٤) سبقت قاسم أمين وهدي شعراوي في تاريخ تحرير المرأة أعتبرتها (درية شفيق معجزة المرأة المصرية التى لم ينتتبه إليها أحد.. وإن كان الأستاذ حلمي النمنم أصدر عنها كتاباً مؤخراً ١٩٨٨م (لها أيضاً رواية بعنوان (حسن العواقب) منسية في تاريخ الأدب النسائي).ولها رأى يعتبر رائداً في الحجاب..لا حجاب بيننا وبين درس العلوم واكتساب المعارف، فكشف الوجه واليدين ليس محرماً على قول فريق عظيم من علماء الدين. ولكن العادة التى جرت على عدم كشفهما أخذت شكلاً عقائدياً وهذا مكمن الخطأ فإذا كان النقاب عرفاً وعادة فلا قدسية له. وعلى علماء الدين ألا يجعلوا المرأة تنظر للدين كمسلمة من الدرجة الثانية في مقابل الرجل المسلم الذى نراه يسهل له أشياء كريهة.

والحط من شأنها، وطالب قاسم أمين في هذه المقالات أن تلزم المرأة المصرية بيتها وأن يقتصر نشاطها على شئون أسرتها، وألا تخوض بأى شكل من الأشكال في الحياة العامة.. تلك كانت هي البداية العجيبة لقاسم أمين الذي اشتهر بعد ذلك بأنه أكبر وأول داعية لتحرير المرأة وتعليمها وخروجها إلى العمل والحياة العامة. فماذا حدث بعد ذلك؟ (غضبت الأميرة نازلي فاضل بعد أن قرات مقالات قاسم أمين ضد المرأة المصرية وطلبت الأميرة من صديقها الشيخ مُحَمَّد عبده أن يصحح لصديقه قاسم أمين أفكاره، وأن يبلغه استياءها الشخصي وغضبها، وأنها مستعدة أن تناقشه فيما زعم بالحسنى قبل أن تهاجمه علناً؛ فالمرأة المصرية في نظرها ليست بهذا السوء والضعف والتفاهة والانغلاق، وأن ما ينقصها هي الفرصة فقط وحرمانها من هذه الفرصة هو خطأ الرجال المصريين أولاً وأخيراً وهو نتيجة ظلم هؤلاء الرجال للمرأة).

حمل مُحَمَّد عبده رسالة الأميرة نازلي فاضل إلى صديقه قاسم أمين وقال له: إن المرأة المصرية متمدنة في فهمها للأمور وأن فهمها هو نفس فهم الرجل وإمكانياتها هي نفس إمكانياته، فقط أعطوها الفرصة، وأفرجوا عنها، ووجه الشيخ مُحَمَّد عبده إلى صديقه وتلميذه قاسم أمين دعوة إلى لقاء الأميرة نازلي في صالونها، ومن العجيب أن الشيخ مُحَمَّد عبده كان متزوجاً منذ صباه من سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك كان متحمساً لآراء الأميرة نازلي فاضل مؤمناً بها مستعداً لتقديم الأدلة (الشرعية) على صحتها.

(ذهب قاسم أمين مع الشيخ الإمام إلى صالون نازلي فاضل، فوجد أمامه سيدة تتقن الفرنسية والإنجليزية والتركية كأبنائها.. يحضر مجلسها قمم شامخة من رجالات مصر، ويجدون في هذا الصالون غذاءهم الذهني والنفسي، وهي لا تجلس معهم فقط، ولا تتجاوز وتتجاوب معهم فكرياً وحسب، بل كانت أكثر من ذلك كله صاحبة رأي مستقل ثاقب في الأمور الداخلية والشئون العالمية. ووجد قاسم أمين نفسه – على حد قوله – أمام امرأة مصرية تدافع عن مصر ونساء مصر وحقوق مصر وكل ما يمت إلى مصر بصلة بل أنها تجادل الكتاب الأوروبيين وتهاجمهم بشدة إذا تعرضوا لمصر بسوء وهي تجادلهم في هذا كله جهاداً وعلانية عندما يزورونها في صالونها، وتفعل ذلك كله دون أي حرج وبلا مقابل تتوقعه ودون طمع في أى مركز سياسي أو مكسب اجتماعي أو طنطنة إعلامية.. إنها امرأة أصيلة إذن. خرج قاسم أمين من لقاء الأميرة ممسوساً وعلم من هذه الأميرة أن المرأة المصرية لو تعلمت لأصبحت خيراً من المرأة الفرنسية التي كان قد رآها وكتب متأثراً برقيها وتقدمها ما كتبه ضد المرأة المصرية، كذلك علم قاسم أمين من أستاذه وصديقه الشيخ مُحَمَّد عبده أن الإسلام يدعو إلى تعليم المرأة، بل ويجعل هذا التعليم واجباً).

وهنا دفعت الشجاعة الأدبية قاسم أمين إلى مراجعة تفكيره وكتابة ما يناقض أراءه الأولى ضد المرأة المصرية، وهكذا ظهر الكتابان الشهيران لقاسم أمين وهما (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) بفضل الشيخ مُحَمَّد عبده والأميرة نازلي فاضل معاً.

واستمر في لعبة الميكانو ووضع الأجزاء في مكانها بحثاً عن سر الأميرة الغامضة والصورة الغريبة لها الموجودة في منزل الزعيم سعد – حتى الآن– في بيت الأمة، ولنسمع هذه الحكاية التي كتبها د. زكي مبارك في مقالة جميلة عام ١٩٣٠ عن سعد زغلول بعنوان (غرام الزعيم) وبدأها بعبارة: إنني لم أقترف إثماً، أو أسن سنة سيئة، حيث أتحدث عن غرام رجل عظيم، فمن المحال أن تخلو قلوب العظماء من العواطف والأهواء. ليتحدث عن غرام سعد زغلول بعدها في فترة دراسته الأزهرية، وكيف أعجبته ابنة الشيخ الجوهري، الذي تصادف أن كان سكنه وقتها قريباً منها..

وأترك الأمر لقلمه الجميل فيقول (إن سعداً فلاح وابن فلاح، والفلاحون يخمدون نار الهوى بالزواج، فما الذي يمنع من أن يسلك مسلك الفلاحين الشرفاء، فيطلب القرب من أهل تلك المليحة الحوراء؟! ليسلم من نار هواه، وليعرف كيف يقبل على دروس الأزهر بعناية والتفات، تشجع الشيخ سعد فطلب يد ابنة الجوهري، فرده الجوهري برفق، وهو يجهل ما ينتظر عمامة سعد من سيطرة أدبية وسياسية على أبناء هذه البلاد. وهكذا قهر الهوى سعد زغلول، ورجع حزين القلب، كاسف البال، وقد خاب أمله في هواه إلى آخر الزمان، ثم نظر فرأى أن الفرار من الحي الأزهري واجب لينجو من غمزات الذين شهدوا رده الأليم عن بيت هواه، وأبناء الريف تؤذيهم ثرثرة السفهاء. لا بد من ترك الحي الأزهري ولكن أين يذهب؟ وماذا يصنع؟.. إن أباه كان يرجو أن يصير من علماء

الأزهر الشريف ومن أئمة الدين الحنيف، فكيف يخلف ظن أبيه بلا تهيب ولا استحياء؟.

ثم بدا له أن الكرامة الذاتية من مقاصد الكرامة الدينية، فخلع العمامة والجبة والقفطان، ولبس الحلة الإفرنجية واحترف المحاماة، فأصبح اسمه (الأفوكاتو) سعد أفندي زغلول بشارع عابدين، وأمسى مكتبه سامراً يلتقي فيه كرام الرجال ولم يكن بد للقلب المجروح من دواء، وهل يداوى القلب المفطور بغير العمل الموصول؟

ويستمر د. زكي مبارك في مقاله (ثم عرف سعد التمهل والدقة بصلته بالشيخ مُحَمَّد عبده، فبدأ يوسع من دراسته للشريعة والسياسة. وعرفت قدماه مع شيخه الجليل طريقها لصالون شهير كبير يشبه صالونات فرنسا ويفوقها لأميره متحررة اسمها (نازلي فاضل) فإذا حاله ينقلب، ولسانه يعوج بدأ يتحدث الفرنسية، ويهتم بملابسه الأفرنجة وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش وشعرت أنه داوى جروح القلب ودوخه العمل معاً!!)

مر عام وعام وأعوام، وسعد يجاهد في سبيل المجد ليعرف من ردوه جاهلين أنهم أضاعوا (جوهرة) لن يرى (الجوهري) مثلها ولو أضاع العمر في البحث والتنقيب، ثم استجاب الله لدعاء الوالدين الصالحين فاقترن سعد بفتاة هي (بنت مصطفى فهمي باشا رئيس وزراء مصر في ذلك العهد) وهي الزوجة التي أصبحت معروفة في تاريخ مصر الحديث باسم (أم المصريين صفية زغلول). وتستمر القصة بعد ذلك حتى يصبح سعد زغلول

زعيماً للبلاد، ويعود من منفاه الذي فرضه عليه الإنجليز، فتقام له حفلتان لتكريمه في حى الأزهر (أما الحفلة الأولى فكانت في دار البكري، وتردد فيها الهتاف بعبارة يحيا (الشيخ سعد)، أما الحفلة الثانية فكانت أين كانت؟ كانت في دار الجوهري.. الدار التي ردت سعداً خائباً قبل أعوام بعيدة، وجرى الهتاف لسعد في بيت الجوهري أيضا بعبارة: (يحيا الشيخ سعد) والتفت سعد ذات اليمين وذات الشمال، وسمح لعينيه بدمعتين محترقتين، هما التحية لهواه الذي ذهب إلى غير معاد). ويفجر د. زكي مبارك سؤال يضاف للأسئلة ما معنى: أن حال سعد زغلول تقلب ولسانه يعوج وبدأ يتحدث الفرنسية ويهتم بملابسه الأفرنجية، وأصبح عنده قبعة بجوار الطربوش؟!

إن الأمر يشبه أغنية شادية (يجي أبويا يعوز فنجان قهوة أعمله شاي وأسقيه لأمي، وخيالك يجي على سهوا ما فرقش ما بين خلتي وعمي!) إنه أقرب ما يكون لما استنتجه عمنا "رشاد كامل" في كتابه الصغير (الهانم والزعيم)!! وإذا كان الأمر كذلك فكيف سمحت الزوجة الزعيمة الشديدة جدا (صفية زغلول – أم المصريين) بأن تكون الصورة فوقها في غرفة النوم؟!

الأقرب للمنطق ما توصل إليه رجاء النقاش في مقاله المنشور في الأهرام بعنوان (الشيخ والصالون) وإن كان يقصد بالشيخ (مُحَّد عبده) فيقول: بعد أن تعرف سعد زغلول عن طريق الشيخ مُحَّد عبده على الأميرة نازلي فاضل اختارته الأميرة محامياً لها وكان لها في حياته أثر كبير جداً (قد

أنصحته بدراسة اللغة الفرنسية، ودراسة الثانوية بالفرنسية، ثم هي التي زوجته من (صفية) كريمة مصطفى باشا فهمي -رئيس وزراء مصر لمدة ١٥ سنة- وكان سعد زغلول فلاحاً ابن فلاح وكان مصطفى فهمي والد صفية تركياً، وكان الرجل الأثير عند الإنجليز، والسياسي صاحب الكلمة المطلقة في مصر في عهد الاحتلال الأول، وإذا كانت (نازلي فاضل) هي التي دفعت سعد زغلول إلى تعلم الفرنسية، وزوجته- وهو الفلاح- من صفية ابنة مصطفى فهمي التركي الأرستقراطي المتعالي على الفلاحين فإن ذلك كله يساعدنا على إدراك مقدرة نازلي فاضل الفائقة على حسن الاختيار والتمييز وعلى فهمها الصحيح لمعادن الرجال فقد أدركت قوة شخصية سعد واكتشفت في وقت مبكر عناصر (الزعامة والعظمة) في هذه الشخصية، وبعد أن تزوجت صفية فهمي من سعد زغلول نسيت انتماءها التركي وانتمت إلى زوجها الفلاح وساعدته أعظم المساعدة في كفاحه الوطني، وأصبح اسمها أم المصريين صفية زغلول وهذا هو السبب في اعتزاز سعد زغلول بالأميرة نازلي فاضل وحرصه على وضع صورتها في حجرة نومه في بيته الذي سمى باسم (بيت الأمة) وأصبح متحفاً قومياً بعد وفاة صفية زغلول سنة ١٩٤٦

وما نعرفه عن حياة الأميرة نازلي فاضل التي يصفها صلاح عيسى بالمشاغبة أنها تزوجت في صباها من أحد الأتراك هو (خليل شريف باشا) الذي صحبها إلى باريس حيث عاشت معه عدة سنوات - فيما يقال - وهناك اتصلت بثقافة باريس اتصالاً وثيقاً، عن طريق القراءة والتجربة معاً، ومن باريس وثقافة باريس وسحر باريس، تشبعت نازلي فاضل بفكرة

(الصالون الأدبي) فهذه الفكرة كانت شائعة في فرنسا في القرن العشرين فقد انتقلت الصالونات إلى المقاهي الباريسية المشهورة التي لا تزل موجودة، ومن الواضح أن الفكرة الفرنسية عن (الصالونات) قد تأصلت تماماً في ذهن نازلي فاضل، فنقلتها من باريس إلى قصرها الذي كان يقع خلف قصر عابدين أي أن صالون نازلي فاضل ببساطة ولد فكرياً في باريس وتحقق واقعياً في عابدين بعد أن عادت الأميرة نازلي من باريس على أثر انفصالها عن زوجها الأول الثري التركي (خليل شريف باشا) على أن حياة الأميرة نازلي فاضل الشخصية بعد طلاقها من زوجها التركي (خليل شريف باشا) توجد فيها صفحة غريبة أخرى هي زواجها من شاب تونسي هو (السيد خليل بوحاجب) وكان آنذاك رئيس لوزراء تونس وقد كان وقتها زواجاً بين أميرة كبير وزعيم خطير!!

وفي ألبوم صور سعد اللبان وزير المعارف في وزارة علي ماهر التي ألفها مع قيام ثورة يوليو ١٩٥٢صورة فيها: الأميرة نازلي بشعرها الطويل في فستان بكم في طول شعرها ولكنها بدون حجاب يحف بها: سعد زغلول، ومُحَّد عبده، وقاسم أمين، والشيخ عبد الكريم سليمان وزوجها بوحاجب التونسي ومجموعة من كرام التونسيين وبالطبع لا تنتهي حكايتها، فقد عادت بعد ذلك إلى مصر دون زوجها، واستمر صالونها.

وفي سنة ١٩٨٠ ظهر كتاب استفز الجمعيات النسائية عنوانه (الحركات النسائسة وصلتها بالاستعمار) أذكر أنني ناقشت فيه السيدة (أمينة السعيد) وقالت لي وقتها أن كاتبه مكانه مستشفى المجانين لأنه

يهذي بكلام لا يصدقه عاقل، لأنه كتاب ضد التاريخ، وفيه اتهم "درية شفيق" بأنها أسست حزب (بنت النيل) ومجلتها من أموال السفارة البريطانية في مصر!! واتهم فيه صالون الأميرة نازلي فاضل بالاستعمارية وأنه كان يتلقى أوامره من اللورد كرومر شخصياً (المعتمد البريطاني في مصر وقتها) واعتبره الكاتب صالوناً ضد الآداب والتقاليد الإسلامية، وأنه سمح به بالاختلاط، وهاجم الكتاب أيضاً هدى شعراوي، وأذكر أن الأستاذة (أمينة السعيد) دافعت بشدة عن هدى شعراوي ودرية شفيق، وأذكر في ذلك ما قلته من أن درية شفيق حصلت على الدكتوراه من فرنسا وموضوعها (المرأة في الإسلام) وأنها كانت لا تجيد الإنجليزية ولكنها تعرف الفرنساوي كأهلها، بل أنها كانت ثورية ضد الإنجليز ولكنها أنهت إجاباتها وثورتها بدون كلمة بالإيجاب أو السلب في حق الأميرة نازلي فاضل؟!

وأذكر أن الكتاب أشار إلى اسم (رونالد ستورز) الذي كان مستشاراً شرفياً للسفارة البريطانية وأكد أنه عضو شرف دائم في صالون الأميرة نازلي!! وذكر الكتاب في وصف الرجل على لسان (السيد فهمي الشناوي) أنه (رجل استعماري خطير، وقد عمل في مصر منذ سنة ١٩٠٤ وكتب مذكراته بتفصيل وتطويل كاملين لمدة ثلاثين عاماً، واشترك في صنع الوزراء والملوك والمؤامرات و(ثورة لورنس) المسماة باسم (الثورة العربية الكبرى)، كما ساهم في إعادة الصهيونية إلى التاريخ بعد موتها بألفي عام، ولم تكن تفوته في تدوين مذكراته، شأن كل السفراء الإنجليز وأعوانهم، أدق التفاصيل).

وعند العودة لمذكرات (رونالد ستورز) نجد ما يأتي (وهو جزء طريف عن الأميرة نازلي فاضل): (هي الأميرة الوحيدة من البيت المالك في مصر المتكلمة المتحررة، وقد دخلت علينا في الساعة الثالثة وظلت تتكلم حتى الرابعة والربع في إنجليزية رائعة دون أن تعطي فرصة لأحد في الكلام. لقد كانت جميلة يوماً ما، ولكنها الآن لماحة، ولها عينان فيهما نفاذ غريب وهي لا تخفي الاستهانة بملوك أسرتها – أسرة مُحَّد على – واحداً وراء الآخر)، ويصف (رونالد ستورز) قصرها فيقول: (تدخل قصرها حيث يوجد خلف البوابة عدد من الخدم الذين يسمون (بالأغوات) وكل (أغا) يسمى باسم زهرة أو حجر كريم، ثم تدوس على طرقات مفروشة بالزلط ومغروس فيها أشجار ظليلة وترقد تحتها (قطط ملكية)، ثم عليك أن تصيح (يا ساتر أو يا ستار) ومعنى ذلك أن رجلاً في الطريق، وأن على نساء البيت أن يحتجبن، وسرعان ما يجري عبد أو عبدان وهما يضحكان في خفة ولطف على السلم أمامك ليبلغا (البرنسيسة) بوصولك. ثم تدخل إلى الصالون وتنتظر.. لا بد أن تنتظر ولو دقيقة، ولكن لا بد من هذا الانتظار حتى لو كان الموعد محدداً من قبل وحجرة الصالون لو تأملتها شعرت بالخوف، ولكنها على أي حال تعبر عن شخصية هذه السيدة)

وفي جزء آخر من مذكراته يقول: (كانت الأميرة نازلي وراء الثورة العرابية وفتحت قصرها لضيافة رجالها، كانت تريد أن تنتقم لحق أبيها الضائع في العرش. بعد أن خلخل الخديوي إسماعيل أساس التوارث فيه) كان من الممكن أن تكون سيدة سياسية من الطراز الأول، ولكن وضع المرأة في مصر لم يكن يسمح بذلك، فوضحت رؤيتها الأوربية لرجال

اعتقدت بحكم ثقافتهم أنهم قادرون على تغير الواقع والتاريخ، وكانوا يسمعون لها وكأنها حورية أو جنية من قصصهم الغريبة في (ألف ليلة وليلة).

ويستمر ستورز[٦] في مذكراته: (ولا شك أن الأميرة نازلي فاضل، كانت تستطيع أن تفجر في صالونها موضوعات تمثل المحرم عند المصريين كالحب والمرأة وكنت أعتقد أنها لن تستطيع أن تجد في ذلك نجاحاً حتى أسمعتني في أحد الأيام قصة حب جميلة بين المحامي المصري قاسم أمين وفتاة أحبها أثناء دراسته في فرنسا اسمها (سلافا)!!

وعندما تعرفت على قاسم أمين في أحد جلساتها شعرت بأنه يخدعها فلا يمكن لرجل بهذا الخجل تكون له تجارب الحب التي سمعتها منها.. وعندما تجاذبنا الحديث وجدته شخصية منظمة جداً حتى أنه كان يخص زوجته بساعتين يومياً وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة، ويقضي بعدها مع كتبه ثلاث ساعات من السابعة حتى العاشرة، وحينما سألته وماذا بعد العاشرة؟ (لم تكن عند إجابة) ويقول: (ولما لم أفهم تفكهت الأميرة نازلي ففهمت أنه موعد نومه قالت له: لماذا يا قاسم بيه لا تجعل لزوجتك نفس الساعتين من الثامنة إلى العاشرة؟! وضحكت وضحكت ولكن باقي الجالسين لم يفهموا ما قصدت!.

---

(٦) أديب إسحق (سوري) عمل في الصحافة المصرية ووصل إلى سكرتير البرلمان المصري في برلمان (توفيق– عرابي) وحينما أسقطت الثورة العرابية (وزارة رياض) قال لعرابي: لقد أسقطت ستورز أن رياض هذا (رياض ستورز) يتلقى أوامره منه – إن ستورز ليس مستشاراً للسفارة البريطانية ولكنه مستشار لوزارة رياض!! ولنا أن نتصور صالوناً واحداً جلس فيه (أديب إسحق) بجوار (ستورز)؟!

ويقول ستورز في موضع آخر: (كنت أؤثر وبعض زملائي أن نزورها في غير مواعيدها التي حددتها لصالونها، حتى نستطيع أن ننعم بما عندها من أنواع فاخرة من النبيذ!! ولكنها لم تكن تشاركنا)

أما د. آمال السبكي في كتابها (الحركة النسائية في مصر) فإنها تقرر أن صالون نازلي فاضل جعل الرجال الأفذاذ يفكرون في قضايا مختلفة لم تكن تهمهم من قبل.

١- ضرورة رفع الحجاب.

٢- أهمية تعليم المرأة.

٣- تقييد حق الرجل في الطلاق.

٤- حق المرأة في العمل.

٥- كيفية الحد من تعدد الزوجات.

فهل حدث في صالون نازلي فاضل ما حدث في صالون مي؟! هل أحبها الفضلاء كما أحب مي الأدباء؟!

إن المرحوم (حسن أحمد حسن) المدرس بكلية الفنون الجميلة رسم مي زيادة فجعلها تنام على الأقلام، على أسنة الأقلام كفقراء الهنود حينما ينامون على المسامير أي جعل الجميع مشتركين في تعذيبها ولكن الأدباء يتحدثون، أما الفضلاء فيصمدون، فلقد وجدنا جملة رسائل بين مي والأدباء في عصرها: عباس العقاد، أحمد لطفي السيد، أنطوان بك

الجميل، الشيخ مصطفى عبد الرازق، جبران خليل جبران، ولي الدين يكن، أمين الريحاني..

وفي عام ١٩٧١ نشر عامر العقاد بعض رسائل مي والعقاد، وقال في فصل عنها لو جمعت الرسائل التي كتبتها مي أو كتبت لها لكانت بضع مجلدات!! ولقد وجد د. عثمان أمين – أحد كبار المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بتراث مُحَّد عبده – خطابا بالفرنسية كتبته الأميرة بخطها إلى الشيخ مُحَّد عبده تدعوه فيه إلى القدوم لرؤيتها ونصه (صديقي العزيز: أرجوك أن تحضر لرؤيتي هذا المساء بعد الساعة السابعة أنا آسفة إذا فاتتني رؤيتك أمس.. والتوقيع صديقتك المخلصلة: نازلي).

وإذا كان هذا ما حدث مع الشيخ مُحَّد عبده علي سن ورمح (صديقي العزيز/ الساعة السابعة/ نازلي) فما نوع الخطابات التي يمكن تخيلها بينها وبين سعد زغلول – محاميها – ومكمن سرها؟!

إن العقاد له مقال جميل عنوانه (رجال حول مي) يصف فيه أثر مي زيادة وصالونها على زوارها ولكن ليس عندنا أحد قد كتب مقالاً عن (رجال حول الأميرة نازلي فاضل)؟! هذا المقال يبرز من خلال دقة الملاحظة ما كان عليه هؤلاء المترددون على صالون الأدبية (مي)، فيقول العقاد: لكل منهم أسلوبه في تعبيره "لطفي السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف، وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجول، كأنه الصبي في مجلس الفتيات القريبات، وشبلي شميل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر

والشعور، وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون من أشهر صالونات البيوت، ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذي يغني الاطلاع عليها عن السماع، وإسماعيل صبري عبد الله وأسلوب الشاعر الذي يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح، وهو الذي كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة مستئذناً في الحضور.

إن لم أمتع بمي ناظري غداً | لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء

ولأنيس منصور في كتابه (في صالون العقاد كان لنا أيام) هذه العبارة القاسية: هل كانت مي زيادة غانية تتحدث في الأدب – أو أديبة تعرف الفجور – إنها لا هذا ولا ذاك، وإنما أوقعتها الأقدار في أوكار الذئب الفكري للرجل الشرقي، لقد حاول أن يجرب معها الجميع!!

وحتى لا يحدث عندي وعندك تداع أو استرسال أو رؤية تطابقية بين الصالونين أتحدث عن النتائج. ما الذي فعله صالون الأميرة نازلي فاضل في القمم الذين انضموا له ولها عن رضاء واقتناع وبقوة: رفاعة رافع الطهطاوي، الشيخ مُحَّد عبده، والزميلان سعد زغلول وقاسم أمين في قضية تحرير المرأة، والأربعة للمصادفة البحتة أتقنوا الفرنسية!! فإنه يحكى أن عاد قاسم أمين إلى مصر في صيف ١٨٨٥ ليعين في سلك النيابة، فيتعرف على أحمد لطفي السيد ثم يعين بقرار واحد مع سعد زغلول ليكونا قاضيين بمحكمة الاستئناف، كان كل منهم مهموماً بما اعتاد عليه الناس أما قاسم أمين فقد أمضى سنوات طويلة يفكر فيما اعتاد عليه الناس في العلاقة بين

الرجل والمرأة، وأدرك أن المجتمع المصري يضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما عن بعض.

وهنا لمعت فكرة كتابه (تحرير المرأة) وعرض قاسم أمين على صديقه أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي مشاركته في الكتاب، ولكن الخوف تغلب على أحد شفيق فاعتذر بقوله (الناس لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة)..ثم انتهز فرص اصطيافه في جنيف مع أحمد لطفي السيد وسعد زغلول سنة ١٨٩٨ فعرض عليهما أفكاره وطلب مشاركتهما معه ولكنهما اعتذرا!! إلا أن بعض الباحثين يرى أن كتاب (تحرير المرأة) ليس عملاً فردياً لقاسم أمين ولكنه عمل جماعى كتب فيه الشيخ مُحَمَّد عبده الفصول الخاصة برأي الشريعة والإسلام في الزواج والطلاق والحجاب وتعدد الزوجات، وإن الأفكار الخاصة بالحرية كتبها لطفي السيد، وإن من يقرأ مذكرات سعد زغلول وهذا الكتاب، يستطيع أن يلمح بصمات سعد زغلول عليه!!

وفي سنة ١٨٩٩ استقر رأي قاسم أمين على شئ، لقد سأل نفسه: من الذي يحب صاحبه أكثر، أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه أو الذي يغض البصر عنها؟ واختار أن يكون الصديق المكروه لا العدو المحبوب وكتب كتابه (تحرير المرأة) وقال قاسم أمين: (إنه لا يجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، ولكنها عادة الدين منها براء) وبعد أن جرد الحجاب من هذه الحماية الوهمية يرد قاسم أمين على نظرة المجتمع للحجاب (هل الحجاب مانع من الفتنة؟ هل اعتبرت

عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال؟ إن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضاء المرأة وما خفي، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل في أثناء سيرها، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك، إذ هو يخفي شخصيتها، ولو كان وجهها مكشوفاً فإن كرامتها ونسبتها إلى عائلتها يشعراها بالحياء، والخجل في كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات الأنظار، ولكنه بعد ثلاث صفحات يضع تحفظاً آخر (إني لا أقصد رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه اليوم، فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض)

فلا نعرف أهو يهاجم الحجاب أم يهاجم منظر المرأة وهي تبدو كخيمة تمشي على قدمين، خيمة لا يبدو منها سوى ثقبين يسمحان لعينيها بالرؤية!! ورغم هذه المطالب المتواضعة المرتعشة التي لو عرفتها الآن ابنتي (رانيا) في رجل لاعتبرته رجعياً سلفياً.. إلا أن الدنيا قامت على (قاسم أمين) ولم تقعد، وصدر في مواجهة كتاب واحد له أربعون كتاباً آخر، بل إن الزعيم مصطفى كامل هاجمه في صحيفته واعتبره متآمراً مع الشيخ مُحَمَّد عبده مفتي الديار المصرية!!

ومن هذه الكتب المعارضة لكتاب (تحرير المرأة): الجليس الأنيس في التحذير مما في تحرير المرأة من التلبيس (والدفع المتين في الرد على قاسم بك أمين) وكان من ضمن ما قال قاسم أمين عبارة غريبة لم يلتفت إليها أحد إلا أنه في عام ١٩٧١ التفتت إليها نوال السعداوي فكتبت كتاب

(المرأة والجنس) أما العبارة: (إن المرأة التي تقدم لزوجها المتعة يجب أن تحس هي أيضاً معه بالمتعة، وإذا أعطت لابنها الحرية فيجب ألا تحرم منها، وإذا طالبناها أن تمنح الأسرة السيادة فيجب أن تكون هي أول من يحصل عليها ففاقد الشئ لا يعطيه، فيجب ألا يكون في قاموسنا الشعوري واللا شعوري مترادفات لكلمة المرأة تعني النزوة والخيانة والسرير والشهوة والضعف).

ولكن قاسم أمين اعترف بأن ما يكتبه غريباً: سيقول قوم إن ما أنشره اليوم بدعة!!

وإذا بسعد زغلول يفعل ما جاء في الكتاب، بينما صاحب الكتاب نفسه قاسم أمين يعجز عن ذلك أقلع سعد زغلول عن القمار، حتى يعطي لنفسه وقتاً يناغش ويسلي (زوجته)، واستمر قاسم أمين على الترابيزة الخضراء حتى وقع خلاف بين الصديقين فيما بعد حينما زاد توقيع سعد على ضمان ديون صديقه، علم سعد زغلول زوجته وأحضر لها مدرساً وأعطى لنفسه وقتاً للدراسة، واستولى قاسم أمين على أموال زوجته!! ومات سعد على حضن امرأته، ومات قاسم وفي جيبه شيء واحد صورة لامرأة أخرى هي إحدى المطربات في ذلك العصر!!... وهي المطربة "وسيلة"، وكان لسوء الطالع التقى بها في قصر الأميرة نازلي فاضل!.. وهي وقتها من أشهر مطربات القصور، لقد اعتنق سعد زغلول قضية المرأة وعمل عليها متأثراً بالأميرة الجميلة نازلي فاضل أمام قاسم أمين فاكتفى بكتاباتها.

وفي مجلة (نصف الدنيا) مقالة جميلة للمبدعة (سناء البيسي) توضح بالتفصيل كيف كانت زوجة قاسم أمين تذهب لمنزل سعد شاكية باكية تلعن اليوم الذي عرفت فيه هذا الرجل؟! لقد أخذ فلوسها وأفلسها!! ويكتب عن ذلك (مصطفى أمين) في كتابه: من واحد لعشرة. إن بعض الناس يسألون في دهشة: ما سر حماس هذا الرجل الفلاح الأزهري للمرأة المصرية؟! ما الذي جعله يشجع صديقه قاسم أمين على إصدار كتابه عن تحرير المرأة. ويقف إلى جواره في الحرب التي أعلنها الرجعيون ضد سفور المرأة؟ ما الذي جعله يؤيد سفورها في ثورة ١٩١٩؟

ويقول على لسان سعد زغلول نفسه (بعض الناس يعتقدون أن الفضل في آرائي التقدمية بشأن المرأة يعود إلى زوجتي صفية، وهذا غير صحيح، وبعض الناس يتصور أني أخذت من زياراتي لباريس للحصول على ليسانس الحقوق، إيماني بالمرأة، وهذا غير صحيح.. أيضاً الواقع أنني مدين بإيماني بحق المرأة في الحرية والمساواة لأمي "مريم بركات" كانت أمي فلاحة لا تقرأ ولا تكتب، ومات أبي وتركني أنا وأخي فتحي وأختي أم رتيبة وسعيد أطفالاً، وكانت أمي صغيرة السن عندما أصبحت أرملة. وكانت جميلة، وكان أولاد أبي من زوجته الأولى أكبر منها سناً، وحاول أعيان الناحية أن يتقدموا إليها عارضين الزواج فأبت وقالت: إننى سأكرس حياتي لتربية أولادي. واستطاعت وحدها أن تقاوم الإغراء والضغوط من أسرتها كي تتزوج مرة أخرى، وإذا بها وهي امرأة تصبح عميدة الأسرة كلها. لقد تمكنت بقوة شخصيتها أن تفرض احترامها على كبار الأسرة الرجال، ثم فرضت شخصيتها على القرى المجاورة، وكنت أرى الرجال يحضرون

للاحتكام إليها في خلافاتهم وقد ورثت عن أبي اندفاعه وثورته، ورثت عن أمي حكمتها وحسن تدبيرها فعندما أغضب فهذا هو أبى، وعندما أكون حكيماً فهذه هي أمي! وحينما اندفع فهذه هي ثورة أبى، وعندما أتدبر أمري وأسوس نفسي فهذه هي سياسة أمي وحكمتها. وكنت معجباً بشخصية أمي القوية وثباتها وصمودها وهذا هو الذي جعلني أتمسك بإيماني بالمرأة، فإذا كانت أمي الفلاحة الأمية قد استطاعت أن تفعل كل هذا، فإن من حق المرأة المصرية أن تتساوى بالرجل).. وفي موضع آخر: (وكثيراً ما كان سعد يدعو عبد الرحمن فهمي لتناول الغداء معه في بيته مع أفراد أسرته. وكان (الطفلان) يقصد علي ومصطفى أمين يلاحظان دائماً شيئاً غريباً. وهو أن عبد الرحمن لم يجئ مرة واحدة إلى بيت سعد مع زوجته، وكان متزوجاً للمرة الثانية.

وكان الطفلان يلاحظان أن عبد الرحمن عندما يحضر للغداء كانا يتخليان له عن المقعد الأول في المائدة على يسار سعد. ويتأخر مكانهما إلى المقعدين التاليين، وكانت صفية تجلس في المقعد المقابل له عن يمين سعد. وكان عبد الرحمن عندما يجلس يضع عينيه دائماً في الطبق الذي أمامه، ولا يرفعها في وجه صفية، ولا في وجه والدتهما. وكان لا يوجه الحديث إلا لسعد باعتبار أن صفية ورتيبة غير موجودتين على الإطلاق! وكان غريباً في تلك الأيام أن يدعى رجل من غير أفراد الأسرة للجلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة، ولكن الفلاح الأزهري القديم سعد زغلول كان لا يجد غضاضة في أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغداء والعشاء)

وفي موضع ثالث: (وكانت هذه ظاهرة غريبة في بيت سعد زغلول! إن معاصريه ما كانوا يسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقائهم، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلي يكن باشا أنه رأى وجه زوجته. ولا يذكر أقرب صديق لحسين رشدي باشا أنه تناول معه الغداء في حضور زوجته، بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة كان يتردد باستمرار على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع صفية، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدوري مرة واحدة!).

ويذكر "مصطفى أمين" بعد وفاة قاسم أمين بعشرة سنوات أن زوجته كانت تأتي بين وقت وآخر لزيارة صفية زغلول، فلا تكشف وجهها أمامهما، بل إنها إذا تناولت الغداء مع صفية، كانت تعد لها مائدة في غرفة أخرى، ويتناول سعد الطعام وحده، ذلك أن قاسم أمين الرجل الذي دعا المرأة المصرية إلى نزع الحجاب فشل في إقناع زوجته بأن تنزع حجابها، وظلت متمسكة بوضع الحجاب على وجهها إلى ما بعد أن نزعت أغلب المصريات حجابهن! على فكرة – مصطفى أمين– يتحدث بصفة عامة عن النقاب بمعنى الحجاب؟!)

وكان أكثر ما يؤلم قاسم أمين.. أنه لم يفلح في إقناع زوجته التي تقيم معه في بيت واحد بالرسالة التي أمن بها!

ولقد سبب حماس سعد للمرأة المصرية كثيراً من المتاعب له، فعندما أصبح وزيراً للمعارف واهتم بتعليم البنات ثار عليه الخديوي، وهاجمته الصحف واتهمته بالخروج على الدين الحنيف! وكان من رأي سعد دائماً أن أي ثورة في

مصر لا يمكن أن تنجح إلا إذا اشتركت فيها المرأة مع الرجل، وكان هذا الرأي يلقى معارضة شديدة من أصدقائه الذين يعدون معه للثورة وخاصة الشباب منهم؟ وكان سعد يردد دائماً قصة وقعت أحداثها في مؤتمر عقد في مدينة بروكسل في سبتمبر ١٩١٠ برياسة الزعيم مُحَّد فريد. فقد وقفت الزعيمة الهندية المعروفة السيدة كاما وقالت للأعضاء وهي لا ترى بينهم سيدة مصرية واحدة: (أيها المصريون! إني أسألكم أين نصف سكان مصر؟ إذا كان النصف الأول من سكانها هم الرجال، فأين إذن الأمهات والأخوات والزوجات؟ إن الحرية لا تتحقق بنصف الأمة، إنها تتطلب جهداً مشتركاً من الرجال والنساء!)

ولذا اعترف قاسم أمين بريادة سعد زغلول فأهداه في ١٥ أغسطس ١٩٠٠ كتابه (المرأة الجديدة) كان الإهداء بهذه العبارة: [(إلى صديقي (سعد زغلول).. فيك وجدت قلباً يحب، وعقلاً يفكر، وإرادة تعمل، أنت الذي مثلت إلى المودة في أكمل أشكالها، فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها، من هذا أمكنني أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته، ذلك هو سر السعادة التي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالاً ونساء.)]

الفصل الثاني

سفر الخروج "النسائية... خلف راية الزعيم"

هدى شعراوي ١٨٧٩-١٩٤٧

اسمها الحقيقي هدى مُحَمَّد سلطان وعند أخرين (نور الهدى مُحَمَّد سلطان) ولها اسم حركي تاريخي، رائدة الحركة النسائية في مصر. أما النساء فيسمونها هدى هانم شعراوي، ولها اسم لا تحبه: أم مُحَمَّد!! نادتها به (المطربة فاطمة سري، والزعيم النحاس باشا) ولدت بالمنيا في ٢٣يونيه ١٨٧٩. وأبوها هو مُحَمَّد سلطان قائمقام الخديوي توفيق وخصم الزعيم عرابي أما أمها فجارية بيضاء جميلة (ألبانية) وهبها الخديوي إسماعيل لأبيها، فأعتقها، وتزوجها، اعتزازا بهبة الخديوي له، وأعجب الخديوي ذلك ومنحه أرضا بمكان بدمياط اشتهر بكفر البطيخ، فأنجبت منه فتاة بيضاء كأمها هي (هدى)، وأخيها (عمر) الذي أصبح (عمر سلطان باشا) وتوفي أبيها، وهي في الثامنة من عمرها، ونشأت وسط أمها وأخيها، وابن عمتها (علي شعراوي) الذي تولى الوصاية عليها، وعلى أخيها كوصية الأب. ولقد وفرت لها أسرتها نشأة كريمة وغنية وثرية فتعلمت الفرنسية والعربية والموسيقى..

وكان (علي شعراوي) في ذلك الوقت متزوجا وأنجب ابنه الأكبر (حسن) الذي أصبح كالعادة بين من يملكون الأرض والثروة (حسن

شعراوي باشا)، ويبدو أن علي شعراوي الذي كان يكبر هدى بثلاثين عاماً قد زار كيوبيد قلبه فأحب هدى وكتم حبه وعف، وبخاصة أنها كانت تناديه "بير شعراوي" وتعني بالفرنسية (بابا شعراوي) إلا أن الأمور كانت تسير لصالحه فهو رجل طيب، يحبه الجميع، نظيف اليد، عف اللسان، مهيب الطلعة، مستقيم السلوك من بدء حياته وحتى نهايتها، واستطاعت أم (هدى) أن تلمح في عينيه ما لا يخفي فهو كريم معهم بما يزيد عما كان عليه الأمر في حياة زوجها مُحَّد سلطان، وهو ضعيف أمام تلك الفتاة الدلوعة الناضجة، كبيرة الجسد بحكم الثراء وجودة الغذاء ورفاهة الكساء.
إنها كما يقول الفلاحون (زرع بدري) أنوثة قبل الأوان، وكانت هناك مجموعة من المصالح أرضه وأرضها، وضياعه وضياعها، وكما يقولون المصالح تتصالح!! والتقت الرغبات بأن يتزوج (علي شعراوي) بـ (هدى سلطان) على عكس رغبة وإرادة هدى، فقد كانت رغبة من أمه (شقيقة مُحَّد سلطان) ورغبة من أم هدى نفسها في أن يكون طفلاها: عمر وهدى في كنف ورعاية "علي بك الشعراوي" ليس بالوصاية فقط، ولكن برابطة أقوى (الزواج) وقد تهلل (علي شعراوي) حينما وجد أبوه حسن باشا شعراوي (الفلاح الذكي) الثري (عمدة المطاهرة) مركز المنيا الذي لا يجلس أمامه إلا متهيباً لا يمانع في هذا الزواج!! بل إن حسن باشا إنما جعلها وكأنها وصيته الأخيرة لأنه كان مريضا، فقد كان الرجل يكرر في أيامه الأخيرة شيئين: ثقة مُحَّد سلطان فيه وفي أهله حتى أنه جعل ابنه وصياً على أسرته وثروته دون أحد غيره رغم إن ثروة مُحَّد سلطان وقتها كانت (اثني عشر ألف فدانا) أما الشيء الآخر فهو جميل (مُحَّد سلطان) أبو هدى

عليه فهو لا ينسى نفوذ شقيق زوجته ووقوفه معه حتى أصبح نائب المنيا في برلمان ١٨٦٦م. ثم كيف كانت له اليد الطولى في وصول ابنه (علي شعراوي) نفسه ليصبح من بعده نائب المنيا في برلمان ١٨٨١م؟! وتوافقت الأوضاع الأسرية، وتزوجت هدى من علي تحت ضغط النساء والزن على الودان، ويقال أنه بعد سنتين من الزواج ضيق خلالها علي شعراوي على هدى الخناق في الخروج والزيارات ونقلها معه إلى الإقامة في الريف، فانفصلا (ويقال في ذلك أن عقد الزواج اشترطت فيه هدى شعراوي ألا يكون لها ضرة، سواء "زوجة سابقة – أو لاحقة" فإن وجدت فسخت عقدها واعتبر كان لم يكن)، ولم يستطع علي شعراوى أن يفي بالعقد، فبعد طلاقه لزوجته الأولى، عاد لها في السر وبقي معها حتى أنجب منها ابنه حسن! فلم يكن تحول هدى سهلاً، كان عليها أن تحول احترامها لحب، وبنوتها إلى زواج، وحياءها إلى علاقة زوجية، ولا يعرف هل كان الانفصال بالطلاق أم كانت فترة هدنة بعد أن فشلت التغيرات المتلاحقة بالصدمة والسرعة والمفاجأة لجعل هدى عروسا صالحة للزواج بكل أبعاده ومراميه، والغريب أن هذا الانفصال استمر سبع سنوات؟! قضت هدى منها في الإسكندرية معظم الوقت، أما الباقي فسافرت خلاله إلى تركيا.

أما (علي شعراوي) فشغلته السياسة والوطن وقضايا كثيرة، ولظروف كثيرة عاد الود؛ فعادت هدى لزوجها. كان من هذه الظروف ترك علي شعراوي أمر الأرض لأخي هدى – عمر– فبارت وقل محصولها، وكان منها وفاة زوجة علي شعراوي الأولى. أما الأكثر تأثيراً فهو هدى نفسها التي تغيرت فصارت أنضج، وأضيف لكمال الجسم أناقة غريبة في ما

ترتديه. وملكت شخصيتها الإقناع بدلاً من الغضب والبكاء الذي عانى منه علي شعراوي في البداية، ووافق علي شعراوي على كل شروطها: السماح بالدخول والخروج والإقامة في القاهرة، ووضع ثروته كلها تحت تصرفها وكانت وقتها (تسعة آلاف فدانا) وأن يكون لها نشاط اجتماعي كما له نشاط سياسي؟! ورغم ذلك لم يكن زواج هدى شعراوي عسلاً كله، إنما كان فيه الخلاف والبعد والجفوة، وترك البيت فإذا كان علي شعراوي قد أرخى اللجام لهدى، فإنه لم يتركه من يده، فقد كان الرجل بطبعه فلاح ومسلم متزمت وتروى عنه أقاصيص تجعله يلحق بركب العارفين بالله وكان أيضاً ثائراً استطاع أن يكون في فترة قليلة أحد دعامات حزب الوفد.

ويكفيه ما قاله عنه (عبد العزيز فهمي): أما علي شعراوي فكان من خيرة الوطنيين المخلصين، بل إنه من أخلص رجال مصر، وأكثرهم حباً للوطن، وكان جريئاً في الحق يقول ما يعتقد ويحافظ على كرامته لأقصى حد، وقد تعجب في أن هدى شعراوي كانت لا تواجه زوجها مباشرة بما تريد من عمل أو نشاط وإنما تستعمل عبارة: صفية زغلول بتقترح: سعد باشا زغلول بيقول!! وكانت موافقته التزام حزبياً أكثر منها رضاء زوجي! بل إننا لا نعجب إذا عرفنا أن علي شعراوي كان معارضاً لخروج نساء الوفد في ثورة ١٩١٩!! وعارض بشدة في أن تكون لزوجته سكرتيرة ذات ثقافة فرنسية وجذور مسيحية (سيزا نبراوي) وقال لها: يا ستي شوفي واحدة ريفية!!.. وثار ثورة غريبة عليهما حينما أعلنت في أحد اجتماعاتها إرسال (أحمد الصاوي مُحَمَّد) ليتعلم في السوربون على نفقتها الخاصة لأنها

شعرت أنه ظلم من النظم الموجودة بالجامعة. لم يكن معترضاً على الفعل وإنما على الشكل فهو على استعداد أن يرسل الصاوي ومعه خمسون للسوربون على نفقته، ولكن لماذا تفعلهما امرأة؟! وزوجته؟! إنها تقبض منه لتنفق على نشاطها أضعاف ثمن بعثة (الصاوي) فلماذا يظهر مالها الخاص الآن!! وبعبارة زوج فلاح قال علي شعراوي: إشمعنا الصاوي؟! ما عندك البنات!! وفي عبارة أكثر غضباً يا ستي شوفي ابنك (مُحَمَّد) ولكن هدى شعراوي استمرت في عنادها حتى أنها عند زواج الصاوي، جعلت الزفاف في بيتها واختارت له أجمل عروس في مصر (درية شفيق)، وتم ذلك في تكتم، لم يفضحه إلا جريدة الأهرام.

أما الثورة الكبرى ففي سنة ١٩٠٦حينما فوجئ علي الشعراوي أثناء صلاة الجمعة بإمام جامع سلطان أبو العلا. يسب ويصب لعناته وويلاته على امرأة تدعو للفسق والفجور.. قال الشيخ: أفي المحروسة والإسلام بين أظهرنا، تخرج بدعة، بإنشاء ناد خاص للنساء لمزاولة الرياضة واللعب والسباحة. ما يتبع ذلك من هرج وسفور ومرج وتبرج، وأنهى الشيخ خطبته بأنها بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وغضب علي الشعراوي مع الغاضبين ودعا مع الشيخ والداعين:

– اللهم أسكت كلمتها وأوقف بدعتها.

– أمين.

– اللهم رد دعوتها ومن يدعون معها بها وأرجعهم خائبين مدحورين.

– أمين.

وعاد الشعراوي لمنزله وعلى مائده الغذاء سمع زوجته هدى شعراوي وفوجئ بأنها صاحبة الفكرة إياها زوجته المصونة والجوهرة المكنونة تدعو لناد خاص للنساء يلبسن فيه الشورت والمايوه ويلعبن السباحة! وسألها زوجها: سيزا نبراوي زنت على ودانك كعادتها!!..لكن الروايات تجمع على أن حب (هدى شعراوي)كان قوياً ومؤثراً على (علي شعراوي) فكان يعترض عليها ولكنه لا يستطيع الفكاك منها، يثور ويكسر الأطباق ويترك المنزل للريف الذي أحبه ولكنه لا يعرقل مسيرتها ولا يهدم أعمالها ولا يقف ضدها، وتتفق الروايات على أن جرأة هدى شعراوي كانت وراء دفع (علي شعراوي) في حزب الوفد، وأنها سعت بقوة ليكون زوجها مشاركاً بشكل تاريخي في الحركة الوطنية، ولعل يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كان بداية إيمان علي شعراوي (بزوجته هدى) فقد كانت وراء إقدامه على مشاركة سعد زغلول وعبد العزيز فهمي في مفاوضات الإنجليز مع (سير رونالد) وعرض القضية على مؤتمر الصلح في (فرساي) وبأسماء الثلاثة وقع المصريون على عريضة تاريخية وغريبة عليها ثلاث ملايين توقيع بأن الثلاثة ممثلين للأمة في قضية الاستقلال مع الإنجليز، وقامت هدى بدور مؤثر من خلال (لجنة الوفد للسيدات) في جمع هذه التوقعات، وبالطبع وجدنا على العريضة أسماء إناث ونساء لم تتح لهن الظروف كتابة أسمائهن من قبل،كن ينظرن لأسمائهن مكتوبة وكأنهن يرونها لأول مرة، لها أثر وفعل ووضع سياسي ومصيري في حياة أمتهم، ويذكر أن بعض الريفيات قالن لهدى شعراوي: إننا لا نعرف الكتابة لكننا نريد سعد وزملاءه؟! وبينما كانت

العريضة بها بعض بصمات الرجال كانت هدى شعراوي تجمع النساء وتدربهن على كتابة الاسم، فهي لا تحب أن يرى الإنجليز المرأة المصرية مجرد بصمة!! وبالرغم من نضج نشاطها في عامي ١٩٠٧- ١٩٠٨ وسفرها وحضورها مؤتمرات خاصة بنشاط المرأة ساعدها في ذلك حيويتها وأموالها، فإنها حينما دخلت الوفد بجانب زوجها ومارست من خلاله نشاطها، تدخلت السياسة وأسمتها هدى شعراوي بدلاً من هدى مُحَمَّد سلطان، وهو ما حدث من قبل مع زوجة الزعيم سعد زغلول سموها صفية زغلول بدلاً من صفية مصطفى فهمي، فقد كان لكل من الأبوين: مُحَمَّد سلطان، ومصطفى فهمي. علامة وتاريخ متين مع الإنجليز!! فلقد أراد الوفد أن يكسبها بلا أي انتقادات، فأبوها مُحَمَّد سلطان كان موضع هجوم شديد من الشيخ مُحَمَّد عبده أستاذ سعد زغلول، وكان يرى قتله لخروجه على الخط الوطني وانضمامه إلى الخديوي توفيق ضد عرابي وكان سعد زغلول نفسه مع ثورة عرابي يؤيدها على عكس ما كان الوضع في الحزب الوطني الذي كان يعتمد على تركيا (الباب العالي) فقد حمل مُحَمَّد سلطان قرار السلطان العثماني بعصيان عرابي ورفاقه إلى (العربان) بالإضافة إلى بعض المال ومنشور الخديوي نفسه وبعض مساعدات الإنجليز.

الأمر الذي كان له أثره في خيانة عرابي في المعارك التي دخلها بل إنه قام مقام الخديوي نفسه عندما احتجزت أحداث الثورة العرابية الخديوي توفيق في الإسكندرية، فأدار الأمر كما يريد الإنجليز وفي هذه الفترة فتح ديليسبس قناة السويس بعد أن ضمن لعرابي حياد القناة وخانه فتحولت ثورة الرجل الثائر عرابي إلى هوجة عرفت باسم (هوجة عرابي)!!

وحتى لا يظهر الأمر على حقيقته سميت نساء لجنة الوفد بأسماء أزواجهم السياسيون المشاهير؟! (ولأننا لا نسئ أو ننظر للأمر بلون واحد نذكر ما قاله د: (عبد العظيم رمضان)، فهو يقول بأن البرلمان الأول في عصر توفيق (نوفمبر ١٨٩١) كان تحت رئاسة (مُحَّد سلطان باشا) والد هدى شعراوي وهو الذي سماه ببرلمان (توفيق- عرابي) وأن حركة الجيش التي قام بها عرابي وزملاؤه بدأت بعيدة عن الحركة الوطنية التي قام بها الزعماء الدستوريون مُحَّد سلطان باشا، ومُحَّد شريف باشا وغيرهم التي كان تستهدف إقامة حكم دستوري. أما حركة الجيش فقامت لأسباب خاصة تتعلق بسوء أوضاع الضباط المصريين بالنسبة لضباط الشراكسة. وأنه عندما استعجل الخديوي وألقى القبض في يناير ١٨٨١ على أحمد عرابي وزميليه: علي فهمي وعبد العال حلمي وحبسهم في ثكنات قصر النيل، أسرع أفراد من الجيش وأطلقوا سراحهم وكانت الخطة أن يهرب عرابي ويختفي مع رفيقيه خوفاً من بطش الخديوي، ولكن عرابي أظهر شجاعة نادرة إذ قرر أن يتجه لقصر عابدين بهذه القوة ليتحدى عباس رفقي وزير الحربية وقتها.

وفي فبراير ١٨٨١ قدم عرابي للخديوي طلبا خاصا بالجيش بتعيين سامي البارودي وزيراً للحربية وبالرغم من أن حادث قصر النيل لم يقصد منه التمرد على الخديوي ولا مواجهة النفوذ الأجنبي. فإنه كان له أثره على الرأي العام فأكسب الحادث عرابي شهرة باعتباره استطاع أن يتحدى حكومة رياض باشا ويرغمها على تغيير الوزراء الأمر الذي جعل القادة الدستوريون يسعون إلى الجيش) وأخذت تعقد الاجتماعات للاتفاق على

برنامج عملي سياسي، وأخذ المسرح السياسي يستعد لمظاهرة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١!! واتضح التنسيق في أهداف عرابى التي قدمها للأمة فقد وضع الدستوريون مبادئهم في مطلبين من أربعة لعرابي:

١- إسقاط الوزارة المستبدة.

٢- تشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي

وبغير هذا التنسيق لم يكن مُحَّمد شريف باشا ليختار لتأليف الوزارة الجديدة، وإنه لا ينكر أحد أن (مُحَّمد سلطان باشا) في ذلك الوقت وهو رئيس للبرلمان، خرج حتى على الدستوريين، حينما طلب شريف باشا ألا يكون لمجلس النواب حق مناقشة الميزانية وإقرارها وحينما قال شريف باشا (مناقشات البرلمان في هذا ستعطي إنجلترا وفرنسا حق التدخل)، وقال له (مُحَّمد سلطان) ونحن لن نسمح لهم.

إلا أنه بسقوط وزارة شريف باشا، وظهور وزارة شبه عسكرية برئاسة محمود سامي البارودي في فبراير ١٩٨٢ وفيها عرابي وزيراً للحربية ظهرت العين الحمراء لفرنسا وإنجلترا في مصر، ورغم ما يقرره د: عبد العظيم رمضان فإن المصريين لم ينسوا دخول الإنجليز على خيولهم ومعهم مُحَّمد سلطان باشا يرحب ويهش وينش لهذا الاحتلال؟! ولم ينس ذلك لا سعد زغلول ولا الشيخ مُحَّمد عبده.

قبض الإنجليز على سعد زغلول يوم ٨ مارس ١٩١٩ وقامت الثورة في اليوم التالى، ولكنها كانت في أسبوعها الأول ثورة رجال فقط،

واجتمعت في بيت سعد زغلول: صفية زغلول وهدى شعراوي وحرم مُحَمَّد محمود باشا، وقالت هدى شعراوي أنها كتبت برقية احتجاج باسم سيدات مصر إلى زوجة المندوب السامي البريطاني، وأن زوجها علي شعراوي أخذ البرقيات وعرضها في اجتماع الوفد وعاد لها متهللاً: لقد أعجب الوفد ببرقيتك حتى أننا قررنا حفظها في محضر الجلسة. وقال صفية: البرقيات لا تكفي يجب أن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع، فقالت زوجة مُحَمَّد محمود: إننى لم أضع قدمى في الشارع منذ زواجي، ولكنني موافقة على الخروج ولو ضربني الإنجليز بالرصاص، وقالت هدى شعراوي: إذن نحن في حاجة لمظاهرات نسائية تهتف بسقوط الاحتلال، ولو قتل الإنجليز منا واحدة فسوف تلتهب مصر كله.. اتركوها لي.

واتصلت هدى شعراوي بزوجها علي باشا تعرض عليه الفكرة فذهل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشارع! ولكنها استعملت طريقتها قائلة: إن صفية زغلول ترى ذلك وهي ترى أن هناك سلبية من الوفد في معالجة أمر القبض على سعد زغلول، زعيم الأمة فاعرض أمرها في اجتماع الوفد الذي ترأسه باعتبارك رئيس الوفد بالنيابة. وعند عرض الأمر على اللجنة وقف عبد العزيز فهمي، ومن أخطرك بذلك ياشعراوي؟! فقال الشعراوي: زوجتنا المصونة التي كانت في زيارة لأم المصريين وكان معها حرم مُحَمَّد محمود باشا، فسأل عبد العزيز فهمي مُحَمَّد محمود باشا: هل علمت بذلك من زوجتك؟!

فقال مُحَمَّد محمود فهمي: لا. وإني أسجل من الآن رفض الفكرة، ولن تخرج زوجتي من منزلها، ولن تزور أحد بعد اليوم وإذا بعبد العزيز فهمي ينظر شزراً للشعراوي ويقول: إني أعجب أن سيدة عاقلة مثل صفية هانم تقترح مظاهرة النساء في الشوارع؟!

وضاق علي شعراوي بما قاله عبد العزيز فهمي فمعنى ذلك أن زوجته صاحبة الفكرة وأنها المجنونة الوحيدة بين النساء الثلاثة فقال: ولماذا لا نسأل صفية زغلول؟!

ويقول عن ذلك مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة): اتصلت هدى شعراوي بزوجها علي شعراوي باشا تعرض عليه الفكرة فذهل! كيف تخرج السيدات المحترمات إلى الشوارع! وكان علي شعراوي باشا رجلاً وقوراً في السبعين من عمره، يطلق لحيته ومن أهالي المنيا المحافظين المتمسكين بالتقاليد، ولكنه كان أكبر بأربعين سنة من زوجته وكان يحبها حباً يقرب من العبادة، فلم يستطع أن يقاوم تصميمها على المظاهرة، وخاصة بعد أن أخبرته بأن هذا رأي صفية زغلول وحرم مُحَمَّد محمود باشا، فوعد بأن يعرض فكرة مظاهرة السيدات على أعضاء الوفد في الاجتماع ويبلغها بالنتيجة. وعقد الوفد اجتماعاً وما كاد يعرض علي شعراوي باشا الفكرة حتى هاج وماج كل الأعضاء ورفضوا خروج النساء في مظاهرة، وكان من رأي الأغلبية أن هذا الفعل وقاحة وقلة حياء، وكان من رأي الأقلية أنها مع تقديرها للوطنية التي أملت هذه الفكرة الجريئة، إلا أن الأغلبية العظمى للشعب تستنكر خروج النساء إلى الشوارع، وأن هذا سوف يقسم الرأي

العام في مسألة فرعية، بينما هو مجمع لأول مرة على مسألة واحدة هي مسألة الاستقلال، فخروج النساء للشارع سيجعل البعض يعتبر الثورة خروج على الدين الإسلامي، وبذلك تنفض أغلبية الشعب عن الثورة.. وكانت الأغلبية التي تعتبر خروج المرأة إلى الشارع وقاحة وقلة حياء مؤلفة من: علي باشا شعراوي نفسه، وعبد العزيز فهمي، ومُحَمَّد علي علوبة وجورج بك خياط وحسين باشا واصف وعبد الخالق باشا مدكور ومحمود أبو النصر بك وعبد اللطيف المكباتي بك.. وكانت الأقلية التي رفضت رفضاً دبلوماسياً خشية انقسام الأمة من: أحمد لطفي السيد بك ومصطفى النحاس بك وسنيوت حنا بك وعلي ماهر بك ودكتور حافظ عفيفي.

وذهب عبد العزيز فهمي للسيدة (صفية زغلول) ووجد منها إصراراً، واعتبار منع ذلك تخاذل. وأنهى عبد العزيز فهمي الحديث وهو يحاول جاهداً أن يمسك أعصابه، ويقول: تأكدي أنني أحترم المرأة وأقدرها..

فقالت له صفية: لو كنت تحترم المرأة لما حاولت أن تحرمها من شرف الدفاع عن بلادها!. وأسرع عبد العزيز فهمي بك إلى زملائه، وقال لهم أنه يخشى أن تكون صفية هانم قد جنت، وأن صدمة نفي زوجها، أثرت على عقلها! وسمع عبد الرحمن فهمي بما حدث فتطوع بأن يتولى إقناع صفية هانم نظراً للعلاقة الوثيقة بينه وبينها. ولكن صفية انقضت عليه كما انقضت علي عبد العزيز فهمي، وقالت له إن نساء مصر لسن أعضاء في الوفد ولا توجد امرأة تمثلهن في الوفد، ولهذا ليس من حق الوفد أن يصدر الأوامر إليهن! وتحمست السيدات المصريات لتحدي قرار الوفد،

واجتمعت مئات السيدات في بيت الأمة، تولت هدى شعراوي الاتصال تليفونياً بعدد من صديقاتها، وراحت السيدة إستر فهمي ويصا وهدية بركات وعطية أبو أصبع وفكرية حسن وإحسان القوصي يتصلن بمعارفهن وصديقاتهن وقريباتهن للاشتراك في مظاهرة حدد لها يوم ١٦ مارس، بعد سبعة أيام من قيام الثورة، واتفقت السيدات على أن يجتمع عدد منهن في بيت الأمة، وعدد ثان في منزل أحمد بك أبو أصبع في ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير الآن) ثم يتجمع الفريقان في لحظة واحدة بحديقة جاردن سيتي، ومن هناك تتحرك المظاهرة الكبرى، ولم ينم عبد الرحمن فهمي الليل! إنه لم يستطع أن يفهم لماذا تريد أن تزج المرأة بنفسها في السياسة! لماذا تريد أن تفسد بتصرفها وقار الثورة؟ وكان أكثر ما يزعجه موقف زوجة صديقه وزعيمه سعد زغلول. إنها هي التي تنادي بأن تخرج المرأة المصرية إلى الشارع. وفي الوقت نفسه عندما استقبلته ليناقشها في هذا القرار لم تقابله وجهاً لوجه، بل إنها وقفت تحدثه من خلف الباب! إنه لم يرها بل سمع صوتها فقط من وراء الستار! أي أنها حرصت على ألا تظهر بوجهها له في غياب زوجها، بينما كان يتناول معها الغذاء والعشاء وهي سافرة في حضور سعد، فإذا كان هذا هو مبلغ حرص صفية على التقاليد فما الذي جعلها تخرج عليها وتصر على خروج النساء إلى الشارع متظاهرات!

وماذا يحدث لو أن الأزهريين اعتدوا على النساء المتظاهرات! وماذا يحدث لو أن بعض الشبان تعرضوا لهن وألقوا عليهن الكلام إياه!!

وفي ١٦ مارس ١٩١٩ عقدت نساء مصر اجتماعاً في الكنيسة المرقصية وتم انتخاب اللجنة التنفيذية للنساء الوفديات برئاسة هدى شعراوي ونظموا مظاهرة ضد الاحتلال، وأعلنت هدى شعراوي أن شهيدات الثورة هن: شفيقة مُحَّد (أول مصرية تسقط صريعة برصاص الإنجليز) وفهيمة رياض وعائشة وحميدة خليل عدا أخريات مجهولات.

وعندئذ فقط آمن عبد الرحمن فهمي بأن صفية وهدى على حق في إصرارهما على اشتراك المرأة في الثورة، وبطبيعة (عبد الرحمن فهمي) العسكرية أعجبه التكتيك الحريمي فقد كان الضابط الوحيد في ثورة ١٩١٩م. ورغم إلحاحه على حاجة الثورة إلى الضباط الوطنيين، فإن سعد زغلول لم يوافق على ضم ضباط إلى القيادة! فقد كان يرى مكان اجتماع النساء في الكنيسة المرقصية فكرة عسكرية ضمنت سلامتهن وعدم التعرض لهن! وسأل علي شعراوي عن ذلك فقال له: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان! ولم يقل شيئاً.

وسجلت هدى شعراوي (خروج المرأة المصرية لأول مرة) في مذكراتها فقالت: تشكلت لجنة مركزية كان لى شرف رياستها وعملت تلك اللجنة على تنظيم صفوف المرأة في هذا الجهاد العظيم، ولما قام الإنجليز يصبون نيرانهم على الثائرين، قررت اللجنة إعداد مظاهرة كبيرة تخرج فيها النساء رغم قيود الأحكام العرفية التي تحرم المظاهرات، وتعرض القائمين بها لرصاص الجيش وإلى ما تبع ذلك من عقوبات السجن والتعذيب. هذا كله لم يثن من عزم نساء مصر، فطلبت لجنتنا من السلطة المختصة الإذن بهذه

المظاهرة السلبية؛ فرفض طلبها ولكننا قررنا القيام بها حسب الخطة التي وضعناها وهي أن نبدأ السير من منتزه (قصر الدوبارة) القريب من المفوضية الأمريكية لنقدم لها احتجاجنا أولاً، وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلي في ذلك اليوم للاشتراك في المظاهرة بادرني زوجي بالسؤال: إلى أين تذهبين والرصاص يدوي ويتساقط في أنحاء المدينة؟ فأجبته: للقيام بالمظاهرة التي قررتها اللجنة. فأراد أن يمنعني، فقلت له: هل الوطنية مقصورة عليكم معشر الرجال فقط، وليس للنساء نصيب فيها؟..

فأجابني: هل يرضيك إذا تحرش بكن الإنجليز أن تفزع بعض النساء ويولون (يا لهوتي)؛ فقلت له: إن النساء لسن أقل منكم شجاعة أيها الرجال!.

وتركته وانصرفت ولحقت بالسيدات اللاتي كن في انتظاري وغادرنا عرباتنا وشكلنا أول مظاهرة نسائية منظمة نحمل فيها لافتات كتبت عليها عبارات وطنية وحمل بعضهن أعلام جميع الدول إلا علم الإنجليز، وسارت المظاهرة في جلال قاصدة المفوضية الأمريكية أولاً حسب البرنامج، وكانت تقابل من الجمهور بالتصفيق وتنثر عليها الأزهار من نوافذ المنازل، وعلمنا أنه أمام قنصلية فرنسا وقف جمهور من الفرنسيين معهم باقات الزهور استعداداً لتحيتنا، وكان المقرر أن نمر بها وبباقي المفوضيات وتنتهي ببيت سعد. ولكن للأسف عندما وصلت المقدمة إلى شارع سعد زغلول، دهشت إذا رأيت الموكب يتحول عن الخطة المرسومة قاصداً بيت سعد أولاً، فأرسلت إلى الدليلات أذكرهن بالاتجاه المتفق عليه، فقلن إنه في آخر وقت انفصلت بعض سيدات المقدمة على أن تبدأ المظاهرة من بيت سعد، ولا أدري إن كان هناك تدبير مبيت لذلك؟

وعندما وصلنا بيت سعد وجدنا أنفسنا محاصرات بالجيش البريطاني كأنه كان في انتظارنا هناك، ولما أردنا اقتحام صفوفهم تحرش بنا الجنود، وارتكز أحدهم وصوب بندقيته نحوي فتقدمت إليه وإذا بإحدى صديقاتي تسحبني من الخلف؛ فقلت لها بصوت مسموع: اتركيني فإني أريد أن تقع في مصر اليوم "مس كافيل" أخرى.

ولكن الغريب أن عبد الرحمن فهمي عندما يسجل مذكراته فيما بعد يتجاهل شجاعة (هدى شعراوي) ويقرر بأن الذي قالت: (اتركينى فإنني أريد أن تقع في مصر اليوم مس كافيل أخرى) وواجهت بنادق الإنجليز بشجاعة الفرسان إحدى المتظاهرات(٧)! وإن كانت(د. آمال السبكي) في كتابها الحركة النسائية في مصر تقرر بأن لديها تسجيل ذكرت فيه هدى شعراوي أنها قائلة تلك الكلمة وصاحبة هذا الموقف.

ويصف الرافعي مظاهرات ١٦ مارس ١٩١٩ في كتابه (ثورة ١٩١٩، ص١٢٠ القاهرة ١٩٤٧م) لم تشأ المرأة المصرية أن تحجم عن المساهمة في تلك الثورة التي اشتد لهيبها فأرادت أن تحظى بشرف هذا

---

(٧) هذا الرأي يقول به أيضاً أيمن نور (من حزب الوفد الجديد) ويرى أن هناك مظاهرتين للنساء بارزتين ومعاصرتين لثورة ١٩١٩:

- الأولى: مظاهرة النساء في ١٦ مارس ١٩١٩ وقادتها هدى شعراوي وهي شبه رسمية لنساء الوفد واقتصرت على (النساء الوفديات في اللجنة التنفيذية للحزب).
- الثانية: مظاهرة النساء في ١٠ أبريل ١٩١٩ وقادتها امرأة لا تذكرها الأجيال ولا تعرف حياتها في الحركة النسائية في مصر هي: (شفيقة محمد عشماوي) وكانت أرملة من شياخة غباشي بالخليفة، قادت ثلاثمائة سيدة إلى مقر المعتمد البريطاني تطالب باستقلال البلاد وتدافع عن قادة ثورة ١٩ في المنفي (وهي صاحبة عبارة مس كافيل) وإن (شفيقة محمد) تعقبها جنود الإنجليز وقتلوها بالرصاص عند انصرافها وسط هتاف نساء مصر: تحيا الحرية، في ذمة الله يا شفيقة.

العمل المجيد حتى تبرهن للغاصب المحتل على أنها ليست أقل قوة وعزيمة عن أختها الغربية، وحتى تذكي نار الحماسة الوطنية في قلوب الرجال؛ ففي ١٦ مارس انطلقت كثيرات من عقائل العائلات الراقية يجبن أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال، مناديات بسقوط الحماية. وقد مررن بموكبهن بدور القنصليات ومعتمدي الدول الأجنبية والناس من حولهن يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن فكان ذلك منظراً جميلاً رهيباً يأخذ بمجامع القلوب. ولكن لم يكن للسلطة أن تترك مثل هذا الموكب الرائع دون أن تشوه من جلاله فضرب الجنود الإنجليز نطاقاً حولهن وسدود إليهن فوهات بنادقهن وحرابهن على أن السيدات لم يرهبن هذا التهديد، ولم يفت عضدهن مشهد أولئك الجند المسلحين بل تقدمت واحدة منهن إلى جندي كان قد وجه إليها بندقيته وقالت له بالإنجليزية: (أطلق بندقيتك في صدري لتجعلوا في مصر مس كافيل ثانية) فخجل الجندي وتنحى للسيدات عن الطريق بعد أن لبثن في وهج الشمس أكثر من ساعتين، فهل نقل عبد الرحمن فهمي عن الرافعي أما أنه كان لا يرى في نشاط المرأة السياسي في الوفد فائدة وقد فجرته هدى شعراوي منذ بداية الحركة الوطنية الجديدة تحت قيادة سعد (نوفمبر ١٩١٨)!

على كل حال فقد استمرت انتقادات عبد الرحمن فهمي اللاذعة لهذا النشاط، فلقد اعتادت اللجنة المركزية لسيدات الوفد أن تحتج ببرقية على كل ما لا يروقها، وتنهي برقيتها بتوقيعات للسيدات المشاركات بالاسم ثلاثى بالطبع تبدأ التوقيعات برئيسة اللجنة (هدى شعراوي).

وكثرت هذه البرقيات وأصبحت تشغل جزءًا من اجتماعات الوفد، وفي أحد المرات قال عبد الرحمن فهمي أثناء الاجتماع، وأية أخبار اللجنة المركزية للبريد! وكان يقصد بالطبع اللجنة المركزية لسيدات الوفد!!

ولكن هدى شعراوي استمرت في حركتها وحيويتها، وفي ١٣ ديسمبر ١٩١٩ اجتمعت مع عدد كبير من نساء مصر في اجتماع سمي (بالكاتدرائية المرقصية) وأعلنت هذه المرة عن مغزى التكتيك الذي يهتم به عبد الرحمن فهمي (لأن المكان له دلالته إذا لم يشعر المصريون باختلاف المذاهب الدينية بين مسلمين وأقباط) وناقشوا وكان احتجاجهن على:

- نفي الزعماء المنتخبين أبان الثورة.
- المعاملة القاسية للشعب طوال الثورة.
- لجنة ملنر.
- الوزارة المعنية بمساعدة الإنجليز (وزارة وهبة باشا)
- رفض مطلب مصر بحضور مؤتمر الصلح وضرورة إعلان استقلال مصر.

وحينما علم سعد زغلول أعجب (بهدى شعراوي) وبمبادئها السابقة وأدهشه بأن ٧١ سيدة وقعن بيان ١٣ ديسمبر ١٩١٩ وبأسمائهن مباشرة

فقد تخلت المرأة فيه عن كتابة توقيعها بحرم فلان العلان!! وسألها لماذا هتفن بالإنجليزية في مظاهرة ١٦ يناير ١٩٢٠؟!

فقالت هدي شعراوي: ليفهم الإنجليز إننا جميعاً نريد الاستقلال، الرجال والنساء.

فقال لها: اهتفوا بالعربية وارفعوا علم مصر، يجب ألا يعتقد المصريون أنكن نبت غريب.

وكتب عن ذلك عبد الرحمن فهمي في مذكراته: قامت بعض السيدات المصريات بمظاهر لطيفة في ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرا، وهناك هتفن لسنيوت حنا بك المقيم هناك وللوفد المصري ورئيسه، وللاستقلال التام لجريدة مصر، ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز أخرجت كل واحدة علماً مصرياً صغيراً وصحن بأعلى أصواتهن تحيا مصر حرة مستقلة. الاستقلال التام أو الموت الزؤام. يحيا سعد باشا زغلول يسقط ملنر. وكل هذه النداءات باللغة الإنجليزية، على أن أهم ما في الموقف هو أن عبد الرحمن فهمي يسجل في تقرير له للوفد مؤرخ في ٢ مارس ١٩٢٠ أن لجنة السيدات التي ترأسها السيدة حرم شعراوي باشا تحتج على مشروعات ري السودان، وغيرها. ونراه هو يقصد شعراوي باشا لا يهتم بمثل ذلك، ولعل ذلك يفسر بداية تباعد (علي شعراوي) عن زعيم الحركة الوطنية (سعد زغلول) ذلك الموقف الذي تبلور عام ١٩٢٢ في تأييد الشعراوي للانشقاق الكبير الذي عرف بحزب الأحرار الدستوريين،

فقد عانى الرجل من وجوده وزوجته هدى شعراوي في حزب واحد، ثم أنهكه الوفد.. أخذوا ثروته فهو أغنى رجل في الصعيد، وكلما عبر عن رؤية مختلفة اتهموه بأنه رجعي التفكير ومتعصب ضد الأقباط

أما هدى شعراوي فقد بدأت تمارس تشاطات خاصة، دعت لجمع تبرعات لإنشاء جمعية لرعاية الطفل، وتحمس الناس للدعوة وتم جمع التبرعات لكن الحكومة أوقفت المشروع، وكانت النظارة في ذلك الوقت تحت رئاسة (الحضرة الفخيمة الخديوية) عباس حلمي وسنة ١٩٠٨ بدأت الدعوة لمحاضرات ثقافية على السيدات في قاعة من قاعات الجامعة الأهلية ووافق الأمير أحمد فؤاد على تخصيص قاعة لمحاضرات السيدات يوم الجمعة من كل أسبوع.

وفي سنة ١٩١٠ اتفقت (هدى شعراوي) مع الأميرة (عين الحياة) وعدد من الأميرات والسيدات على إنشاء (مبرة مُحَّد علي) لعلاج الأطفال. وعلى إنشاء مدرسة للبنات وفي مايو عام ١٩١٤ أسست (هدى شعراوي) بمعاونة الأميرتين (عين الحياة) و(أمينة حليم) جمعيتي (الرقي الأدبي للسيدات والمرأة الجديدة) وقد توقف نشاط هذه الجمعيات أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم تحولت متحمسة مستقلة عن الوفد منذ ١٩١٦، ثم بدأت مترددة في علاقتها بالوفد من بداية عام ١٩٢٢ فهي لا ترى أنها حققت نصراً سياسياً للمرأة من خلال الوفد، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تنكر حماس ورعاية سعد زغلول لحركة تحرير المرأة.

وفي مارس ١٩٣٢ وفي يوم ١٦ ذكرى مظاهرة ١٦ مارس ١٩١٩ أصبحت هدي شعراوي جبهة مستقلة بتكوين الاتحاد النسائي المصري الذي استطاع أن يضم بالفعل عناصر من لجنة الوفد المركزية للسيدات فقد أحست المرأة في قرارة نفسها ومنذ بداية الإفراج عنها والأخذ بيدها نحو الخروج الكبير من قفص الحريم – أن الرجل هو صاحب الفضل – وبالتالي فهو لن يتركها لترسم لحياتها بباقي المعالم خارج الحرملك. لن يسمح لها أبداً أن تتخطى الدور الذي رسمه لها.

تبلور هذا الإحساس رويداً رويداً منذ أن علمت بموقف رجال الوفد الذي رفضوا الاعتراف بها في بداية الأمر، وباللجنة المركزية التي رأستها هدى شعراوي، وعلى الفور رأت اتخاذ بعض المواقف التي من شأنها توصيل هذا الإحساس للرجل، ومن ثم رفضت بشدة أن تكون مجرد بديل للرجل أو مقلدة له ولسياسته، بل أكثر من ذلك عبرت عن هذا الرفض بشكل واضح وصريح حين أصرت عضوات اللجنة المركزية لنساء الوفد أن يكن عضوات كاملات العضوية، وأن يكون لهن الحرية في التعبير، رافضات الطاعة العمياء للرجال، لمجرد تحقيق الإجماع في الآراء خلال الأزمات. وتجلى هذا الرفض أكثر، حين انتقدت المرأة شروط الاستقلال التي وافق عليها من قبل رجال الوفد! إن الإحساس بضرورة الاعتماد على النفس، بعيداً عن إرادة الرجل، قد تجلى أيضاً وبصورة مثيرة في قرار نساء مصر بضرورة إنشاء اتحاد نسائي للمرأة المصرية.

واقتنعت هدى شعراوي أن قضية المرأة، قضيتها وقضية مصر، وأن سعد زغلول بما أعطاها من تأييد، قد كسب بها خطوة للأمام ولكن الوفد كسب بها عدة خطوات في طريقه السياسي، ولكنها اقتنعت أيضاً بأنها لن تحقق نصرا سياسيا للمرأة عن طريق الأحزاب، بل أنها آمنت بأن كل التحركات الجيدة والتي سمح بها (للجنة نساء الوفد) كانت في فترات نفي سعد زغلول حينما كانت صفية زغلول تتولى الأمر، ولم يكن اقتناع هدى شعراوي بذلك نابع من طرحها أي قضية لها علاقة بالمرأة، وإنما نابع من التجاهل الذي رأته في قضية السودان التي تنبتها داخل الوفد، كقضية سياسية، وتؤيد هذا الرأي آمال السبكي في كتابها (الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩، ٥٢)

أرسلت هدى شعراوي الاحتجاجات السابقة، وظلت تعمل في لجنة نساء الوفد إلى أن اختلفت مع سعد باشا بعد عودته من المنفى نظراً لموافقته على البند الخاص بالسودان الذي رمى إلى مناداة الملك فؤاد بملك مصر دون السودان في البيان الذي ألقاه توفيق نسيم باشا عند توليه الوزارة، فما كان من سعد باشا إلا أن أرسل يهنئه على بيانه، ولم يتطرق مطلقاً إلى هذا التجاهل؛ فثارت هدي شعراوي ولم يعبأ سعد باشا بثورتها بل إنه عندما اجتمع بالوفديين في الاحتفال السنوي للوفد في ١٣ نوفمبر ١٩٢٢، لم يدعها لحضور الاحتفال رغم أن العادة جرت على حضورها ولجنة الوفد المركزية للسيدات منذ ثورة ١٩١٩

وفي الوقت الذي أصدر بياناً عن الاحتفال يشكر فيه كل الوفديين على موقفهم أثناء وجوده بالمنفى، فما كان من هدى شعراوي إلا أن أرسلت رسالة إليه شخصياً تخطره فيها بالرغبة في عدم العمل معه في اللجنة السابقة كما قدمت استقالتها.

فقد كانت هدى شعراوي أصدرت من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات في ٢٦ يناير ١٩٢٠ اعتراضها على ما تمخضت عنه المفاوضات في مشروع ري السودان ورفضت ذلك لثلاث نقاط:

- لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن في السودان مع أن مركز إنجلترا هناك غير شرعي، ولا يختلف في بطلانه عن مركزها في مصر فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما في الاستقلال لا يمكن إنكاره.

- لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره الأخصائيون من كبار المهندسين المصريين والإنجليز.

- لأن البت في مثل هذه المشروعات من اختصاص المجلس النيابي الذي يمثل مصر والسودان معاً، وليس الإنجليز.

على العموم طورت هدى شعراوي خطواتها فدمجت جمعيتي (الرقي الأدبي للسيدات المصريات وجمعية المرأة الجديدة) في جمعية واحدة هي المرأة الجديدة تحت رعاية شرفية للأميرة (أمينة حليم) وجعلت مجلس

الإدارة برئاسة حرم محمود صدقي، أما أمانة الصندوق فأسندته إلى فهيمة ثابت، وكان ذلك في ٢٢ أبريل ١٩٢٠. أما اللجنة المركزية للسيدات فقد تركتها لوكيلتها شريفة فاضل التي لم تقم بأي عمل في اللجنة بل إنها انضمت لاحقاً إلى الاتحاد النسائي الذي أنشأته هدى.

وركزت هدى شعراوي نشاطها على إلقاء المحاضرات في الفنون والآداب وأقامت الحفلات الموسيقية لأشهر العازفين وسمحت بالغناء والتمثيل في بيتها وركزت نشاطها في الصحة والعناية بالأطفال ووجهت المرأة إلى فنون الإدارة المنزلية، ومن المعروف تاريخياً أن بعد فشل مفاوضات (عدلي – كيرزن) ١٩٢١ التي كانت بين الحكومة المصرية والإنجليز عاد عدلي يكن وقدم استقالته، وعادت الثورة من جديد وامتنع الساسة من المصريين عن تشكيل الحكومة، وألقت إنجلترا القبض على سعد وزعماء الوفد وتوسعت إنجلترا في القبض حتى وصلت إلى القيادة الخاصة في الوفد، ثم تم نفي سعد زغلول وبعض زملائه للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل. في هذه الفترة ظهرت المرأة المصرية في ثورة بيضاء سلمية قائمة على المقاطعة لكل ما هو إنجليزي (البضائع– السفن– البنوك) وكان إقبال الشعب على المقاطعة رائعاً، وبدأت تفلس أكبر المحلات التجارية البريطانية في القاهرة. أفلس محل (ستاين) ثم محلات (مورنج) واحداً إثر واحد.. وبدأت البنوك البريطانية تغلق فروعها، ثم تغلق أبوابها. خرج الناس ينفذون المقاطعة بإرادة غريبة. كانت بعض المحال التجارية البريطانية تخفض أسعارها إلى النصف لتغري الفقراء ومتوسطي الحال بالخروج على قرار المقاطعة، وصمد المصريون للإغراء، فضلوا أن يشتروا البضائع غير

البريطانية الغالية على البضائع البريطانية الرخيصة. طلب الوفد من الشعب أن يسحب أمواله من البنوك البريطانية ويودعها في بنك مصر، وفي يوم وليلة خرجت الملايين من الخزائن البريطانية ودخلت بنك مصر. نشطت الصناعات المصرية أصبح كل مصري يتباهى بأنه يرتدي حرير اللوزي أو قماشاً من صنع المحلة.

أصبح محل تجارة حامد المواردي في العتبة أعظم محل تجاري في القاهرة، كبر فجأة وتغلب على شيكوريل وشملا والبون مارشيه وأورزدي باك. فشلت كل محاولات اللورد اللنبي والحكومة لإفساد المقاطعة، ويصاب الإنجليز في مصر بانهيار ويلحون على لورد اللنبي بضرورة التسليم للثوار، ويبرق اللورد إلى حكومته في ذعر (إن الثورة تزداد اندلاعاً، هذا الموقف الخطير لا يمكن أن يستمر، إما أن نضم مصر العنيفة العداء للإمبراطورية، وإما نستسلم استسلاماً تاماً!)

وعبثاً حاول الإنجليز أن يعرفوا أين تطبع منشورات المقاطعة، ولم يتصوروا أن نساء مصر هن اللاتي يتولين هذه الحرب الخفية، ولم يتصوروا أن مقابلات السيدات في بيوت مختلفة في الصالونات هي اجتماعات سرية توضع فيها خطط المقاطعة، إلا أنه في عام ١٩٢٢ حدث ما لم تتوقعه هدى شعراوي! فقد حضرت صحفية أمريكية تدعى (جريس تومسون) لترى نساء مصر بعد أن أصبح تعلقهم ومظاهراتهم مع الوفد محل نظر الدنيا وكتبت كتاباً اسمه (الزغلوليات) أي نساء ثورة سعد زغلول، والتقت في ذلك الوقت بالسيدة صفية زغلول والملكة نازلي.. وإذا ببعض

السيدات تخطر هدى شعراوي بأن صفية زغلول لم تذكر عنها شيئاً رغم تحدثها باستفاضة عن غيرها من نساء الوفد، وأنها تنسب فكرة المقاطعة لنفسها.

وفي لحظة غضب أعلنت هدى شعراوي السر: لقد اجتمعنا في منزلي وبعيداً عن لجنة سيدات الوفد سبع عشرة سيدة برئاستي، وطرحت فكرة المقاطعة، وانتخبنا عزيزة فوزي والسيدة جميلة عطية والآنسة سيزا نبراوي سكرتيرتين، ووضعت خطة للمقاطعة بنفسي من عدة بنود:

- رفع احتجاج الجمعية على سياسة إنجلترا نحو مصر والسودان إلى مندوب هذه الدولة بمصر وإلى وزارة خارجيتها بلندن وتبليغ ذلك للحكومة المصرية.
- العمل على انتخاب لجان فرعية في المدن والمحافظات لترويج هذه الدعوة.
- نشر نداء للشعب تستحثه على تأييد مبدأ المقاطعة والعمل على تنفيذها.
- نشر نداء للتجار وأرباب الصناعات تستحلفهم بحق الوطن عليهم، ألا يستوردوا بضائع جديدة أو آلات صناعية من إنجلترا.
- أن تعقد جلسات اللجنة كل أسبوع يوم الجمعة بعد الظهر بمنزل الرئيسة إلا إذا طرأت ظروف مستعجلة، وقالت عبارة رنانة.

ولم يكن المشروع إلا هودج ركبته أم المصريين!! وكتبت سيزا نبراوي في مذكراتها: أن المقاطعة كانت بدايات أعمال الاتحاد النسائي في ذلك الوقت أما تاريخ ١٦ مارس ١٩٢٣ فهو تاريخ التأسيس بعد الإجراءات الإدارية، وإذا كانت صفية زغلول اعتبرت حرم بهي الدين بركات باشا (أركان حرب المقاطعة) فالحقيقة أن هدى شعراوي (فيلسوفة المقاطعة وصاحبة الاقتراح)

وظهر كتاب (جريس تومسون) لأول مرة مترجماً للعربية عام ١٩٧٠ كشف عنه النقاب (محمود عوده) وجاء فيه: لقد دهشت أن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربي المريض قد انقرضن والحوريات المضطجعات في استرخاء يعرضن فتنتهن على أرائك ناعمة من الحرير وحولهن الجواري يعزفن العود لم يعد لهن وجود إلا في كتب الأساطير، لقد وجدت مدام زغلول وهي سيدة تبدو للناظر من الوهلة الأولى ذات شخصية قوية وذات كبرياء ووداعة، فلقد اعتقل زوجها زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل في ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف في عزبته، وشهدت صفية هانم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت. وكما قالت لها: أن سعد سجين سيشل ولكنني هنا روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه. كذلك ردت بعنف وبثقة على المندوب السامي عندما عرض عليها امكانية مصاحبتها لزوجها بسيشل حيث قالت: إنني سأظل في القاهرة وسأعمل كل ما في وسعى لأتم عمل زوجي وأنتم تستطيعون أن تنفوا جثمان سعد، ولكنكم لن تستطيعوا أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش، وفي بيته سأكون سعداً حتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب

لن يرضى بغيابه، ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً وحتى لو مات سعد فسيأتي كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر..

كما أعدت صفية زغلول ولجنة الوفد للنساء منشوراً وزع في كل أنحاء البلاد بعنوان (نداء حرم الرئيس) قالت فيه: لئن كان سعد شيخاً فثقوا أن هذا النفي لا يهد من عزيمته إلا شيئا واحدا هو أن يعلم يوماً أنكم اعتراكم الضعف ولو للحظة واحدة. وبدأت عقلية الرئيس وزعماء الوفد في المنفى وزعماء الصف الثاني في السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملي بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة، وجمعية محمَّد على الأرستقراطية للكفاح من أجل استقلال حقيقى للبلاد.

ولم تكن صفية هانم في الحقيقة سوى أم لكل المصريين، ولهذا لقبت (بأم المصريين) فكانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال خاصة من عينة زوجها، كانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات في يد سيدة مصرية ثانية عظيمة، هي السيدة (هدى شعراوي) وكانت سيدة هادئة رزينة وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة، وهي تحمل في وجهها شخصيتها تلك القوة الصافية المتدفقة التي تحسها أمام النيل ونهر مصر العظيم ووراء مظهرها المهذب الشامخ يحس الإنسان أيضاً أن هناك عقلاً مرتباً، وإرادة صلبة. ولم تسمع هدى شعراوي شهادة تقديرها الحقيقية، وتركت نفسها لأوهامها

التي صنعت الجفاء بينها وبين الوفد والمقاطعة الحريمي بينها وبين صفية زغلول. وقد تطورت أحاسيسها المبالغ فيها حتى أنها اعتقدت بأن صفية زغلول هي التي أوعزت إلى سعد زغلول بالعناية (بمنيرة ثابت) لتحل محلها في الوفد بعد ما أظهرته أختها فهيمة ثابت من وطنية بسفرها معها كوصيفة عند مرض سعد زغلول في المنفى!!

ولكن علي الشعراوي ما أن استراح لاستقالة زوجته من الوفد حتى فوجئ بقصره يتحول إلى ملهاة ثقافية: غناء، وتمثيل، واجتماعات و... و... لقد أرخت هدى شعراوي العنان، وتركت نفسها لنشاط فني وبدأت تهيم بالموسيقى التي تعلمتها في الصغر وتركتها وراءها..كانت لا تستطيع أن تفر من ذلك وقد أصبح يشرف على جمعيتها (المرأة الجديدة) الهوانم السيام اللاتي دخلن في ركاب الأميرة الطيبة المهذبة (أمينة حليم) التي وضعت جزءًا من ثروتها لهذا النشاط.

وفجأة تفجرت قنبلة اسمها (فاطمة سري)، قيل أنها تزوجت عرفياً من (مُحَمَّد شعراوي) ابن هدى هانم شعراوي بورقة سرية في ١ سبتمبر ١٩٢٤!! ولم تكن فاطمة سوى مطربة اعتادت هدى شعراوي أن تجعلها تحيي حفلات جمعيتها (المرأة الجديدة) وذلك لحسن حظها وذوقها الرفيع في الملابس؛ فقد قال لها يوسف وهبي: فاطمة سري فنانة مستقيمة من المسرح للبيت ومن البيت للمسرح، إنها بنت ناس!! وكان غريباً أن تثق هدى شعراوي في يوسف وهبي وهو دون جوان الفن؟! وجاء ذلك في وقت ظهور الاتحاد النسائي المصري ككيان سياسي تحت رئاستها وتضمن برنامج

الاتحاد النسائي مطالب شاملة فقد طالب باستقلال مصر والسودان وحياد قناة السويس حتى لا تستخدم في الحروب وضد مصالح مصر، كما يوكل لمصر حق الدفاع عنها ورفض تحمل ديون تركيا القديمة، وطالب بإلغاء الامتيازات الأجنبية، كما نادى بوضع قاعدة للمفاوضات مع بريطانيا ثم طالب بإدخال تغيرات على دستور مصر أهمها وضع الديمقراطية السياسية موضع التنفيذ بأن تمنح المرأة حق الانتخاب وبإلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية وقانون التضمينات، وكذلك الاهتمام بتحسين الجيش المصري لأنه أهم وسيلة للدفاع عن الوطن الحبيب والسعى لتطوير كافة وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية. هذا في المجال السياسي، أما المجال الاجتماعي فقد دعا إلى نشر التعليم الابتدائي بصفة إلزامية وطالب بالإكثار من البعثات العلمية وفتح باب التعليم القانوني والعالي أمام الجنسين ودون التقيد بسمة معينة مع تعليم الطلاب الصحة العامة والقانون والموسيقى لتهذيب النفوس وزيادة الوعي والحث على استكمال الجامعة المصرية وتشجيع حركة الترجمة لما لها من أثر بارع في نقل نفائس الكتب وأمهات المعرفة، وطالب بتطوير الصناعة وفتح باب الأسواق أمامها وحمايتها من المنافسة الأجنبية وتشجيعها أمام المصريين خاصة بكافة الوسائل. وأخيراً محاربة المسكرات والمخدرات. أما ما يخص الجانب النسائي، ففي مجال التعليم المطالبة بجعل الوظائف الإشرافية للمرأة والمطالبة بحقوقها المهضومة وقانون الانتخاب والسعي لحل المشاكل الأسرية بطريقة عادلة تضمن للمرأة حريتها وإنسانيتها، وضع قانون يمنع

تعدد الزوجات والمطالبة بجعل الطلاق أمام القاضي، إلزام المطلق بالنفقة وزيادة سن الحضانة للأطفال وغيرها من قوانين الأحوال الشخصية.

واستطاع اتحاد هدى شعراوي أن يجذب إليه أنشطة الجمعيات الأخرى وخاصة بعد رحيل سعد زغلول الذي قدم السند الأدبي الكبير لحركة المرأة المصرية. وفي مارس ١٩٢٣ ظهرت هدى شعراوي في المؤتمر النسائي بروما ممثلة للمرأة المصرية حيث ألقت كلمة عن أوضاع المرأة في مصر، فرقت فيها بين أصول الدين وما كفله للمرأة من حقوق وبين الأوضاع الاجتماعية السائدة التي تكرس الوضع الدونى للمرأة. وانضم الاتحاد النسائي المصري للاتحاد النسائي الدولي على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية والعمل على نشر مبادئ السلام.

وفي عام ١٩٢٤ اجتمعت نساء الوفد مع جمعية الاتحاد النسائي المصري وأصدرن كتيباً يشمل تصوراً شاملاً وعاماً به قسم سياسي عن موقفهن عن القضية المصرية وقسم عن تعديل الدستور وقسم آخر عن الأوضاع الاجتماعية، كما ضم الكتيب قسماً نسوياً يطالب بحقوق المرأة مثل المساواة في التعليم، وزيادة مدارس البنات الثانوية، وفصل إدارة تعليم البنات عن تعليم البنين، وإحلال خبيرات من النساء محل الرجال في فروع التعليم النسوى، واشتراك النساء في حق الانتخاب وإصلاح قانون الأسرة بسن قانون يجعل تعدد الزوجات للضرورة فقط، وأن يكون تطليق المرأة أمام القاضي الشرعي، وقد أرسل هذا الكتيب والذي يكاد يضم برنامجاً

كاملاً لحزب سياسي نسائي إلى رئيس مجلس الشيوخ والنواب، والصحافة وعدد كبير من المواطنين والمواطنات.

وعادت هدى شعراوي لقصرها سعيدة قريرة العين ليفاجئها زوجها بما تنشره الصحف، ووقفت هدى شعراوي مذعورة مما كتب من قلم جوعان وقلم غلبان وقلم كرباج وقلم هلفوت وقلم حوت وقلم ملطوط، فما الذي تنشره مجلة (فتاة النيل) و(الصباح) ولكن ما أدهشها صورها، وهي تمثل سافرة مندمجة في الدور!! وغاص علي شعراوي في مقعده حينما قالت هدى: هذه الصور حقيقية ولكن كيف خرجت من البيت؟!

وعرف علي شعراوي أن زوجته (سبع صنايع)، اكتشف أنها شاعرة وكاتبة وأنها تحسن التمثيل كما تحسن العزف على البيانو! واكتشف أن في منزله معمل صغير لصناعة العطور تبتكر بداخله أصنافاً جديدة تهديها هدى هانم لصديقاتها. وبالتحري وجد في حديقة قصره استديو خاصا تحمض فيه الصور وتكبر اللقطات، وأن زوجته كونت فرقة من الصديقات تقوم فيها بدور المخرج ومهندس الديكور وأن الممثل الوحيد فيها من الجنس الخشن هو نجله (محمد بك شعراوي).

أما الرجل الذي وجده في الصورة المنشورة لزوجته هي سيزا نبراوي وقد اندمجت مع هدى شعراوي في دور روميو العاشق الولهان بعد أن تنكرت ولبست ملابس الرجال؟! وحطم علي شعراوي استوديو التصوير وقرر أن يغلق باب القصر بسلسلة وقفل!! ولكن الرجل وجد طلابا

صينيين على باب القصر وسأل في ثورة: إيه دول كمان؟! وعرف أن زوجته تعطف على هؤلاء الطلاب الذين يدرسون في الأزهر وأنها قد جعلت لكل منهم مكافأة شهرية، وفتح الباب وكسر القفل وجلس يعطي لهم..

ولكن هدى لم تخرج واهتدت إلى أهمية الصحافة وجلست لتعد لمشروع إصدار جريدة مصرية بعيدة عن الإسفاف والحياة الشخصية وأصدرت بالفرنسية التي تجيدها (الإجيبسيان) وأسندت رئاسة تحريرها إلى السيدة سيزا نبراوى، مرافقتها الدائمة وسكرتيرتها الخاصة، وكان مقالها الأول عن: لماذا لم يحقق سعد زغلول وعده بدخول المرأة البرلمان واشتراكها في الحياة السياسية؟ وكان سعد زغلول وقتها يقود الوزارة!!.. وإذا بعض الصحف ترد عليها بمقال: لماذا لا يتزوج الأبناء على سنة الله ورسوله؟! ووجدت أن موضوع ابنها مع فاطمة سري قد تطور فأرسلت علي بك سعد الدين لها بألف جنيه فقالت له هذا لا يرضي الله! واعتقدت هدى أنها تطمع في المزيد فأرسلت المحامي الهلباوي بك بأربعة آلاف جنيه فألقتها فاطمة سري في وجهه، وقالت له إنت محامي أم قواد؟!

وإذا بفاطمة سري تعلن أنها حامل من ابن هدى هانم، وبدأت حركة نسائية كبيرة استعملت فيها الملاية والحياني والطماطم والبيض الفاسد وبينما كانت معركة (هدى– فاطمة) دائرة، إذا بخطاب يصل من باريس يطالب الاتحاد النسائي المصري بالمشاركة في المؤتمر النسائي الدولي العاشر عام ١٩٢٦ وتحصل هدى شعراوي على تأييدات عربية من النساء لتكون ممثلة عن مصر ونساء العرب (العراق – سوريا– فلسطين – لبنان – شرق

الأردن) لتعود من هذا المؤتمر وقد فكرت في الاتحاد النسائي العربي فقد هالها الموضوعات المعروضة في مؤتمر باريس والتي كانت تسمع عنها لأول مرة: الأم غير الزوجة، جنسية الزوجة، منع تجارة الرقيق، دور المرأة في السلام العام، بينما كانت في جعبتها موضوعات: فوضى الطلاق، بيت الطاعة، وضع حد لتعدد الزوجات.

وحينما عادت من المؤتمر وجدت نفسها قد حصلت على نيشان الكمال من لبنان، وأصبحت منذ ذلك الوقت رئيسة للاتحاد النسائي العربي. (واستمر هذا الاتحاد حتى بعد وفاة هدى شعراوي وفي سنة ١٩٥٦ تولت رئاسته د. سهير القلماوي واستمرت رئيسته حتى ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه. وألغي الاتحاد النسائي المصري، وقالت عنه د. سهير القلماوي أنه اتحاد من ١٦ دولة عربية يحاول أن يعمل للتعارف بين البلاد العربية بأنشطة نسائية، ولكنه في الحقيقة ليس له تأثير سياسي أو إلزام دولي).

وفكرت هدى شعراوي في أهمية إصدار مجلتها (المصرية) باللغة العربية حتى تستطيع أن تكون بمثابة منبر ليس للاتحاد النسائي المصري، ولكن للاتحاد النسائي العربي وعرضت رئاسة التحرير على د. سهير القلماوي (الآنسة سهير القلماوي وقتها) وتقول عن ذلك: بدأت في الإعداد ولكني فوجئت بأن هدى شعراوي تريدها ترجمة لمجلتها الفرنسية (الإجيبسيان) فرفضت ولم أجد ديمقراطية في هدى شعراوي، وشعرت بأنه اتحاد هدى وهوانمها وليس اتحادا للمرأة!!

ومنذ عام ١٩٢٦ ظهرت علاقة غريبة بين الاتحاد النسائي المصري والحركة النسائية في أمريكا، وبدأت مجموعة من الزيارات لهدى شعراوي إلى أمريكا (حتى الآن لم يكشف عن تلك العلاقة ومداها، ولم أجد شيئاً بخصوصها في المراجع) إلى أنه تبع ذلك زيادة نفقتها على تعليم الفتيات في مصر والخارج حتى أن المثال مختار أسماها (إيزيس)، فقد تبنت فنه وجعلته يتفرغ له.

وبعد عقد معاهدة ٣٦ لم تتفق هدى شعراوى مع النحاس باشا وظل هجومها مستمراً عليه، ولم يأخذ الرجل الأمر بجدية وإنما حكى حكاية عن فاطمة[٨] سرى وكيف قابلها في النمسا حينما هربت لتضع مولودها (ليلى)

---

(٨) واعلن الصراع بين المطربة والزعيم ولكن الغريبة تبادل الأسلحة، المطربة تستخدم المبادئ التى تنادى بها هدى شعراوي، وهدى شعراوي تستخدم أسلحة المغنواتية (نعم.. يا عمر.. وهات يا ردح)..

أنا اسمي فاطمة سري، ولم أغير اسمي لفاطمة شعراوي كما فعلت حماتي (اسمها نور الهدى سلطان) وتزوجت علي باشا شعراوي فأصبح اسمها هدى شعراوي!!

إذا كانت تدعي أني لا أحب محمد شعراوي، فلتقل لي هل كانت تحب هي علي باشا شعراوي الذى تزوج قبلها، وكان فرق السن بينهما ٤٠ سنة!!

إذا لم أكن ربيت، فأنت لم تحسني تربية ابنك.. لقد خطفني في سيارة وأنت تعلمين!!

وقال هدى شعراوي:

القذرة.. بتاعة مين.. ومين إنها لها ملف في الآداب.

وكتبت فاطمة سري خطاباً إلى هدى شعراوي، أما نصه فقد نشره مصطفي أمين في كتابه (من واحد لعشرة) وأعاد نشره عدة مرات.

سيدتى: (سلاماً وبعد، أنا اعتقادي بك وبعدلك، ودفاعاً عن حق المرأة يدفعني كل ذلك إلى التقدم إليك طالبة الإنصاف، وبذلك تقدمين للعالم برهاناً على صدق دفاعك عن حق المرأة، ويمكنك حقيقة أن تسيري على رأس النساء مطالبة بحقوقهن، ولو كان الأمر مقصوراً علي لما أحرجت مركزك، إنك أم تخافين على ولدك العزيز أن تلعب به أيدي النساء، وتخافين على مستقبله من عشرتهن، وعلى سمعته من أن يقال أنه متزوج امرأة كانت فيما مضى من الزمان تغني على المسارح، ولك حق أن عجزت عن تقديم ذلك البرهان الصارم على نفسك، لأنه يصيب من عظمتك وجاهك وشرف عائلتك كما تظنون يا معشر الأغنياء، ولكن طفلة مسكينة هي ابنتي وحفيدتك، ابنة نجلك العزيز، والله يعلم، وهو يعلم، ومن يلقي عليها نظرة واحدة يعلم ويتحقق من أنها لم تدنس ولادتها بدم آخر، والله شهيد، وطالبت بحق هذه الطفلة المعترف بها ابنك كتابياً، قبل أن يتحول عني وينكرها وينكرني، فلم أجد من يسمع لندائي وما مطالبتي بحق، وحقي كزوجة طامعة في مالكم، كلا! والله فقد عشت قبل معرفتي بابنك، كنت منزهة محبوبة كممثلة تكسب كثيراً، وربما أكثر مما كان يعطيه لي ابنك، وكنت متمتعة بالحرية المطلقة وأنت أدرى بلذة الحرية المطلقة التي تدافعين عنها، ثم عرفت ابنك فاضطرني أن أترك عملي وأنزوي في بيتي، فأطعته غير طامعة بأكثر مما كان يجود به، وما كنت لأطمع أن أتزوج منه، ولا أن ألد

منه ولداً، ولكن هذه غلطة وإسأليه عنها أمامي، وهو الذي يتحمل مسئوليتها، فقد كنت أدفع عن نفسي مسألة الحمل مراراً وتكراراً، حتى وقع ما لم يكن في حسابي.. هذه هي الحقيقة وانتهى الأمر).

وفي الجمعيات النسائية كان النساء يقلن يخلق من ظهر العالم فاسد (هدى شعراوي) تنجب ولداً بهذا السوء، أما قصة الحب فلها بداية؛ فقد حدث ذات يوم أن دق جرس التليفون في منزل المطربة الممثلة فاطمة سري، وقال المتحدث أنه إبراهيم الهلباوي بك المحامي المشهور، وأن زعيمة النهضة النسائية تدعوها لتغني في سرايتها في اليوم التالى في حفلة ساهرة.. واعتذرت المطربة عن عدم الحضور لارتباطها بحفلة في تياترو رمسيس في نفس الوقت، ألح الهلباوي بك بأن حضور المطربة مسألة ضرورية مهمة جداً. وذهبت فاطمة واستأذنت الأستاذ يوسف وهبي أن تغني في بداية المسرحية بدلاً من نهايتها فوافق، وبذلك تحضر حفلة هدى هانم شعراوي، وأذن يوسف وهبي، وبدأت السهرة ولاحظت فاطمة وهي تغني أن شاباً يقف في آخر الصفوف ينصت باهتمام غريب ويلهب يديه بالتصفيق، ولم تعرف فاطمة هذا الشاب، وشكرتها هدى هانم وأعطتها عشرين جنيهاً في مظروف.

وبعد ثلاثة أيام دعاها محمد شعراوي لتناول الشاي معه في فندق ميناهاوس ورفضت، وذهبت فاطمة تغني في صالة سانتي بحديقة الأزبكية؛ ففوجئت بأن محمد اشترى كل كراسي الصالة لأصدقائه ومحاسيبه يهتفون لها ويهللون، ومحمد شعراوي ينظر لها في صمت ووله، وبعد ذلك دعاها محمد شعراوي إلى وليمة في منزل المحامي الكبير إبراهيم الهلباوى ورفضت، وتابعها محمد من سهرة إلى سهرة، ومن حفلة إلى حفلة ومن كازينو إلى كازينو كان لا يتكلم بشفتيه كان دائماً يتكلم بعينيه وكانت عيناه بليغتين في التعبير عن الوله والشوق والحب والغرام، وذات ليلة أنهت غناءها فوجدته ينتظرها عند سيارتها فنهرته وانطلقت بسيارتها إلى بيتها وعند البيت وجدته هو يفتح باب السيارة وعادت تؤنبه وتوبخه على هذه المطاردة ووعد أن يفك سراحها إذا دخلت بيتها لتبدل ملابسها وتنزل تركب معه سيارته.. وصعدت إلى بيتها حائرة هل تنزل معه أم تتركه واقفاً على الباب؟ ولكن النظرة الحزينة المتوسلة في عين محمد دفعتها أن تغير ملابسها بسرعة وتندفع إلى الباب وتجلس بجانب محمد في السيارة، وانطلقت السيارة والحب ثالثهما، وبدأت قصة الحب تتطور بسرعة تنتقل بين الإسكندرية والقاهرة، وكان حباً شريفاً بدأ بقبلة في السيارة، ثم حدث أن أشارت مجلة الصباح إلى هذا الحب فلم ينزعج محمد ولم يغضب وقال لها أريد أن تعرف الدنيا أنني أحبك! وكانت فاطمة سري مطلقة من مهندس اسمه سيد البشلاوي رزق منها بولدين تركهما مع أمها، ولما عاد من بعثة دراسية في ألمانيا إلى مصر، وعلم بقصة الحب بين مطلقته ومحمد شعراوي ثار وانتزعهما من أمها.

تعذبت فاطمة لحرمانها من ولديها، وإذا بمحمد شعراوي يكتب لها شيكاً بمبلغ ضخم ثمن الأوقات السعيدة التي أمضياها معاً، فمزقت الشيك ورمته في وجهه وداست بقايا الشيك بأقدامها وخرجت من البيت غاضبة وغادرت مدينة الإسكندرية بأول قطار، ولحق بها محمد شعراوي في القطار التالي، وأسرع إلى بيتها واعتذر لها عن سوء تصرفه وعرض عليها الزواج واستدعى الشيخ محمد عطية محامي الدائرة ليكتب صيغة العقد.

وعارضت فاطمة لأن العقد عرفي، وتريد عقداً شرعياً فطلب محمد شعراوي منها مهلة ليحول الزواج العرفي إلى زواج رسمي بعد استرضاء والدته هدى شعراوي وشرعت بالحمل وقررت إجهاض نفسها، وذهبت عند الدكتور إبراهيم الشوربجي طبيب الولادة المشهور ليجهضها، فقال لها: إذا أجهضت نفسك فستقتلين نفسك، ولجأت إلى الوصفات البلدية فمنعها محمد شعراوي وتمسك بالجنين.

وعلمت هدى شعراوي بزواج ابنها الوحيد من مطربة فثارت ثورة عارمة واتهمت ابنها بأنه يحاول قتلها بهذا الزواج وأحاط به الكبراء والعظماء والوزراء يضغطون عليه أن يفترق عن المطربة التى أحبها، فزواجه من مطربة سوف يلوث اسمه وسيقضى على مستقبله السياسي، فلا يمكن أن يكون زوج مطربة وزيراً، وسوف يسئ هذا الزواج إلى أسرة سلطان باشا وأسرة شعراوي باشا من راقصة ولا غنائية، وأصروا أن وقوف امرأة على المسرح هو عمل فاضح في الطريق العام، وبدأوا يهددون فاطمة سري، وجاء موظف بوزارة الداخلية يقول لها: إنه سوف يلفق لها ملفاً في شرطة الآداب يتهمها بالدعارة، وتحدتهم فاطمة أن يفعلوا ذلك وقالت لهم أنها ستطلق بنفسها الرصاص على أي وزير داخلية يقوم بهذا التزوير!

وفجأة استسلم محمد العاشق الولهان لأمه تماماً وسافر معها إلى أوربا، ولكن الوله والهوى كان يغلبه فيرسل لزوجته فاطمة سري.. أرسل لها أن تلحقه في سويسرا. وعلمت هدى شعراوي فانتقلت به إلى جنوا.. وقال لها الحقيني في إيطاليا وعلمت هدى أيضاً فسافرت به

إلى لوزان.. وأثناء الجري والسفر والمراقبة الشديدة الصارمة من هدى شعراوي لمحمد ابن امه الذي يظهر الأدب والطاعة في حجرها.. فإذا ترك الحضن الأمومي تحول إلى عابث صعلوك يجري وراء النساء!!

وانتقلت فاطمة إلى عاصمة النمسا ووضعت مولودتها وأطلقت عليها اسم (ليلى محمد شعراوي) وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٢٥.

وتصادف أن كان مصطفى النحاس باشا المحامي يومئذ في فيينا فقابلته فاطمة وروت له القصة وقالت: أنها كذبت على محمد شعراوي، عندما قالت له أن الإقرار في مصر، فقد كان الإقرار معها في حقيبتها، فنصحها النحاس أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار، وتسلم زوجها صورة الإقرار وتحتفظ بالصورة الأصلية، ففعلت فاطمة تماماً ما نصحها به المحامي مصطفي النحاس! وأخذت فاطمة ابنتها ليلى إلى مصر وأخفتها عن العيون، وعاد محمد شعراوي إلى مصر وزارها في بيتها وسأل عن المولود، فأخبرته أنها طفلة اسمتها ليلى محمد شعراوي وأحضرتها له، فأظهر الأسف وقال لها: يا ليتها كانت ولداً! وإذ به يسألها عن الإقرار؟ وسألته: هل يهمك جداً الحصول على هذه الورقة؟ وقال محمد: بهذا الدليل تثبتين إخلاصك لي إلى الأبد، وكانا جالسين على كنبة في غرفة المائدة، فأخرجت فاطمة الورقة من تحت خشبة المقعد وسلمتها له، وظهرت الدهشة على وجه الزوج لأنه لم يكن يتوقع أن تفرط في هذا الإقرار المهم بهذه السهولة، وفحص الورقة فحصاً دقيقا، فوجدها بخطه وبلون الحبر الذى كتبت به، ولم يتمالك نفسه وقال لفاطمة: أنت أشرف امرأة في مصر، ثم جثا على قدم فاطمة وقبلها وطلبت منه فاطمة أن يمزق الورقة فرفض وقال: سأحفظها في مكان أمين لترثني ابنتي إذا عاشت بعدي، ثم قبل فاطمة واحتضن ابنته وقبلها وخرج وهو يقول أنه سيعود في صباح اليوم التالي، ولم يعد أبداً.

اتصلت به فاطمة في التليفون فأنكر نفسه، فإذا وجدته انهال عليها سباً وشتماً وأغلق في وجهها التليفون. وأرسلت له (فاطمة سري) محاميها فهيم باخوم، فاجتهد في إقناعه باعترافه بابنته وتوسط أن ينهى المسألة على خير ولكن محمد شعراوي قال له: سأرفع عليها دعوى تشهير؟! كان بالطبع وراءه هدى هانم شعراوي!!

وقالت: فاطمة سري لمحاميها ابعث له بأنك ستدخل القضاء في هذا الأمر بعد أسبوع!! وسلم محمد الخطاب لأمه هدى شعراوي، وقال له الهلباوي لا تخف فأنت متأكد من أصل الخطاب الذى فيه الإقرار معك، وقال له نعم؟! وفجأة ظهر محامي صحف وابن حظ ويعرف الفنانين ومن المعجبين بالأصوات الحلوة وبخاصة (منيرة المهدية) هو فكرى أباظة قرر أن يقف بجوار فاطمة سري ويرفع صوتها الهامس واستطاع أن يحول قضيتها من قضية طفلة إلى قضية أمة، وطلب مقابلة سعد زغلول زعيم الأمة وقص عليه القصة وطلب منه أن يستدعي محمد شعراوي الطالب بالحقوق وعضو لجنة الطلبة التى تدين بالزعامة لسعد زغلول ليطلب إليه أن يعترف بابنته ولا يكون مثلاً سيئاً للشباب، ولكن سعد رفض أن يتدخل وقال إنه لا يجب أن يتدخل في المسائل الشخصية وزيجات وطلاقات أنصاره!! وعاد فكري أباظة إلى سعد يقول له إنني هذه المرة جئت لك لتحمي فلاحة مصرية من الدولة، إن عدلي يكن باشا رئيس الوزراء وعبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية طلبا من وزير العدل أن يتدخل في هذه القضية ويضغط على القضاة، وأجاب سعد أنه سوف يحقق في المسألة، واستدعى أحمد زكي أبو السعود باشا وزير الحقانية سأله فأكد رواية فكري أباظة وأضاف أن الملك فؤاد شخصياً طلب أن يكون الحكم لصالح هدى هانم، وسأله سعد: وما رأيك أنت؟.. قال وزير العدل: أرى (إن هذا ظلم). قال له سعد: لو حدث هذا التدخل في القضاء فسوف تصبح المسألة سياسية لا شخصية، وسأقف بنفسي في مجلس النواب أطالب بإسقاط الوزارة فليس من حق إنسان أياً كان أن يظلم مواطنة ضعيفة، الحق معها! هذا اعتداء على الدستور.. وتراجعت القوى الهائلة التى قررت أن تسحق المطربة، ووكلت هدى هانم أعظم المحامين لدى المحاكم الأهلية والشرعية في مصر، وأنفقت مئات الألوف من الجنيهات لتثبت أن فاطمة سري أفاقة ونصابة ومحتالة، ولم تضعف فاطمة ولم تتردد أو تنهار كانت تدخل المحاكم وهي تحمل ابنتها فوق كتفها كأنها تحمل علماً يمشي خلفه الأنصار والأصدقاء! وكان وجه ليلى الصغير عجيباً لا تكاد تنظر إليه حتى تجد التشابه العجيب بين محمد وابنته نفس العينين نفس الشفتين نفس النظرة، نفس الابتسامة! كان وجه ليلى شعراوي أهم وثيقة رسمية تؤكد بالدليل القاطع أنها ابنة محمد شعراوي، واستمر الصراع سنوات وسنوات، معارك ومرافعات، وضغوط وتدخلات، وقضاة يصمدون للإغراء، ومحامون يتصيدون الأدلة والمستندات، وإذا بالمحكمة الشرعية العليا تحكم بأن ليلى هى ابنة محمد شعراوي، وفي الحال قررت هدى شعراوي أن تطلب بنوة الابنة ونجحت في ذلك فتحت لها سرايتها وضمتها إلى صدرها وكأنها تعتذر لها، أما أمها

الذي حملت به من مُحَمَّد علي الشعراوي ابن هدى شعراوي وأثبتت الولادة في القنصلية المصرية في فيينا وكيف أنه وقف معها، لأن يقف مع الحق، وعرف أنها واقعة تحت تهديد فنصحها أن تذهب إلى محل زنكوغراف وتحصل على صورة مطابقة للإقرار وعندما تيأس من المقاومة تسلم صورة الإقرار وتحتفظ بالأصل، وأن أم مُحَمَّد يقصد "هدى شعراوي" لن تغفر له ذلك!.. واستعمل عبارة قلبها أسود!!

وفي كتاب (د. آمال كامل السبكي) سابق الذكر ذكرت أساس هذه المعارضة وموقف هدى شعراوي: لقد رأت هدى شعراوي أن هناك ثمة تعارضاً أو تناقضاً ما بين المادة التي تنص على إنهاء الاحتلال العسكري البريطاني والمادة التي تقضي بإبقاء الجنود البريطانيين في بعض المناطق المهمة في مصر، ثم أرسلت هدى شعراوي تحتج على التكاليف الباهظة التي ستدفعها (المحروسة) بناء على نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ في الوقت الذي يطالب فيه الشعب النحاس باشا بخفض النفقات.

ظلت هدى شعراوي مستمرة في هجومها علي النحاس باشا والوفد بعد عقد المعاهدة وبعد مؤتمر مونترو، ولكن البعد الكامل عن الوفد تجلى

فقد أبقتها خلف الأسوار.. وقالت لمحمد.. انس الموضوع، لا عودة للماضي وقابلت هدى شعراوي فاطمة سري، وقالت لها لن أحرمك من رؤية ابنتك وهذا كل شيء ولم أعدك به!! وقالت لها فاطمة سري أخذت رجلي الذى أحببته على مهلي.. حتى ضعفة أحببته والآن تأخذي ابنتي، وقالت لها أو لم تقل كان هناك الخادم النوبي يوصلها إلى الباب والمعنى الزيارة انتهت.

وفي الحديقة تمتمت المطربة بدعاء وهي تنظر إلى السماء، وفي الوقت الذي كانت فيه ليلى مُحَمَّد شعراوي في أمريكا تتعلم، كان أبوها يدخل في قصة جديدة، إنه يعشق الفن وهذه المرة مع الراقصة أحلام، وزواج على سنة الله ورسوله بفرح ورزق منها بثلاثة أولاد.

وقال الناس آه لو عرفت هدى شعراوي.. اللي (ما يرضى بالخوخ.. يرضى بشرابه!!).ولم تعلم هدى هانم بالكارثة الجديدة فقد ماتت بالسكتة القلبية وهي جالسة تكتب بياناً في فراش مرضها تطالب فيه الدول العربية بأن تقف صفاً واحداً في قضية فلسطين.

في موقفها المؤيد للسعديين والمتعاطف معهم فعندما أخرج النحاس باشا كلاً من النقراشي وأحمد ماهر نشرت مقالاً طويلاً ضد الوفد تحت عنوان: (أخطاء السياسة الداخلية في عام) عابت فيه على النحاس باشا سياسة الذاتية رغم كونه زعيماً للأغلبية واتهمته بأن الاستقلال في نظره لا يعدو أن يكون استقلالاً بالحكم واضطهادا لمعارضي الوفد كما عابت عليه إسرافه في منح الرتب والنياشين والترقيات لمناصري سياسته، وتلك المحسوبية التي لم تنج منها في نظرها سوى وزارة المواصلات التي كان النقراشي وزيرها، وكذا ميزانية مجلس النواب التي أشرف عليها أحمد ماهر.

ثم كان في تأييدها لاتهام النقراشي للنحاس باشا في موضوع الزعامة المقدسة ما يثبت هذا النهج الجديد في سياستها المؤيدة للسعديين وأحزاب الأقليات والرامي إلى إبعاد الوفد بعد أن انتهت مهمته كما رأت بعقده لمعاهدة سنة ١٩٣٦ ويتضح ذلك من قولها: (يطالب النحاس الجميع بالطاعة العمياء لزعامته باعتبارها زعامة معصومة من الأخطاء. ثم يطالب أن يفنوا أشخاصهم في قدسية زعامته دون أن يسألوه عما يفعل)

واستمرت هدى شعراوي تحتج على وجود كتائب (القمصان الزرقاء) رغم ما أعلنه الوفد مراراً بأن الباعث لوجودهم هو حماية الديمقراطية من عبث القوات الأخرى مثل (القمصان الخضراء) التي كونتها (مصر الفتاة) وكتائب الكشافة التي أعدها الإخوان المسلمون، وطلبة النضال أو كتائب المقاومة التي نظمها اليسار والتي نزلت أثناء حوادث فبراير سنة ١٩٤٦

وقال النحاس لها (أعلم أن الملك فاروق مسلطك عليا بس القمصان باقية)

كان احتجاج هدى شعراوى سببه أن تلك الكتائب أصبحت أداة إرهاب في البلاد، ومنبع قلاقل، وكثيراً ما سببت رعباً للجماهير باعتداءاتها المتكررة عليهم، كذلك الخسائر التي يحدثونها بتعديهم على المحال التجارية والمكاتب والمنازل، وهذا في الحقيقة يتعارض مع الديمقراطية التي يقول الوفد أنه حاميها. واستمر عداء هدى شعراوي للوفد حتى قالت عنه أنه ميراث تبدد وثوب تهلهل والميراث الذي تبدد في نظرها هو تركة سعد زغلول السياسية التي ورثها النحاس باشا فبددها، وأما الثوب الذي تهلهل فهو ثوب الوفدية الذي ورثه النحاس باشا مع التركة السياسية المهلهلة فأوسعه تمزيقاً. ثم أشارت إلى اختلاف برنامج الوفد عن باقي الأحزاب السياسية، لذلك لا مبرر لبقائه في الحكم. لم تتوقف هدى شعراوي عن مناهضتها للوفد حتى أنها تقدمت باحتجاج باسم الأمهات المصريات استنكرت فيه اعتداء البوليس على الطلبة كما احتجت على خنق حريات الجماهير، إذا واجب الحكومة هو احترام الدستور الذي يكفل حرية الرأى للشعب وإن كانت الوزارة عاجزة عن القيام بهذا لتترك الحكم لغيرها..

وفي بداية الأربعينات، وقفت هدى شعراوي مع نبوية موسى في مناصرة القصر والملك فاروق بعد حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ضد النحاس والوفد والإنجليز، وأصبحت أحد "المعتمدين" عند أحمد حسنين باشا (رجل القصر والملك) حتى أنه لجأ إليها في بعض مشاكل فاروق مع

زوجته (الملكة فريدة) ولذلك حصلت على الوشاح الأكبر من نيشان الكمال من الملك فاروق في حفل الاتحاد النسائي. وعند وفاتها أرسل الملك فاروق والإمبراطورة أخته فوزية والأميرة فايزة مندوبين عنهم للتعزية وكذلك الهيئات التي كان يشرف عليها أميرات القصر مبرة مُحَمَّد علي وسيدات الهلال الأحمر.

وقد كانت هناك حرب باردة بين (منيرة ثابت) ومجلة (الأمل) التي أسسها الوفد عام **١٩٢٥** لتكون مناصرة لآرائه بعد تأسيس هدى شعراوي لاتحادها النسائي، فكان من الطبيعي أن يكون التنافس بين الاثنين لاختلاف الآراء والأهداف.إلا أنه سنة **١٩٣٣** دعتها هدى شعراوي والاتحاد النسائي للاحتفال بأول دفعة من خريجات الجامعة وكن أربعة فتيات ثلاثة من كلية الآداب ومنيرة ثابت نفسها باعتبارها حاصلة على ليسانس الحقوق من غير الجامعة المصرية، وكما تقول سيزا نبراوي أن سبب دعوتها هو ضمها إلى الاتحاد النسائي؟! ولم تتجه منيرة ثابت إلى الاتحاد النسائي وتشارك فيه إلا عندما اهتمت هدى شعراوي بقضية فلسطين (عرضت القضية في مجلة المصرية لإضراب شعب فلسطين **١٩٣٦** وظهرت فيه مبادئ الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وأوضحت التحقيقات المنشورة أنه أطول إضراب عرفته البشرية لاستمراره ٦ شهور..

أصبحت فلسطين موضوعا أساسيا في مجلة المصرية منذ إنشاء المجلة باللغة العربية، ولم تجذب قضية فلسطين منيرة ثابت وحدها، وإنما وجدنا

زينب الغزالي (الإخوان المسلمون) تقبل الاشتراك في نشاطات هدى شعراوي في (هذه القضية وحدها)

وفي الفترة بين ١٥ و١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ عقد (المؤتمر النسائي الشرقي) في القاهرة، وهو من أهم المؤتمرات التي عقدت لنصرة فلسطين، قالت هدى شعراوي فيه أن (فكرة إيجاد وطن قومي لليهود ليست ناشئة عن مجرد عطف بريطانيا العظمى عليها وحبها لها، وإنما هي وليدة مطامع استعمارية خطيرة خلفتها سياسة طائشة أرادت أن تلعب بالنار لتحقيق مآرب سياسية لها خطورتها على الأمم الشرقية والسياسية العالمية). وقالت هدي شعراوي (أن نساء مصر يسوءهن تصرف بريطانيا هذه وإن كان هناك معاهدة تحالف قد عقدت بين بريطانيا ومصر فقد فعلت مصر بعد أن ساعدت بريطانيا بلاد الحبشة الضعيفة ضد إيطاليا وسياستها الاستعمارية في شرق إفريقيا، ولم نكتف بعقد المعاهدة بل دفعتنا الحماسة إلى السخاء في التنازل لها عن كثير من حقوقنا نظير دفاعها عن جارتنا وانتصارها للأمم الضعيفة)

ولقد استطردت هدى شعراوي بأن هذا رياء ومظاهر لا حقيقة لها، ولعبة من ألعاب الدول القوية فهي تعترف أخيراً بالاحتلال الإيطالي على الحبشة ثم بعد ذلك تتخلى رويداً عن حماستها وتعضيدها للحبشة وتضحي بصداقة روسيا وتستسلم لمطالب هلتر، وتفسر هذا التراجع بأن اليابان كانت تخطط لتحقيق فرصة اشتباك إنجلترا في الحرب لتهاجم المستعمرات البريطانية، ومن ذلك نرى أن بريطانيا العظمى لا تستأسد إلا على الأمم

الضعيفة ولا تحترم إلا القوة على اختلاف أنواعها، ولا يخفى على حضراتكم ما لليهود من قوة مالية).

ثم اختتمت كلمتها بقولها (إن القوة المعنوية التي كانت وما زالت تملكها العرب لها الغلبة دائماً على القوة المادية لأن القوة الغاشمة تخرب وتدمر والقوة المعنوية تبني وتعمر، وهذه القوة تملأ والحمد لله نفوسنا فأبشركن سيداتي بأن الأمة العربية تستعيد مجدها بإذن الله وربما كانت هذه المآسي والتضحيات درس لنا وبشيراً لخاتمة حسنة لم تكن في الحسبان) أما عن ممثلات مصر في هذا المؤتمر فكن السيدة هدى شعراوي رئيسا، ونفيسة حرم مُحَمَّد علي علوبة باشا، أمينة حرم الدكتور فؤاد بك سلطان، بسيمة حرم عبد الرحمن رضا باشا، جميلة حرم حسن بك أبو شنب، عزيزة حرم الدكتور حسين هيكل باشا، علية حرم محمود خليفة بك، بهيجة حرم حسن رشدي، أنصاف حرم منصور فهمي بك، سيزل حرم مصطفى نجيب، درية حرم أحمد فكري، منيرة ثابت، ماري كحيل، إلين صرف، حواء إدريس، إيفا حبيب المصري، حنيفة أحمد علي علوبة، تحية مُحَمَّد، نعيمة الأيوبي، زينب الغزالي.

وبالاطلاع على مذكرات هدى شعراوي المنشورة بكتاب الهلال وجدنا مسطوراً بيدها (عندما زرت بيت الله الحرام تصدقت بأموال من مالي ومن سيدات فاضلات في الاتحاد النسائي وبعض الجمعيات الأخرى وتقابلت مع سمو الملك عبد العزيز آل سعود وعرضت عليه في وقتها إنشاء مدرسة لتعليم الفتيات فحازت الفكرة القبول لديه).

وفي مجموعة من الدراسات ذكر: أسست هدى شعراوي قبل وفاتها جمعية خيرية من جميع البلاد الإسلامية لرعاية فقراء المسلمين الذين نزحوا من بلادهم للإقامة في مكة والمدينة بعد أن لاحظت حالتهم المليئة بالشقاء والحاجة، ولقد بلغت قيمة التبرعات والمساعدات التي كانت هدى تمد بها المحتاجين والفقراء خمسة آلاف جنيهاً سنوياً.

ويبدو أن فكرة إنشاء جامعة الدول العربية هي وليدة للمؤتمر النسائي العربي الذي نظمته هدى شعراوي في القاهرة في أكتوبر عام ١٩٣٨ للدفاع عن قضية فلسطين (كما سبق ذكره) وكان آخر ما كتبته هدى شعراوي ونشر بالأهرام يوم وفاتها هو تلك البرقية.

تلقت رئيسة الاتحاد (النسائي العربي) برقيات من رئيسات الاتحادات النسائية في الأقطار الشقيقة: العراق– سوريا– فلسطين– لبنان– شرق الأردن– بمناسبة انعقاد جامعة الدول العربية يفوضنها في اتخاذ القرارات الحاسمة لنصرة فلسطين، وتأييد الجامعة في نضالها، كما عبرن في هذه البرقية عن تنظيم جهودهن لجمع المال وإعداد الكساء وقيد أسماء المتطوعات للإسعاف والاستعداد الكامل للجهاد مع أخواتهن العرب جنباً لجنب.

كانت خلاصة آرائها بالنسة للمرأة منبثقة من إيمانها الكامل بكفاءتها ومساواتها للرجل في كل القدرات، لذا استطاعت رفع السن الأدنى لزواج الفتاة إلى ١٦ عاما وللفتى ١٨ عاما، وقد رأت أن نجاح الارتباط يأتي من الاقتناع الكامل المبني على المعرفة الجيدة قبل الزواج من خلال الاختلاط

في محيط الأسرة كما آمنت بأنه لا بد من وضع قيود أمام الرجل للحيلولة دون الطلاق خوفاً على سلامة بنيان الزوجية كما اعتبرت أن عدم تعليم المرأة تعليما عاليا، وفتح كافة آفاق المعرفة أمامها مثلها في ذلك مثل الرجل سيؤدي حتماً إلى تأخر المجتمع وتخلفه عن ركب الحضارة.

بقيت نقطة دار حولها الجدل واتهمت فيها هدى شعراوي بالانحلال هل خلعت هدى شعراوي الحجاب وألقته بالأرض في ثورة ١٩! لقد رأيت بمراجعتي أن هدى شعراوي خرجت في مظاهرتين ١٦ مارس ١٩١٩، ١٦ يناير ١٩٢٠ ولم يذكر شيئا عن خلعها الحجاب؟!

فالحقيقة أن هدى شعراوي وسيزا نبراوي لم تخلعا الحجاب الشرعي الذي يكشف عن الوجه والكفين، وإنما خلعا النقاب ولم يكن ذلك أثناء المظاهرات، وإنما عرف عنهما ذلك في الوقت الذي كان النقاب منتشراً بين النساء.. وفي آراء هدى شعراوي أنها مع السفور الذي لا يخالف الدين ولو خالف التقاليد وقد قررت "المستشرقة مارجو بدران" ذلك بقولها: أدركت المرأة المصرية آنذاك أن النقاب ليس فريضة دينية ومع ذلك فقد أدركت النساء الضريبة الباهظة التي ستضطرهن هن أو أبناءهن لدفعها إذا ما جاهرن بهذه الدعوة ومن هنا رأين أن يكون التغيير تدريجياً من خلال الفعل لا القول.. لقد تنبأت ملك حفني ناصف وهدى شعراوي بانحسار النقاب، ومع ذلك لم تدع أي منهما لنبذه، على العكس فلقد حذرت كلتاهما من ذلك في تلك الفترة.. مع ذلك فبعد ٢٤ عاماً من نشر كتاب تحرير المرأة ووفاة قاسم أمين نزعت هدى شعراوي وسيزا نبراوي النقاب

باعتباره رمزاً للقوة الغاشمة والنظام الذي دعا قاسم أمين لمقاومته. وتستطرد لو كان فعل خلع النقاب من (هدى شعراوي) وزميلتها فعل مرتبط بثورة ١٩١٩. لما احتاج سعد زغلول لمحاولة تكراره للتأكيد عليه – وبخاصة أن سعد كان أزهرياً في الأصل فقد رفع سعد اليشمك عن وجه ابنة الشيخ علي يوسف في إحدى الحفلات الدينية في بيت الأمة – ولم يقلع النساء عنه. ووقفت الآنسة فكرية حسني تلقي خطابا وعلى وجهها البرقع، فتقدم سعد أمام الألوف ورفعه – وأصبح هذا أمراً من قائد الثورة بنزع ما يخفي الوجه – وليس الحجاب، وأعتقد أن ما وصلت إليه (مارجو بدران) هو الرواية السليمة فقد ذكر مصطفى أمين في كتابه (الكتاب الممنوع) ج٢، ص٨، طبعة دار المعارف ٧٥.

(أما موقف سعد زغلول الحاسم تجاه الحجاب فقد تجلى عام ١٩٢٣ حينما عاد من منفاه واستقبلته مصر كلها استقبال الغزاة الفاتحين. كانت معه صفية زغلول قالت له قبل وصول الباخرة إلى ميناء الإسكندرية: ألم يحن الوقت لكي أنزع البرقع الأبيض؟

فالتفت إليها سعد زغلول ثم إلى شابين كانا معها هما واصف غالي وعلي الشمسي، ثم سألهما رأيهما وإذا بهما يعترضان بحجة ألا تكون هي البادئة بنزع الحجاب.

وإذا بسعد يقول: هذه ثورة.. ارفعي حجابك.

ورفعته صفية زغلول ثم ظهرت للجماهير لأول مرة بوجه سافر مكشوف وإذا بنساء مصر يتشجعن ويرفعنه بعدها كمظهر من مظاهر الحرية التي رافقت مسيرة المرأة آلاف السنين.

فحتى مصطفى أمين لم يعرف الفرق بين البرقع والحجاب؟! وأعتقد أن وقوف المرأة بوجه سافر يعتبر نزعاً للحجاب!! مع أن إظهار الوجه والكفين في إطار الحجاب الإسلامي السليم. وقد ركز الإخوان المسلمون على ذلك فمثلاً في كتاب مُحمَّد قطب (قضية تحرير المرأة) جاء فيه: عندما احتلت إنجلترا مصر فشلت فشلاً ذريعاً في غزوها ثقافياً لذا تسللت عن طريق المرأة فظهر عميلها قاسم أمين وطالب بتعليم المرأة باعتبارها نصف المجتمع ولما نجحت حملته بدأ يطالب بخلع الحجاب فواجه ثورة كبرى إلا أنه أثناء ثورة ١٩١٩ شاركت النساء في مظاهرات ضد الاستعمار الإنجليزى وكانت أول مشاركة للمرأة في الحياة السياسية وشعر الرجال بمدى بطولتهن، وفي إحدى المظاهرات بميدان الإسماعيلية وأثناء الهتاف بسقوط الاستعمار فوجئ الجميع بقيام النساء بخلع النقاب وإلقائه في الأرض ثم سكبن البنزين عليه واشتعلت فيه النيران وعندئذ أطلق على الميدان اسم ميدان التحرير تخليداً لذكرى تحرير المرأة (فهل فرضت إنجلترا الحجاب على النساء أم فرضه الله من فوق ٧ سموات قبل ١٤ قرن)؟!.

وعن نفس الموضوع تكتب درية شفيق في كتابها (المرأة المصرية من الفراعنة حتى الآن). قالت: كان ذلك حوالي عام ١٩٢٣ عندما كانت السيدة (هدى شعراوي) قادمة من فرنسا، وهي لم تبلغ بعد العقد الرابع

من العمر، بمصاحبة كريمتها وزوج كريمتها المرحوم محمود باشا سامي، وسكرتيرتها السيدة (سيزا نبراوي) وكانت على ظهر الباخرة التي يعود عليها الزعيم سعد زغلول من فرنسا بعد شفائه، وكانت هدى شعراوي لا تزال تفكر في النظرة التي تقابل بها المرأة المصرية، حتى أنهم كانوا حين يرون هدى شعراوي وزميلاتها بلا يشامك ولا براقع يتشككون في مصريتهن، وفي ذلك المؤتمر الأخير بالذات كانت مندوبات الدول المختلفة ينكرن على السيدة هدى شعراوي مصريتها، ولا يتعرفن إلا بمصرية واحدة كانت تصر على حضور المؤتمرات آن ذاك بالنقاب محجبة لا تكشف شيئاً من وجهها وهي المرحومة (نبوية موسى).

حينئذ قالت هدى شعراوي: ما دمنا نظهر في مؤتمرات فرنسا سافرات الوجه بدون أن يكون في هذا ما يخدش الحياء والشرف، فلماذا لا نظهر سافرات في بلادنا أيضاً!!

- ولكن التقاليد في مصر لا تسمح بالسفور!

- ولماذا لا تتطور هذه التقاليد مع الزمن؟!

- وماذا نصنع نحن في هذه التقاليد؟

- لا بد أن يكون لدينا من الشجاعة ما يجعلنا نقوم بدور إيجابي في ذلك..

- ولماذا لا نبدأ نحن فتتبعنا الأخريات؟

وقد كان؛ فحين وصلت الباخرة إلى الميناء، بدأت هدى شعراوي ومن معها من النسوة في رفع اليشامك والأنقبة. وتحكي هدى شعراوي عن ذلك بقولها (.. ورفعنا النقاب أنا وسكرتيرتي، وقرأنا الفاتحة، ثم خطونا على سلم الباخرة مكشوفتي الوجه وتلفتنا كي نرى تأثير الوجه الذي أصبح سافراً لأول مرة بين الجموع فلم نجد له تأثيراً أبداً).

ثم نجد روايتين لـ (سيزا نبراوي) الأولى شفهية سجلتها مارجو بدران في رسالتها للدكتوراه والتي عنوانها (هدى شعراوي وتحرير المرأة المصرية) في حديث أجرى بينهما: انضم الاتحاد النسائي المصري إلى التحالف الدولى مع التزام أعضائه في إطار الحركة النسائية الدولية بالحصول على الحقوق السياسية التي سلبت منها جنباً إلى جنب مع الحقوق الاجتماعية والاقتصادية. وعند عودتهن من الاجتماع النسائي نزعت كل من هدى شعراوي وسيزا نبراوي الحجاب في محطة القاهرة وقبل النزول من القطار وذلك أمام حشد كبير من السيدات المهللات..

وجاء هذا العمل بمثابة إعلان رسمي من قبل رائدات الحركة النسائية بإنهاء نظام الحريم، ووضع حد لعزلة المرأة، والفصل بين الجنسين وبداية الحركة النسائية الرسمية والعلنية في مصر.. وفي نفس هذا الأسبوع ولأول مرة في التاريخ ظهر وجه المرأة المصرية في الصحف المحلية (وذلك بعد مضي حوالي نصف قرن منذ سماع صوتها لأول مرة في الصحف) مما أعاد تأكيد بشكل رسمي من جديد وضع حد نهائي لاحتجابها وانعدام شخصيتها

والثانية سجلتها في مذكراتها، ويبدو أن سيزا نبراوي داهية الحركة النسائية المصرية فهي كانت سكرتيرة هدى شعراوى ثم قفزت من سكرتيرة لمؤسسة في الاتحاد النسائي وتولت رئاسة تحرير المصرية بالفرنسية وظلت وراء الحركة في الخلف.. مكتفية بالدور الثاني السنيد واستمر حالها كذلك مع درية شفيق، أما ما سجلته في مذكراتها:

ففي صيف عام ١٩٢٣ عندما كان رئيس حزب الوفد سعد زغلول وزوجته صفية زغلول في طريق عودتهما إلى مصر على نفس الباخرة مع هدى شعراوي، لاحظ رئيس الوفد أن الحجاب كان مرفوعاً عن وجه هدى شعراوي، ولكنه كان يغطي شعرها (طبقاً لما يقضي به الإسلام) فطلب منها أن تساعد زوجته على وضع الحجاب مثلها، وكانت صفية زغلول تهم بمغادرة الباخرة في الإسكندرية دون حجاب عندما رأها رجال الوفد واعترضوا بشدة مصممين على أن الشعب لن يقبل ذلك. وغادرت صفية زغلول وزوجة رئيس الوفد الباخرة بالحجاب بينما غادرت هدى شعراوي رئيسة اللجنة المركزية لنساء الوفد الباخرة بدون يشمك على الوجه

الفصل الثالث

سفر السفور "اخلعن الحجاب وطالبن بميراث متساو مع الرجل!"

منيرة ثابت ١٩٠١-١٩٦٩

اعتقلت السلطات البريطانية الزعيم سعد زغلول مرتين: الأولى في ٨ مارس ١٩١٩ ونفته مع ثلاثة من رفاقه هم: حمد الباسل، ومُحَمَّد محمود، وإسماعيل صدقي إلى مالطة، كان هذا العمل بمثابة الشرارة التي فجرت مستودعاً من البارود؛ ففي اليوم التالي انفجرت الثورة الشعبية في كافة أنحاء مصر اشتركت فيها كل طوائف الشعب من مسلمين وأقباط ورجال ونساء وعمال وفلاحين وطلبة وأثرياء وفقراء؛ مما جعلها ثورة فريدة في تاريخ الأمم والشعوب..

وبعد الإفراج عن سعد ورفاقه في ٤ إبريل- أي بعد أقل من شهر- لم يعد (سعد) إلى مصر، وإنما أبحر إلى فرنسا ليعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي، وعند عودته إلى مصر في ٢١ مارس ١٩٢١- بعد عامين من اندلا ع الثورة - استقبلته الأمة استقبالاً لم يحدث لفاتح من الفاتحين، فكان توكيلاً جديداً أبلغ من التوكيلات المكتوبة التي قدمتها الأمة لتفويض (سعد) في المطالبة باستقلال البلاد ورغم أنه قد صار شيخاً جاوز الستين، إلا أن عزيمته الصلبة وشكيمته القوية لم تدفع به إلى الهدوء والسكون، فاستأنف الجهاد والنضال وكأنه شاب في الثلاثين وحرك

الأمة من أجل التمسك بحقوقها وصارت مصر معه شعلة من الكفاح الوطني.

فكان الاعتقال الثاني في ٢١ ديسمبر ١٩٢١ وفي هذه المرة كان معه ثلاثة من المسلمين هم: مصطفى النحاس، فتح الله بركات، وعاطف بركات.. واثنان من الأقباط هما: مكرم عبيد وسنيوت حنا، وتم نقلهم من السويس إلى مستعمرة (عدن) ومنها إلى جزيرة سيشل بالمحيط الهندي ومنها إلى مستعمرة جبل طارق، ولم يفرج عنهم إلا في ١٩٢٣

وهنا بدأ اتصال السيدة (فهيمة ثابت) (بصفية زغلول) عقب مظاهرة السيدات الأولى في مارس ١٩١٩ وبعد اعتقال (سعد زغلول) ورفاقه سارت المظاهرة النسائية وهي تهتف وتندد بالإنجليز، وسرعان ما تم حصار هذه المظاهرة بمجرد وصولها إلى (بيت الأمة)، وصعد عدد كبير من هؤلاء النساء إلى لقاء (أم المصريين) ثم هبطت إحداهن وهي تخطب في النساء قائلة: (إن أم المصريين وهي تحيي حضراتكن ترى من اللائق التزام جانب الهدوء والسكينة بعد ما سجلته المرأة المصرية بموقفها من الجهاد لإنقاذ وطنها العزيز)..بعد ذلك تم تنظيم مظاهرة نسائية ضخمة طافت شوارع القاهرة بالسيارات، وقدمت النساء احتجاجات إلى قناصل الدول ثم عدن إلى بيت الأمة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تلتقي فيها السيدة (فهيمة ثابت) بأم المصريين!!

ثم تمضي (فهيمة ثابت) تقول في مذكراتها بعد ذلك: (في صبيحة يوم الاعتقال دق ناقوس الهاتف من منزل إحدى صديقاتي فقالت إن السلطة اعتقلت (سعد) ونقلته في عربة مقفلة، ولا يعلم إلا الله أين هو الآن؟!) فاستولى علينا الذعر لذلك أسرعنا إلى بيت الأمة، حيث تلتقي جماعتنا لمواساة أم المصريين، التي راحت بدورها تروي للنساء الحوار الذي دار بينها وبين اللورد اللنبي عندما فاجأته بقولها: إني طلبت إليكم أن تعتقلوني مع قريني سعد لأتولى السهر على راحته لأنه مريض ويحتاج لعنايتي فلم تقبلوا (!!) ولما علمتم أن الوفد يجتمع في بيت الأمة أرسلت تصرح لي بالسفر واللحاق به فاعلم إذن أنني أرفض السفر!! وسأقوم مقام سعد وسأقود الحركة الوطنية بنفسي، وسيظل منزلي مفتوحاً إلى آخر نسمة من حياتي، والقوة لها أن تفعل ما تشاء!

ثم تضيف (فهيمة ثابت): وقادت أم المصريين الحركة الوطنية بإيمان وثقة مدة إقامتها في مصر، ولما نقلوا الزعيم من (سيشل) إلى (جبل طارق) وهو معتل الصحة أرسل إليها برقية للشخوص إليه (السفر) فلبت نداء الواجب فسافرت إليه في الحادي والعشرين من سبتمبر ١٩٢٢ وذهبت السيدة (فهيمة ثابت) لحضور الاجتماع المنعقد في بيت الأمة للاستفسار عن صحة (سعد زغلول)

وتضيف (فهيمة) لتصف ما جرى فتقول: دنوت منها فسمعت إحدى الزميلات تقول لها: ألم ترد رسالة من الزعيم؟! وكيف كانت صحة معاليه بعد مغادرته (سيشل) إلى (جبل طارق)؟!..فأجابت (أم المصريين)

متأثرة: نعم قد وصلني منه خطاب يرجوني فيه أن أمضي إلى جبل طارق لأنه مريض. وفي هذا الخطاب يقول كذلك: (إذا سمحت ولم يكن السفر يتعبك فأقدمي إليّ الآن لأني محتاج لعنايتك) فما أنبل شعورك يا سعد!! وقد أجببت في الحال بأني قادمة في أول باخرة، وصممت على السفر ولو اشتد مرضي لأن الواجب يناديني أن أكون بجانبه أتولى مواساته وأشاطره عبء النفي في سبيل الوطن، ولكننى أشعر بمسيس الحاجة إلى أن تصحبنى إحدى المواطنات لأنى تعبة مجهدة وأحب أن تكون معى في رحلتى مصرية مخلصة لتؤنسني وتسري عني ولم يسعدني الحظ حتى الآن بهذه الأمنية، مما اضطرني إلى استدعاء ممرضة أجنبية غير أني رفضت أن تصحبني هذه الممرضة أيضاً وكان ذلك في وقت متأخر بعد أن تمت إجراءات استخراج جوازات السفر إذ تبين أنها تريد أن يكون معها في هذه الرحلة رجل تقول إنه خطيبها!!.. وأنهت (صفية زغلول) حديثها بقولها: "والآن تجدينني في حيرة إذ لم يبق سوى خمسة أيام تبحر بعدها الباخرة!!"

وتقدمت عشرات السيدات تعرض كل منهن السفر معها لكن صفية شكرت لهن هذه العاطفة النبيلة وقالت: أنا لا أحب أن تبتعد سيدة عن قرينها وضميري لا يرتاح إلى ذلك!!

كانت السيدة (فهيمة ثابت) وحسب كلامها تسمع ذلك كله دون أن تبدي ما يدل على شيء، وبعد أن عادت إلى منزلها تحدثت مع أفراد أسرتها وتبادلوا الرأي والمشورة بعد أن شرحت لهم كل ما دار بالتفصيل، ثم كان اقتراحها بأن تسافر مع أم المصريين وأن لا تدعها تعاني ألم الغربة

والوحدة، وكان جواب الأسرة بأنه (ليس لديهم ما يمنعهم من التشجيع على واجب وطني نحو أم المصريين بل نحو مصر أم الجميع).

وعلى أثر ذلك أوفدت شقيقتي إلى بيت الأمة لإبلاغ رغبتي فإن صادفت قبولاً أسرعت إلى مقابلة أم المصريين في غير خجل وقد قالت عصمتها لشقيقتي: (كيف تتمكن من ذلك وماذا تصنع بفراق نجليها فأقنعتها بأنهما في رعاية عميهما، وخالتيهما في حياة لا ينقصها من الراحة شيء) فتقبلت أم المصريين ذلك قبولاً حسناً، وعندما علمت الكثيرات من ذوى قرابتها أبدين السرور والارتياح لأن أكون صاحبة الشرف في مرافقتها من مصر،كان وراء هذا القرار أخت فهيمة ثابت طالبة كلية الحقوق الفرنسية (منيرة ثابت) التي قررت أن تقوم برعاية أولاد أختها باعتبارها خالتهم، وهي التي ذهبت لبيت الأمة وأقنعت صفية زغلول تماماً بقبول أختها، وهددت بأنها ستسافر هي وتقطع دراستها إذا لم تذهب أختها فهيمة مع أم المصريين تحت أي ظروف وانطلقت الباخرة في طريقها إلى جبل طارق

وتقول (فهيمة ثابت): (أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وانتبهنا على قدوم سيدة تمد يدها لمصافحة (أم المصريين) على غير تعارف سابق سوى أنها سمعت بالشيء الكثير عن مكانتها، فرحبت بها وأجلستها بجانبها وأكرمتها ثم دعت السيدة قرينها وقدمته إلى أم المصريين وهو وزير الأفغان المفوض بدمشق في طريقه إلى منصبه الجديد، وقالت إنه يكن لمصر أنبل العواطف ويعلم الله نحن في بلادنا وقلوبنا معكم) ثم أقبل أحد السوريين

وأدى التحية كذلك وقال: (بلادنا تحييكم وتدعو لكم بالنصر وترجو لكن عوداً سعيداً مع زعيم مصر) باختصار شديد جاء العشرات يحيون ويصافحون أم المصريين مما دعا (فهيمة ثابت) المرافقة لها إلى القول: (استبشرت خيراً مع أني كنت ذاهبة في هذا السفر معتزمة أن أمضي بقية حياتي في المنفي، وقلت لأم المصريين: إن الله سيكرمنا وسنذهب إلى جبل طارق لنرجع بصحبة الزعيم الجليل ..فقالت: إن شاء الله...وبعد سبع ليال وصلت الباخرة إلى جبل طارق..

وتكمل (فهيمة ثابت) قائلة: (قيل لنا إن الباشا ينتظرنا في حجرة مرتفعة داخل المرفأ تشرف على البحر ثم صعدنا فرأينا الباشا واقفاً في وسط الحجرة وهو يقول: (أهلاً أهلاً، كنت أحب مقابلتكم على الشاطئ لولا أنهم يمنعونني بلطف، وقد أجلسوني هنا في انتظاركم حيث أراني الله وجوهكم جميعاً بخير والحمد لله على سلامتكم)..كان سعد زغلول تبدو عليه آثار التعب والمرض، وبعد الاستراحة قليلاً نهضنا ومضينا ثلاثتنا إلى المنزل في عربة الحاكم، وزعيمنا يقص علينا بعضاً من أخباره ثم التفت إلي وقال: لماذا أنت صامتة يا ابنتي؟! ألا تقصين علينا شيئاً من أنباء مصر المحبوبة؟!.. فقلت (أي فهيمة ثابت): إنني فضلت الإصغاء إلى معاليكم، أما مصر والأمة المصرية جميعاً فهي تقدم عظيم إخلاصها وثقتها لرئيسها وزعيمها المضحي بحريته في سبيلها!

فقال لي: أنت يا ابنتي تحسنين الحديث بعقل وروية – هل سبق أني عرفتك في مصر؟! وهل تذكرين أني أعرف أحداً من أسرتك؟!

قلت: نعم إنك تعرف والدي فهو صديقك (حسين ثابت) بك وكيل محكمة الزقازيق سابقاً وربما تتذكر معاليك يوم العودة من فرنسا حين اشتركت في تحيتكم مع وفد السيدات!! فقالت أم المصريين: هي من السيدات العاملات في السياسة منذ البدء في الحركة الوطنية ومن المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة!..

وابتداء من يوم الاثنين أول يناير سنة ١٩٢٣ تبدأ (فهمة ثابت) في كتابة مذكراتها يوماً بيوم وحتى أول أبريل ١٩٢٣ اليوميات جاءت بمثابة تسجيل دقيق وأمين ومثير لحياة سعد وصفية في المنفى ومتابعتهما لما يحدث في مصر من أحداث سياسية وتطورات مهمة، لكن هناك أيضاً عشرات القصص والحكايات والمواقف الإنسانية!.

في يوميات الأربعاء ٣ يناير تقول (فهيمة ثابت): ذهبنا إلى النزهة المعتادة وكنا نتمشى ثلاثتنا، سرنا في صمت قطعه علينا غناء صبي صغير تبدو عليه المسحة الإنجليزية وهو يردد الأغنية المصرية المعروفة (يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي) فلفت سمعنا الباشا قائلاً: أنصتوا إلى هذه الأغنية. ثم مر الصبي بجانب الباشا وهو يمتطي صهوة جواده ووالده بجانبه يسير مبتسماً، أما الصغير فقد غنى المقطوعة ورددها وهو يضحك ناظراً للباشا ثم رفع يمينه بالسلام المصري وكذا أومأ والده برأسه فتفاءلت أم المصريين بذلك.

وفي يوميات الخميس ٤ يناير تقول (فهيمة ثابت):ذهبنا إلى الرياض المعتادة وهناك تحدثنا في السياسة قليلاً وانتقلنا إلى العلم والقرآن فقلت: لو كنت من الأغنياء لأنشأت جامعة للفتيات ومعهداً للسيدات أدربهن على الفروسية وحمل السلاح والألعاب الرياضية والعلم من فقه وأدب وهندسة.. فقال سعد: إن علي شعراوي بنفسه لم يتحمل ذلك من هدى زوجته دعت لإنشاء نادى خاص للنساء للرياضة والسباحة.

وتمضي باقى السطور في رواية أحاديث سياسية تتعلق بالأوضاع في مصر وفي يوميات ٥ و٦ و٧ يناير تقول:(لم تتم رياضتنا إلى نهايتها إذا هبت الرياح فجأة وأنذرت بالعاصفة، فعدنا مسرعين وجلسنا طيلة النهار ندرس ونكتب ولم نتكلم إلا قليلاً عند الظهيرة فأنشد الرئيس بيتاً من الشعر ثم قال" البر شيء هين.. وجه طليق وكلام لين" وكان معاليه قد ذكرها في مناسبة حسن معاملتها للناس وبعد الظهر مضينا إلى السوق وقد أحضرت (أم المصريين) أشغالاً يدوية لتعمل وسائد وبعض الأشياء الصغيرة وفي آخر اليوم كنا متعبين فنمنا في أوائل المساء..

وفي السادس من يناير واصلنا دراستنا وأسمعتني أم المصريين ما حفظت من القرآن كما أسمعتها بعض المقطوعات الفرنسية وبعض جمل من تاريخ الأدب!!

وخلال هذه الرحلة عرف سعد زغلول وحرمه كل شيء عن فهيمة ثابت وأسرتها، وما قدموه له وللحركة الوطنية، وتردد بالطبع اسم أختها

(منيرة) الثائرة الهادرة. طالبة الحقوق التي تريد أن تهب نفسها لقضية بلادها كمصطفى كامل، وعرف أن والدها كان معه يتلقى العلم من الشيخ مُحَمَّد عبده وكيف وقف معه موقف الرجل أثناء ثورة عرابي حينما اعتقل سعد زغلول وكان حسين ثابت نائباً عن الحكومة في المرافعة فلم يتهمه بشيء وترافع بطريقة كانت نتيجتها في صالح سعد زغلول، وقد رأت صفية زغلول في الفتاتين:"منيرة، وفهيمة" ما كانت تتمناه وتحلم به ولم تستطع تحقيقه، وشعرت أنهما (ابنتاها) التي تمنت أن تنجبهما ولكن القدر لم يمنحها نعمة الأمومة!!

كانت (فهيمة) نعم الوصيفة لها ولسعد زغلول في المنفى، وكانت خطابات (منيرة لها) تثلج قلبها وهي تستهل رسائلها بعبارة: أبي سعد زغلول أمي وأم المصريين صفية هانم، وأخيراً أختي وشقيقتي الحبيبة فهيمة، ولذا فإنه كان سهلاً ومتوقعاً بعد أن استقالت السيدة (هدى شعراوي) من رئاسة لجنة الوفد المركزية للسيدات التي تولت رئاستها السيدة (شريفة رياض) سكرتيرة اللجنة بعدها ولقد اتسمت بالطابع الهادئ في العمل، بل لعلنا نقول أن نشاطها تركز في إعلان تأييدها للوفد في مواقفه السياسية دون أى نشاط آخر حتى في المجال الاجتماعي، ولم تلبث أن ماتت اللجنة بموت سعد زغلول وانضمت باقي عضواتها سواء في أثناء وجود سعد زغلول أو بعد وفاته للعمل في الاتحاد النسائي الذي رأسته هدى شعراوى، فلقد شعر الوفد أنه في حاجة إلى شخصية نشطة لتتولى الدفاع عن مواقفه في المجال النسائي فتم اختيار السيدة (منيرة ثابت) لتؤلف جمعية الأمل ومجلة تحمل نفس الاسم وسارت على نهجه، وكانت مجلة الأمل اسبوعية

سياسية أدبية اجتماعية من أجل الدفاع عن حقوق المرأة واستهلت عددها الأول بأبيات من الشعر الطريف قالت فيه:

أمل ألقيه في الوادي الخصيب ... وبذور في ثراه لا تخيب

ها أنا اليوم أنمي غرسه ... وليبارك فيه علام الغيوب

وقالت منيرة: إن مبادئ الأمل مستمدة من مبادئ الوفد؛ ففي المجال السياسي يتم حل القضية الوطنية من خلال مفاوضات مباشرة مع الإنجليز واتباع المنهج السلمي المشروع لتحقيق ذلك. أما في المجال النسائي فقد نادت بالسعي لترقية التعليم الابتدائي للبنات وتوسيع نطاق تعليمهن الثانوي واشتراكهن في التعليم العالى كالبنين سواء بسواء والسعي لتحرير المرأة المصرية من قيود جميع العادات والتقاليد على اختلاف أنواعها والسعي لنشر السفور المحتشم وتعضيده بشتى الوسائل والسعي لتقرير تمتع المرأة باستقلالها الشخصي، ولقد اتسمت (منيرة ثابت) بالثورية والجرأة في مطالبها النسائية أو السياسية حتى أن أختها (فهيمة)(٩) رغم أن المجال كان أمامها في الوفد. فضلت الاستمرار مع (هدى شعراوي) في جمعيتها المرأة الجديدة، بعدما نادت أختها بثورة على التقاليد أساسها تغيير قانون الميراث بمعنى أن تتساوى المرأة والرجل في قيمة ما يحصلان عليه من الميراث، ثم طالبت بمنع تعدد الزوجات وأن يكون ذلك في أضيق نطاق وبرضاء الزوجة الأولى.

---

(٩) أصدرت فهيمة ثابت كتاباً عن رحلاتها مع الزعيم وأم المصريين بعنوان (الزعيم الخالد وأم المصريين في منفى جبل طارق) وقد اطلعت على نسخة صادرة من مطبعة الشمس الحديثة بالقاهرة ١٩٤٨.

وظهرت حنكة منيرة ثابت القانونية حينما أخرجت وزارة (زيور باشا) وتقول د. آمال السبكي في كتابها السابق الإشارة إليه: (كان باكورة عمل (الأمل) هو الانتقاد الصارخ لقانون الجمعيات السرية) الذي أصدرته وزارة (زيور باشا) إذ لامت فيه الحكومة على إصداره بل وشككت في صحة هذا القانون على اعتبار أنه لم يصدر من الهيئة التشريعية، ولم تتوخ فيه مبدأ الفصل بين السلطات فلا يخول مجلس الوزراء سلطة قضائية فالقانون ليس إذن إلا إجراء استبدادياً أرادت الوزارة أن تتحكم به في وجود الأحزاب السياسية – ولكن يظهر أن هذا القانون قد ألهم الأحزاب والهيئات المصرية بمجرد صدوره فكرة الإضراب السلبي عن تنفيذه وعدم الرضوخ له كما جاء في قرار الحزب الوطني – ولا شك أن هذا الإجماع خليق أن يشل القانون، وقد اختلفت الآراء في تقرير علاقة الإنجليز بهذا القانون إذ أن الوزارة لا تجرؤ على إصدار قانون كهذا بغير أن نستوثق من تأييدهم.. وانتهت إلى التأكيد بأن قانوناً كهذا يدفع إلى تأليف الجمعيات السرية. ولقد شككت المجلة التي ترأسها (منيرة هانم) في وطنية وزارة زيور ورأت أنها حليفة للإنجليز وأنها أداة لها ضد مصالح الشعب، ولامتها على هذا الموقف غير الوطني، وكفى أن هذا القانون منح مجلس الوزراء سلطة قضائية يتحكم بها في كيان خصومه السياسيين.

وقد كانت (منيرة ثابت) سابقة لعصرها وعلى جانب كبير من الوعي والنضج والثقافة العالية ولكنها لم تكن تتلقى الثقافة من ينابيعها الشرقية واعتمدت على ما تقرأ عن فرنسا وما أحدثته الصالونات الأرستقراطية فيها، ولذا فلم تعلن السفور الذي لا يتنافى مع الدين كهدى شعراوي وإنما

غالت ومالت إلى تقليد الغرب فخلعت الحجاب وظهر منها شعرها وصدرها ومالت إلى الملابس الأوربية، وفتحت النيران على الحجاب بمعناه الشرعي واعتبرته عادة رذيلة.

ويكشف سكرتير (سعد زغلول) عن جوانب أخرى في حكاية (منيرة ثابت) فيقول: (جاءت الآنسة منيرة ثابت إلى بيت الأمة تسبقها هاتان الثورتان: دخول السيدات زائرات إلى مجلس البرلمان، والمطالبة بالمساواة بين الجنسين، فاحتلت مكاناً مرموقاً لدى (سعد) وأم المصريين، وظلت وثيقة الصلة بهما، وأذكر أنها كانت دائبة قبل مجيئها إلى بيت الأمة على إرسال الكتب إلى الرئيس في شتى شئون المرأة، سياسية أو اجتماعية، وكنت بحكم وظيفتي أطلع على رسائلها، وأبلغها ردود الرئيس عنها ردوداً مملوءة بالعطف والتشجيع، ورحب بها (سعد) و(أم المصريين) وعرفها أنها صاحبة الرسائل الثائرة التي كانت تمطر بها بيت الأمة من الإسكندرية حيث كانت تتعلم، أو من ريفها في إحدى قرى مديرية (محافظة) البحيرة. وقد ساهمت الآنسة (منيرة ثابت) في الخدمة العامة، وشرعت تجاهد بالدعاية للزعيم ولحركته، تكتب المقالات في الصحف، وتذيع المنشورات، وتقوم بقسط وافر من الجهود أحرى أن تقوم به لجنة كاملة. ولقد أصابني في تلك الفترة من مشاغباتها التي كانت طابعها فيما تكتب، وابل من العتاب والحساب فكانت تلصق بي تهمة كل تصرف لا يعجبها صدوره من اللجان النسائية الوفدية، وكانت تلقي علي مسئولية الأخطاء اللغوية والأسلوبية، بل الأخطاء الموضوعية التي كانت تبدو لها في محررات تلك

اللجان، لأني أقوم بتوزيع هذه المحررات على الصحف، وكنت أقبل هذا العنف منها لأني أعرف أنها ثائرة تحت كنف سعد

وذات يوم قرأت (صفية زغلول) في صحيفة الأهرام مقالاً نارياً لمنيرة ثابت، وبعد فراغها من قراءته طلبت من زوجها (سعد زغلول) أن يقرأه لأهمية ومنطق ما جاء فيه!! ففي هذا المقال المنشور يوم ٣ مارس سنة ١٩٢٤ قالت منيرة ثابت تخاطب رئيس الوزراء سعد زغلول قائلة: (قرأت أن الحكومة تنوي أن تقيم حفلة شائقة لافتتاح البرلمان المصري الجديد، وقد بت أتحرق شوقاً لحضور هذه الحفلة فتساءلت مراراً: ألا يكون للسيدات المصريات مقاعد في هذه الحفلة؟! إني لأوجه اليوم هذا السؤال علناً إلى صاحب الدولة رئيس الوزارة السفوري الجليل (تقصد الذي يساند سفور المرأة) إنه حقاً لمن الغبن الفاحش أن تحرم مندوبات الجنس اللطيف من الاشتراك في الاحتفال بافتتاح البرلمان المصري. لقد كان للمرأة المصرية نصيب في الجهاد لا يقل عن نصيب الرجل، فمن حقها أن تشترك معه في حفلة افتتاح المجلس النيابي الذي هو ثمرة ذلك الجهاد المشترك)

وراقت الفكرة لـ سعد زغلول وقرر تنفيذها على الفور!!

وتقول د. آمال السبكي: وكان من أهم مطالب (منيرة ثابت) تخصيص مقاعد للمرأة في مجلس النواب، ولقد أيدها سعد زغلول في دعوتها هذه وقالت عنه ذلك: (لست أذكر هنا أني كنت الصحيفة المصرية الوحيدة التي اقتحمت شرفة الصحفيين في مجلس النواب وإنما يسجل

(الأمل) فقط أن صاحبته هي التي أوجدت فكرة تخصيص مكان للسيدات مع الزائرين في البرلمان عندما افتتح سنة ١٩٢٤ "وأهملت السكرتارية أمر السيدات" وأن دولة زغلول باشا ليشهد بما كان إذا ذاك لصاحبة الأمل من موقف لأن دولته هو وحده الذي آزرها بالتشجيع وأجاب مطالبها ونفذ فكرتها.

وحسب ما تقول د. آمال كامل بيومي السبكي في كتابها (الحركة النسائية في مصر): (اكتسبت مجلة الأمل عداء شديداً من مناوئي الوفد ومن مناهضي تحرير المرأة سواء بسواء، ولعل أعظم تهمة يمكن أن تتهم امرأة بها في تلك الفترة هي تهمة الإلحاد والكفر، وذلك عندما قدم الشيخ أبو الفضل الجيزاوي أحد شيوخ الأزهر بلاغاً إلى النيابة يتهم فيه صاحبة (الأمل) بالإلحاد والكفر، والخروج على الدين بالمبادئ التي تنادي بها منذ ظهرت في الحياة العامة.

إلا أن (منير ثابت) كانت من المهارة والوعي بحيث فضحت هذا الاتهام وأبانت الغرض من هذا الاتهام، لا غيرة على الدين كما يبدو ظاهراً وإنما هو بسبب ما نشرته (الأمل) بمناسبة بحث ميزانية الدولة في بعض المخصصات، ومنها مخصصات فضيلته فهل مناقشاتنا هذه المخصصات كانت منا إلحاداً وخروجاً على الدين.

وما أكثر المرات التي سمعت فيها (منيرة ثابت) سعد زغلول وهو يقول: (لو كان عدد المتعلمات من نساء مصر أكثر لكان الفضل أعظم

وكانت الفائدة أكثر، إذ أنه يستحيل على شعب أن يتقدم في هذه الحياة من غير تقدم المرأة، وتعلمها، فهي التي يقوم عليها أساس التربية الصحيحة وغرس الملكات الفاضلة في قلوب الأطفال) لقد شجعت مجلة (الأمل) ومنيرة ثابت تعليم المرأة للسبب السابق ولاعتقادها أن النهضة المصرية لن تستطيع المساهمة فيها إلا المرأة المتعلمة. وكان من الطبيعي أن نقف (منيرة ثابت) بكل قوة وحزم وشراسة في وجه من يقف ضد تعليم المرأة!!

(ولم يكن غريباً أو باعثاً على الدهشة أن تتصدى (منيرة ثابت) بكل قوة لمشروع غريب كان يتبناه رئيس الحكومة (زيور باشا) خاص بتعليم الأسر الأرستقراطية!!) كان (زيور) باشا قد اقترح إنشاء مدرسة خصيصاً لبنات الأسر الأرستقراطية يتعلمن فيها فنون المنزل وبعض العلوم والمعارف العامة على أن يتكلف إنشاء هذه المدرسة حوالي إثني عشر ألف جنيها (بأسعار ١٩٢٦) من أجل ثلاثين فتاة يساهمن بمصروفاتهن التي لا تزيد على ستمائة جنيه، وتتكفل الحكومة بسداد باقي التكلفة!!

وثارت وهاجت (منيرة ثابت) ضد هذا المشروع وتلقت مجلة الأمل عشرات الاحتجاجات وخاصة من المثقفات على هذه الفكرة، وبادرت (منيرة ثابت) بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى وزارة المعارف تعرب فيه عن أسفها الشديد لإدعاء الحكومة بعدم توفير المال اللازم للإنفاق منه على إنشاء مدارس لبنات الأسر المتوسطة والفقيرة، وهن كثيرات، في نفس الوقت الذي يتدفق فيه مال الحكومة للإنفاق على مدرسة من أجل عدة فتيات من بنات الأسر الأرستقراطية القادرات على إنشاء ما يردن من

مدارس، أما الفقيرات فمسئولية تعليمهن تقع على كاهل الحكومة. ولم يكن سعد زغلول وحده فرحاً ومعجباً بمنيرة ثابت، بل شاركه وقاسمه هذا الفرح والإعجاب (صفية زغلول) نفسها!!

واعتقد القراء أن منيرة ثابت هذه اسم مستعار لرجل، فغير معقول أن تكتب امرأة بهذا الأسلوب العنيف، فهي لا تلوح بأغصان الزهور وإنما تلقي على الحكومة الطوب وتطلق على الوزراء الرصاص، وتحارب ولا تسالم، وتهاجم ولا تتوقف!!

وتضاعفت دهشتهم عندما اكتشفوا أن (منيرة ثابت) هذه امرأة حقيقية من لحم ودم، وفوق ذلك آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، خفيفة الدم، إذا جلست في مجلس سيطرت عليه بحماسها وجاذبيتها وقوة شخصيتها، وكانت مقالاتها تشبهها، أو كانت هي التي تشبه مقالاتها. وكان رؤساء التحرير في تلك الأيام – بحسب مصطفى أمين – يجدون مشقة في أن يضعوا (فرامل) لاندفاعها أو يخففوا من عنف لهجتها، أو يشطبوا العبارات التي تؤدي بهم إلى محكمة الجنايات وكأنها تحرص في كل مقال أن ينطبق عليه قانون العقوبات!! وعلى الرغم من محاولات الشطب والحذف وسكب بعض الماء على الكلمات الملتهبة كانت تخرج مقالاتها جمرة من نار تحتاج إلى استدعاء فرقة المطافي!!

فلا يمكن أن تكون هذه الجرأة لامرأة. إنها شيطانة لقد تطرقت إلى مساوئ الزواج من الأجنبيات (فرأت أن الأجنبية ليس لديها أية انتماءات

قومية أو ثقافية لمصر. كما أن تشجيع هذا النوع من الزواج يؤدي إلى القضاء على مصير عدد من الفتيات المصريات ولاسيما المسلمات لأن الدين يحرم على المسلمة الزواج بغير المسلم بعكس الرجل، ثم أن فيه مساساً بالقومية المصرية لوجود جيل مختلط من جنسيات عديدة بعد مدة قصيرة من الزمن، كما أن الأجنبية ترى اختلافاً جوهرياً في نمط الحياة الاجتماعية في مصر عنه في الخارج يؤدي في حالات كثيرة إلى الطلاق)

وحاربت تعدد الزوجات تلك الصفة الممقوتة التي تسئ إلى الزوجة وتخل بالاقتصاد العائلي، ثم هي فوق كل هذا تنشئ البغضاء بين أولاد الأسرة الواحدة فتنوع الأولاد من أكثر من زوجة واحدة ينشئ الكراهية والمنافسة بين الأطفال للفوز بقلب أبيهم. هذا وقد استمرت (الأمل) سنوات طويلة تدعو إلى التخلص من تعدد الزوجات خاصة وأن عدداً كبيراً من الأسر المصرية ذات المركز المرموق يعانون حياة مدمرة بسبب هذا المبدأ. ثم أنه من العيب أن يترك شيخ متصاب يعبث بمستقبل أبنائه مع وفرة عددهم حباً منه في الشراهة والأنانية وتطالب بقانون يبطل تعدد الزوجات ويحكم الاحتفاظ بواحدة دفعاً للجريمة وما يترتب عليها من النتائج السيئة التي تشاهد من وقت لآخر بسبب إهمال فريق والعناية بفريق دون الآخر.

كذلك دعت مجلتها (الأمل) إلى استقلال الأسرة الجديدة عن أهلها إذ أن وجود أهل الزوج بمنزل الزوجية من أسباب الشقاء الأسري لكثرة تدخلهم في الخلافات التي تقع بين الزوج وزوجته مما يؤدي إلى زيادة الهاوية

بين الطرفين المتنازعين مما يدفع الزوج أحياناً للاقتران بأخرى جديدة يكون لديها الهدوء اللازم فتتكرر مأساة التعدد.

وفي سنة ١٩٢٤ جرت أول انتخابات حرة للبرلمان وحصل الزعيم سعد زغلول على الأغلبية الساحقة وألف أول وزارة شعبية! وذهبت منيرة ثابت إلى رئيس الوزراء سعد زغلول تحتج عليه لأن وزارته لا تمثل الشعب ودهش سعد زغلول وسألها: لماذا؟ إن وزارتي أول وزارة في مصر يدخلها الأفندية!..قالت منيرة ثابت: لأنه ليس فيها امرأة وزيرة!..قال لها سعد زغلول ضاحكاً: جميع الوزراء متزوجون وكل وزير منهم ينوب عن زوجته!

ولم تضحك منيرة ثابت من سخرية الزعيم، ومضت في حماسها مطالبة بمنح المرأة المصرية حق الانتخاب بحجة أنها اشتركت في ثورة ١٩١٩ جنباً إلى جنب مع الرجال، وسقطت نساء شهيدات برصاص الإنجليز.

وقال لها الزعيم سعد زغلول: أعدك عندما يخرج آخر جندي إنجليزى من مصر أن أعطى المرأة المصرية حق الانتخاب.

قالت منيرة ثابت: نريد حق الانتخاب للمرأة فوراً!

قال سعد: أخشى إذا أثرنا حكاية منح المرأة حق الانتخاب الآن أن يحدث انقسام في الأمة، فلا تزال نسبة كبيرة من السكان لا توافق على اشتراك النساء في السياسة، ولا أريد انقساماً في الأمة أثناء المعركة مع

الإنجليز، وعندما يخرج آخر جندي أجنبي من مصر أعدك بأن أنضوي تحت زعامتك وأطالب للمرأة المصرية بحق الانتخاب!

وشاءت الأقدار أن تتحقق نبوءة سعد زغلول، فبعد ٣٢ عاماً فقط في سنة ١٩٥٦خرج الإنجليز من مصر ودخلت راوية عطية وأمينة شكري للبرلمان لأول مرة بعد أن حصلت المرأة المصرية على حق الاتنتخاب. ولكن منيرة ثابت رفضت أن تنتظر خروج الإنجليز من مصر، فوجئ سعد زغلول بعد ذلك بوفد من طالبات مدرسة الحقوق الفرنسية في القاهرة، وتقدمت منيرة إلى سعد زغلول وقالت له: إن نساء الأمة لم يقتنعن برأي زعيم الأمة بتأجيل منح المرأة حقوقها إلى أن يخرج الإنجليز.

قال سعد: أنا لم أعاد حق المرأة وإنما طلبت التأجيل إلى أن يتم جلاء الإنجليز لأن التقاليد لا تسمح بدخول المرأة البرلمان الآن.

وانبرت منيرة ثابت بطول لسانها تقول: التقاليد منعت الأفندية أن يصبحوا وزراء وأنت عينت واصف أفندي غالي وزير الخارجية ونجيب الغرابلي أفندي وزيراً للعدل والدكتور أحمد ماهر أفندي وزيراً للمعارف وعلي الشمسي أفندي وزيراً للمالية، إنك رئيس وزارة ثورة وواجبك أن تمنح المرأة حق الانتخاب وتسمح لها بدخول البرلمان.

وفجأة حدثت مصيبة وكارثة هزت (بيت الأمة)!!لم تصدق (أم المصريين) حرفاً واحداً مما كتبته صحف الحكومة عن (منيرة ثابت) التي كانت تعتبرها بمثابة ابنة لها!!كان بطل الكارثة كاتب الوفد الأول الصحفي

الكبير (عبد القادر حمزة)!!لم تصدق (صفية زغلول) و(سعد زغلول) ما نشرته صحف الحكومة، ومؤداه أن (عبد القادر حمزة) صاحب جريدة البلاغ الوفدية يعشق منيرة ثابت صاحبة مجلة الأمل!! وأن الصحفية الشابة التي تصغره بحوالى عشرين عاماً تبادله هذا الحب!!.. واعتقد (سعد زغلول) أنه هو المسئول شخصياً عن هذه الكارثة التي فضحتها صحافة الحكومة لتدمير سمعته وسمعة الوفد!! كان سعد زغلول هو الذي أشار بتكوين شركة مساهمة لجريدة (لسبوار) الفرنسية يقوم بالإشراف عليها بعض أعضاء الوفد، واختار الوفد الأستاذ (عبد القادر حمزة) صاحب جريدة البلاغ ليكون العضو المنتدب لإدارة الجريدة في مجلس الإدارة!!

وهنا بالضبط، وابتداء من تلك اللحظة بدأت حكاية (عبد القادر حمزة) و(منيرة ثابت)! تفاصيل حكاية الحب الملتهب والغرام المشبوب يرويها (مصطفى أمين) فيقول: كانت منيرة تطبع مجلتها الأسبوعية وجريدتها اليومية في مطبعة (البلاغ) وهي جريدة الوفد الأولى في تلك الأيام، وكانت (منيرة) تلتقي يومياً في دار البلاغ (بعبد القادر حمزة باشا) الصحفي الأول في مصر بشهادة (سعد زغلول) ولسانه الرسمي!!

وأعجب (عبد القادر حمزة) بشجاعة الكاتبة الثائرة وبحماسها وصمودها، وتطور الإعجاب إلى حب!! ووجدت منيرة في (عبد القادر حمزة باشا فتى أحلامها)!!

آنسة جميلة، رشيقة القد، ساحرة العينين، فاحمة الشعر، خفيفة الدم، إذا جلست سيطرت على الجلسة بحماسها وقوة شخصيتها، كيف تتلاقى مع عجوز متزوج له كرش صغير، يلبس نظارات طبية سميكة أبيض الشعر جليل لا يبتسم، لا يحب الاجتماعات ويقابل الصحفيين واحداً واحداً على انفراد. قوي الشخصية نعم، ولكن شخصيته ليست طاغية كيف يلتقي الربيع بالخريف، الثورة بالسكون. كان كل منهما يكتب مقالات تشبهه.. هي تنهي مقالاتها ولا تعيد الاطلاع عليها، تنقلها من فورة قلمها إلى نار المطبعة. وهو يتأنى في اختيار اللفظ والمراجعة والشطب ويرسلها لمصحح اللغة العربية ويظل متردداً حتى اللحظة الأخيرة للمطبعة، ولكنه الحب وأحوال كيوبيد الغريبة.

وقرأ الزعيم سعد زغلول محاولة تلويث الأقلام التي تحارب معه فاستدعى عبد القادر حمزة وسأله: هل صحيح أنك تحب الآنسة منيرة ثابت؟ واعترف عبد القادر بهذا الغرام الجارف. وقال سعد: إما أن تتزوجها، وإما أن تتركها! أنا لا أتدخل في حياة أنصاري الشخصية، ولكنك أنت ابني ومنيرة ابنتي ولا أريد أن يستمر هذا الوضع يوماً واحداً.. ورضخ عبد القادر حمزة لرغبة الزعيم وتزوج منيرة ثابت.

ولكن منيرة طلبت من زوجها أن يطلق زوجته الأولى لأنها بحكم مبادئها ضد تعدد الزوجات، فكيف تقبل هي (ضرة) وهي زعيمة المطالبات بمنع تعدد الزوجات! ورفض عبد القادر حمزة أن يطلق زوجته الأولى التي شاركته كفاحه وأم أولاده وبناته. وبدأ النزاع من اليوم الأول،

واحتكما إلى سعد زغلول فحكم بأن يحتفظ عبد القادر حمزة بأم أولاده، وخضعت منيرة ثابت لأمر الزعيم وتنازلت عن مبدئها بعدم تعدد الزوجات!

قال لها سعد زغلول: إذا لم يعجبك أن تكوني الثانية فاتركيه للأولى هي أسبق وأكثر حاجة له.

قالت له: ولكن يا سعد باشا أنا معه بحس بالتمام وهو بغيري يحس بالنقص.

قال سعد: معك يكتمل اكتماله؟ وماذا عن أسرته وأولاده أهم صفر على الشمال؟!

قالت: لكنى لا أطيق ذلك.

قال سعد: أنت تحتاجين لإعادة النظر في قضية (تعدد الزوجات) العبرة يا ابنتي في التطبيق.

قالت منيرة: ولكنك لم تتزوج رغم حاجتك للذرية والأولاد؟!

قال سعد: أهذا مبرر ليترك عبد القادر ذريته وأولاده؟!

قالت منيرة: أخاف إذا رضيت أن يتكرر الأمر!!

وقال سعد: أنت التي بدأتِ العد، وعليك النتائج!!

ثم حسم عبد القادر حمزة الحوار: أنا لم أخدعك ومستعد للزواج فوراً، وكنت تعلمين بأني زوج ولي أولاد، ثم أنني لم أخرج عن الشرع!

وعاد عبد القادر حمزة باشا يشترط على زوجته الكاتبة الثائرة أن تطلق الصحافة، وتغلق مجلة الأمل الأسبوعية، وتوقف جريدة لاسبوار اليومية وتعيش زوجة في البيت، زوجة فقط لا تزور ولا تزار، ولا تكتب مقالات ولا تشترك في أي عمل سياسي، وثارت الكاتبة الثائرة، ثم أخضعها الحب، واستسلمت بلا قيد ولا شرط وأغلق الحب مجلة الأمل وجريدة (لسبوار) وأطفأ ثورتها العارمة وأصبحت (ست بيت)! وبعد سنوات قليلة أنطفأ الحب الكبير، كان جمال منيرة ثابت في نظر عبد القادر حمزة هو الهالة التي كانت تحيط بها، الكاتبة الثائرة، الزعيمة الجريئة، الصحفية الشجاعة صاحبة الجرائد الواسعة انتشار، فلما جردها من هذه الأضواء الساطعة أصبحت منيرة زوجة عادية، هنا انطفأ بريقها، وهدأت ضوضاؤها، واختفي سحرها وقد كانت كل هذه الصفات تصنع صورة الأسطورة فلما تخلت عنها أصبحت الزوجة الثانية، بل والضرة بكل المساوئ التي سبق وأن عددتها في جريدة (الأمل)!! وهاجمت جمعية أمهات المستقبل (الشابات المصريات) المعادية للوفد والتي أيدت صدقي باشا وقالت (تفيدة علام) في مجلة الجمعية والتي اسمها (أمهات المستقبل): إن هدى شعراوي ومنيرة ثابت يبحثان عن الشهرة في كافة أنشطتهما.. واعتبرت انشغالهما بالسياسة عبثاً لا داعي منه، وقالت جمعية أمهات المستقبل (الشابات المصريات): الثائرة الصغيرة منيرة ثابت فعلت كل هذا

من أجل الحصول على رجل؟! لقد عبثت في العقول بدعوى التقدم وسقطتِ لأقصى درجة!!

وأحست منيرة ثابت أنها فقدت بريقها عند زوجها وعند الناس، بدأت تشعر مع زوجها بفارق السن وبدأ الشقاق بين الكاتب المتأني والكاتبة المندفعة. ويكمل الأستاذ مصطفى أمين قصتها في كتابه (أحوال شخصية) ومقالاته (أشخاص لا تنسى) فيقول: وأذكر أنها أرسلت لي في ١٤ أبريل سنة ١٩٤٩ خطاباً تقول فيه: (كان يبدو لي في الماضي – وكم كان هذا يؤلمني – أنكم تحاربون قضيتي الكبرى المقدسة، التي حملت أعبائها وحدي – ودون كلل خلال خمس قرن، كما لو كنت جئت إلى هذه الحياة وعشت من أجلها، وهي كما تعلمون قضية حقوق المرأة السياسية والاجتماعية، فكم يسرني اليوم أن أراكم تخصون قضيتي هذه بعنايتكم، وتخرجون بها من النطاق الصحفي إلى الميدان الرسمي – البرلمان – والمحدد طبعاً بسؤال واستجواب ثم انتقال إلى جدول الأعمال، فتسألون الحكومة في البرلمان عن هذه الحقوق المسلوبة، حقوقنا في الحياة نحن النساء!) أجل، إنكم اليوم تسألون الوزارة أن توضح موقفها من ذلك الكتاب الذي صفعتنا به هيئة الأمم المتحدة، إذ تطالب حكومتنا وهي تعرك أذنها! بضرورة تحقيق المساواة السياسية والاجتماعية في مصر بين الرجل والمرأة. فكم أنا سعيدة بهذا الإجراء الجديد من نوعه الذي تتخذونه الآن في البرلمان دفاعاً عن قضيتي المزمنة. إنكم في غير حاجة لأن تتلقوا شكري واعترافي بالجميل، إنكم تدركون أن من واجب شباب رجالنا النابه المثقف، الذي أودعت فيه مصر كل رجاء وأمل، أن يبادر بمعونتنا نحن

النساء في الدفاع عن قضيتنا وختمت منيرة خطابها بأنها سوف تنتظر حتى شهر ديسمبر فإذا لم يوافق البرلمان على سؤالي فإنها سترفع قضية على مجلس الوزراء تتهمه بمخالفة ميثاق الأمم المتحدة!

ولكن البرلمان لم يوافق على المساواة بين الرجال والنساء، والقضاء رفض قضية منيرة ضد مجلس الوزراء، ولم تيأس منيرة وقامت ثورة ٢٣ يوليو وانتهزت فرصة قيام الثورة وذهبت إلى اللواء مُحَمَّد نجيب قائد الثورة في تلك الأيام لتقنعه بمنح المرأة حق الانتخاب، ولكن قائد الثورة قال لها إن الوقت غير مناسب، وعادت تكافح من جديد إلى أن منح الرئيس جمال عبد الناصر المرأة المصرية حق الانتخاب، وحق الترشيح لعضوية مجلس الأمة، وتقدمت منيرة ورشحت نفسها في دائرة الزيتون في شهر مايو سنة١٩٥٧، وتصورت منيرة أن الشعب سيقبل انتخابها وسيذكر جهادها وسوف يستعيد أمجادها، يوم كانت نجمة في سماء السياسة المصرية، الأصابع تشير إليها، الفتيات يهتفن بحياتها، الشبان يحاولون أن يحملوها على الأعناق! ومرت منيرة في دائرتها الانتخابية، لم يعرفها أحد، المعجبون انتقلوا إلى رحمه الله، الفتيات الثائرات كبرن وأصبحن أمهات مشغولات بمتاعب الزواج وتربية الأطفال، الدنيا تغيرت لا أحد يتذكر معاركها الضارية ضد الرجال، فنحن في بلد كل شيء ينسى فيه بعد حين! وسقطت الزعيمة في الانتخابات ولم تحصل في دائرتها الانتخابية إلا على بضعة أصوات!

وفي ١٩٦١ يصل مصطفى أمين خطاب آخر منها: تقول (إنني أبحث عن عمل بأجر لإنقاذى، إنني مريضة بمرضين خطيرين أثبتهما الفحص في أحد المستشفيات، تم الفحص بمعرفة القومسيون الطبي العام، أحد هذين المرضين مركز في عيني ويهددني بضياع البصر وهناك علاج حديث للضباب الذي يزحف على عدسة العين، أنا لم أعد أملك غير منقولات (عفش) شقتي، وهذا العفش محجوز لحساب مؤسسة ضاحية مصر الجديدة مالكة العمارة، وهذا خلاف دين مطبعة مصر أجر طبع مجلتي.. إنني أريد أن أعمل بكرامة، أريد أن أكسب أجر بعرق جبيني لأستطيع به أن أعالج بصري وساقي، وأسدد ديوني، لقد وقفت مجلتي عن الصدور بعد أن خلفت ديناً ثقيلاً ما يزال يطحنني، ولكن ليس يفزعني أن يشردني الدائنون على قارعة الطريق وأن أموت جوعاً، إن الموت رحمة، إنما يفزعني أن أعيش عمياء. لقد عملت طوال حياتي بلا أجر ولا مرتب، واليوم أود أن أعمل بأجر، إنني أعيش في ظلام! حتى الآن أستطيع أن أكتب ولكني أقرأ بصعوبة، إن حالتي النفسية سيئة، قد تتحسن إذا وجدت الرعاية.

ويقول مصطفى أمين: وارتعشت يداي وأنا أقرأ الخطاب، إنها نهاية مروعة لبطلة! وكتبت في مجلة المصور التي كنت أرأس تحريرها يومئذ وقلت: (إننا نرفض أن تعمل منيرة ثابت في حالتها الصحية المؤلمة، إن من حقها أن تعالج وأن تستريح وأن تعيش، إن لها حقاً على كل امرأة في بلادنا تعمل أو تزاول حقها النيابي أو تجلس تحت قبة مجلس الأمة، إنها هي التي أضاءت الطريق أمام ملايين نساء العرب اللاتي رفعن الحجاب وأصبحن

يعملن جنباً لجنب بجوار الرجال، وإننا على ثقة أن الدولة لن تترك منيرة ثابت تعيش عمياء، وهي التي جعلت الملايين يبصرون! فلتضئ كل امرأة عاملة شمعة لهذه السيدة العظيمة التي يهددها الظلام).

وبعد ساعات من صدور مجلة (المصور) قرر الرئيس جمال عبد الناصر سفرها إلى إسبانيا للعلاج على نفقة الدولة واتصل بحسين الشافعي وزير الشئون الاجتماعية ونائب رئيس الجمهورية لسداد كافة ديونها قبل سفرها إلى الخارج، وسافرت منيرة إلى برشلونة وطلب منها الدكتور باروكير استعمال أنواع معينة من الأدوية لمدة ٦ شهور كاملة ثم تعرض نفسها عليه بعد هذه المدة، وقطعت منيرة رحلتها بعد ١٢ يوماً فقط وعادت إلى القاهرة تشكو من المعاملة السيئة التي لاقتها من القنصلية المصرية بإسبانيا، فقد قرر لها الدكتور باروكير عمل ٣ نظارات طبية كعلاج مؤقت لحين عودتها، ولكن القنصل المصري رفض دفع ثمنها بحجة أن المبلغ المحول لها مقرر لعلاج عينيها فقط، وأنه ليس مسئول عن ثمن النظارات حتى ولو كانت طبية! ولم يكن معها من النقود سوى المال المحول لها للعلاج، وإزاء هذا الأمر اضطر القنصل إلى أن يسلمها نظارتين اثنتين بعد أن حصل على شهادة من الدكتور باروكير بأن هذه النظارات امتداد للعلاج الذي حضرت من أجله.

وفي الموعد الذي حدده الدكتور باروكير لعودتها إلى إسبانيا مرة ثانية حولتها وزارة الصحة إلى القومسيون الطبي ليوافق على سفرها. وكانت

المفاجأة أن القومسيون الطبي رد بأن حالة عينى المريضة لا تحتاج إلى علاج طبي أو تدخل جراحي!..

وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ استيقظت منيرة ثابت من النوم فوجدت الدنيا ظلاماً.. أضاءت النور الكهربائي الذي بجوارها ولكنها لم تر شيئاً وأيقنت أن الكارثة حلت بها وأنها لن تستطيع الإبصار. وكانت منيرة ثابت في شبابها أجمل صاحبة عينين في الوسط الصحفي، ومن سخرية القدر أن اسمها كان (منيرة) وأمضت بقية حياتها في ظلام!

الفصل الرابع

سفر التحول "رفضها يوسف وهبي وقبلها سعد زغلول"

روزاليوسف ١٨٩٦–١٩٥٨

فجأة وبدون إنذار تابعت مظاهرة النساء الزغلولية في ١٦ مارس ١٩١٩ مظاهرة أخرى أكثر عجبا وإتقانا.. إنها مظاهرة فنية قادتها (روز اليوسف)!! كان من الواضح أنها مظاهرة وفدية قلباً وقالباً!! النداءات فيها نفس النداءات والشعارات هي الشعارات التي في مظاهرات ثورة ١٩ "سعد. سعد لا نريد إلا سعد"، "معانا في المنفي معانا في الوطن" ولكن ظهر نداء خاص بطبيعة المظاهرة يقول كل "زلة تغتفر إلا من خان بلاده فقد كفر؟!"..وإذا كان البعض يرى أن مظاهرة النساء في ١٦ مارس ١٩١٩ خلعت فيها النساء النقاب وحرقته وهو قول محل شك وتفنيد؟!

فإنه كان هناك اتفاق على أن مظاهرة (روز اليوسف) كانت بالروج والكحل والوجوه الواضحة والعيون الظاهرة وبعض الآلات الموسيقية، إنها مظاهرة سافرة!! كانت المظاهرة ببساطة شديدة تثبت أن الفن لا يتخلى عن قضايا البلاد، وأن الثورة الزغلولية ليست ثورة حزب الوفد بل ثورة مصر، وأن الفن ولو وضع تحت الأقدام فإنه يضع الوطن فوق الرؤوس..

فعلت ذلك (روز اليوسف) بعفوية شديدة وبلا ترتيب وباندفاع تلقائي لم تكن وقتها عضوا في حزب ولا تفهم في السياسة وليس لها أحلام متعلقة بقضية المرأة وإنما ممثلة مسرحية تحرز بعض النجاح وبعض الإخفاق وتَغُّير من (فاطمة رشدي) التي سميت سارة برنارد الشرق، وتختلف مع يوسف وهبي إلى حد طردها من فرقته بعبارة من عباراته إياها (معى يتذكرك التاريخ وبغيري سينساك الناس، حتى (حندقة) لبيستك حين تراك في الشارع ستبحث عن اسم صاحبة هذا الوجه في ذاكرتها؟!)

وحتى الآن لا يزال المؤرخون مختلفين في أسباب التنظيم المتقن لهذه المظاهرة!! في حين مظاهرة هدى شعراوي الأولى حدث فيها بعض الأخطاء فقد اتجهت سيدات المقدمة إلى مكان غير المتفق عليه، واختصر فيها البعض مسافة سير المظاهرة بالاتجاه لبيت الأمة لمقابلة صفية زغلول!!.. والغريب أنه حتى هذا التاريخ لم يكن قد حدث لقاء واحد بين روز اليوسف وسعد زغلول!

ويذكر ذلك عبد الرحمن فهمي في مذكراته: أما الفنانين في المسارح فقد شاركوا أيضاً بجهد محسوس، إذ ذكرت (روز اليوسف) أن المسارح ظلت بممثليها تعمل رغم قلة المتفرجين إذ أن الصالات لم يكن بها سوى متفرج واحد أو اثنين وقد يفتح الباب فجأة ويندفع إلى الداخل شبان من الثوار يسرعون إلى الاختفاء من مطاردة الإنجليز في حجرات الممثلات وخلف الستائر بالمسرح ويحتفظ الممثلون بهدوء أعصابهم لمقابلة الجند وإقناعهم أن أحداً لم يدخل.

فقد قرر الفنانون يوماً أن يقوموا بمظاهرات أسوة بسائر الطوائف في مصر وكانت كل المظاهرات ممنوعة ولا تقابل إلا بإطلاق النار وكانت كل المظاهرات تخرج وقد استعدت للعودة بعدد لا بأس به من القتلى والجرحى وفي الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذي تعمل فيه – روز اليوسف – وقد حملت علماً كبيراً والتقت الفرقة كلها في ميدان (الأوبرا) أمام فندق (الكونتيننتال) وكان في السائرين بعض الممثلين منهم جورج أبيض – عبد الرحمن رشدي – عزيز عيد – نجيب الريحاني – زكي طليمات – مُحَمَّد عبد القدوس – مُحَمَّد تيمور، وكل من كان يعمل في المسارح ممثلاً أو عاملاً وكانوا بملابس التمثيل المختلفة، وتقدمت المظاهرات عربة حنطور تركبها (روز اليوسف) و(ماري ابراهيم)، ومعهما محرر بالأهرام كان عبد الحليم الغمراوي. وكان مديراً أيضاً لمسرح بروتيانا، سارت المظاهرات تقطع ميدان الأوبرا وحولها جنازات الشهداء وصيحات الجماهير، وتحت تمثال إبراهيم باشا مباشرة كان جنديان إنجليزيان صريعين، ثم تصدى للمظاهرة جنديان آخران ما إن رفع إحداهما بندقيته حتى عالجته رصاصة أحد الثوار وكان مختبئاً في شارع جانبي متفرع من شارع عدلي، وأسرعت المظاهرة عائدة إلى مسرح بريتانيا.

ففي سنة ١٨٩٦، أى منذ حوالى ١٠٠ سنة، ولدت في مدينة طرابلس في لبنان فاطمة مُحَمَّد محيي الدين اليوسف، أو فاطمة اليوسف، أو (روز اليوسف)، لقد ماتت أمها (جميلة) عقب ولادتها مباشرة، فربتها أسرة مسيحية في غياب الأب الذي كان تاجراً دائم السفر، واختارت الأسرة المسيحية لها اسم (روز) للتدليل؛ فلم تعرف فاطمة اليوسف في طفولتها

التعصب؛ فهي مسلمة تربت في بيت مسيحي، هي فاطمة وروز معاً.. تقرأ القرآن أمام صورة العذراء، وتصوم رمضان وتحتفل بالكريسماس؟!

لقد اختفى أبوها، سافر ولم يعد، انقطعت أخباره ونقوده؛ فبدأت الأسرة البديلة تشعر أنها عاجزة عن إطعام الصبية.. وفي يوم زارها صديق للأب ودعاها للهجرة معه إلى البرازيل، ووعدته أن تلحق به، وركبت من ميناء صيدا سفينة لم تحملها إلى البرازيل، وإنما إلى الإسكندرية، حيث انضمت إلى أسرة إسكندر فرح، وانضمت إلى فرقته المسرحية، وبدأت مشوارها الفني حتى أصبحت سيدة المسرح الأولى في مصر، وعندما اعتزلت لم تفكر في أن تفتح مطعماً أو معهد تجميل أو أتيليه للأزياء وإنما قررت أن تفتح مجلة؟! يقول د. إبراهيم عبده وهو يؤرخ لروز اليوسف، السيدة والمجلة: إن الفصل بينهما كالفصل بين الروح والجسد!! (لأن فاطمة اليوسف لم تكن امرأة ثرية، عرضت عليها فكرة إنشاء مجلة فأعجبتها وأمدتها بالمال، بل إن فكرة إنشاء المجلة من وحيها، وكذلك كان اختيار المجلة ومحرريها) كانت روز اليوسف في ذلك الوقت منفصلة عن زوجها الأول المهندس مُحَمَّد عبد القدوس، بعد أن أنجبت منه في يناير ١٩١٩ الكاتب الصحفي إحسان عبد القدوس.

ولكنها خرجت في مظاهرتها في أواخر سنة ١٩١٩ بين شهري أغسطس وأكتوبر. وكانت في نفس الوقت قد تركت فرقة (يوسف وهبي) وعملت في فرقة الريحاني ولكنها لم تنجح حيث كان أداؤها تراجيدياً والفرقة لها طابع كوميدي مميز، ووجدت نفسها تغالي في الحشمة فتلبس

على وجهها يشمك وتدثر جسدها بعباءة سوداء فاحمة وتتجه إلى بيت الأمة لتقابل صفية زغلول حبيبة النساء وأم المصريين.. هل فعلت ذلك بحثاً عن دور يناديها أو لاكتشاف هذا العالم الخفي عنها في دنيا النساء!! وبالرغم من أنها تعرفت على كثيرات من المعجبات بها ورحبن بها، إلا أن صفية زغلول عاملتها بتحفظ وكأنها في كل نظرة لها تسألها لماذا جاءت؟! وتقابلت هناك مع: حرم محمود رياض باشا، حرم الدكتور إبراهيم المنياوي، حرم مُحَمَّد بك علي المحامي، حرم حسين بك نبيه، حرم السيد حسن صابر، وكلهن أزواجهن أعضاء في الوفد. وشعرت بالغربة أنها لا تملك إلا اسم أبيها الذي تركها ولم يعد. وفهمت نظرات صفية زغلول القلقة لها؟! فالمسألة زيت في دقيق. حزب الوفد وأعضاء الوفد وهوانم الوفد زوجات الأعضاء؟! فأين مكانها؟ لكنها استراحت للطقس الجديد التسامح الجميل بين الهلال والصليب.. إنه جو يسمو حتى على ما يحدث في الفن، وأعجبها عبارة (الدين لله والوطن للجميع) فقد عانت من أثر الخلاف الديني حينما ضمها الفنان (عزيز عيد) لفرقته وعند التحاقها في البداية بجورج أبيض، واستمعت لهذا الحوار بدقة وتركيز.

هدى شعراوي: لو كان للحزب جريدة لاستطاعت أن تشعل الدنيا ضد الإنجليز ونفي الزعيم سعد زغلول.

عنايات سلطان باشا: لماذا لا نبدأ الآن إن التمويل متوفر وأنا مستعدة لتكاليف الأعداد الثلاثة الأولى.

صفية زغلول: لقد رفض سعد زغلول أن تكون أي جريدة لسان حال الوفد، لأنه يرى أن الوفد هو الأمة كلها؛ فهو يرى أن الصحف يجب أن يمتلكها أصحابها لا يمتلكها الحزب، ويكون بعد ذلك للجريدة حرية مناصرة الحزب حتى تكون حرة في التعبير عن رأيها.

حرم محمود رياض باشا وكأنها تغير الموضوع بعد أن حسمته صفية زغلول: فاطمة هانم إن محمود باشا معجب بمظاهرة الفن لمناصرة سعد زغلول ولكنه يراها (فانتازيا) لاهية – فما معنى تأييد الثورة في الصباح ثم تذهبون لتمثلوا مسرحيات (يا ستي ما تمشيش كده عريانة) و(خللي بالك من أميلي) أين المسرحيات الوطنية التي تؤيد الثورة وتطالب بالاستقلال؟

واستأذنت منبهرة (فاطمة يوسف) لقد قلن لها فاطمة هانم وقد عقدت العزم على بعض الأشياء: مناصرة الوفد، عدم الاشتراك إلا في مسرحيات وطنية مع التفكير في جريدة مستقلة يكون لها توجة سعد زغلول، وبسرعة قابلت (محمد التابعي) لتفهم منه معنى عبارة: فانتازيا لاهية!! لقد كانت روز اليوسف كما يصفها مصطفى أمين (جريئة لا تخاف، إذا أقدمت لا تتراجع، وإذا هاجمت لا تعتذر، وإذا وقفت على الأرض رفضت أن تسلم سلاحها، ومع ذلك كانت امرأة ساحرة جميلة كلها أنوثة وكلها جاذبية، وكلها حنان) وتقابلت مع أمير الصحافة التابعي وتحدثا كان التابعي وقتها سعيداً جداً بما نشر في جريدة الأخبار، وهي ليست الأخبار الحالية وإنما جريدة أخرى صاحبها أمين الرافعي أحد المشاركين في ثورة ١٩١٩– كان يقرأ: (إن سعد باشا قدم مذكرة إلى

المستشار الملكي المسيو بيولا كازيللي تتضمن عدة أسئلة عما إذا كانت الصحف لا تزال خاضعة لضرورة استصدار إذن قبل ظهورها وما هي الطرق الإدارية التي تتخذ لإلغاء صحيفة أو إيقافها أو إنذارها؟ والغريب أن الجريدة قالت إن إجابة المستشار الملكي عن الأعمال الداخلية للوزارة هي مما لا يهم الجمهور، لذلك اكتفينا بذكر الأسئلة وإن كانت قد أضافت بأن المستشار الملكي قال إنه لا خلاف في أن سن قانون جديد للمطبوعات أمر ضروري)، وتأكدت نية روز في إصدار جريدة ولكن أي نوع من الجرائد؟! فهناك روايتان:

الأولى ذكرتها د. إيمان عامر (مدرس التاريخ الحديث بجامعة القاهرة) (وهي ترى أنها جريدة سياسية اتفقت عليها مع التابعي ولكنها عند حصولها على ترخيص حصلت على ترخيص مجلة سياسية) وعندما عرضت الفكرة على الأستاذ التابعي وطالبته بأن يشاركها المجلة رفض الفكرة في البداية غير أن الفكرة في ذهن روز اليوسف استمرت، وكان إعجابها بسعد زغلول له تأثير في تحولها فهو كما وصفته تحول من شخصية ممتازة إلى فكرة ومن فكرة إلى عقيدة وطنية

كانت مجلة الكشكول في تلك الفترة في عنفوان جبروتها، وكانت ضد سعد والوفد، وتقول روز:(كنت كلما قرأت الكشكول وهو ينال من سعد العظيم، أقضي ليلة مزعجة، إذ كنت أعتقد – كما أعتقد الآن – أن من يجترئ على سعد بالباطل إنما ينال من حقوق الوطن)، واستطاعت روز أن تحصل على رخصة سياسية للمجلة وأصبحت مجلة سياسية دخلت

ميدان السياسة وحيدة لا يسندها حزب ولا يمولها حاكم ولا يدبج لها المقالات كاتب سياسي قديم. وتؤكد ذلك هدى التابعي حرم مُحَمَّد التابعي في اعترافاتها مع الصحفي حنفي المحلاوي والتي نشرها في كتاب فهي تؤكد أن الحياة العاطفية عند التابعي ارتبطت بحياته الصحفية وأنه ارتبط عاطفياً وباعترافه بثلاثة شهيرات (فاطمة رشدى – أسمهان – أمينة البارودي) وأن فاطمة رشدى في مرحلتها الفنية الأخيرة – وقبل الاعتزال – ارتبطت بالتابعي من خلال عمله في النقد الفني والمسرح بالذات وكان يكتبه تحت اسم (حندس) وحينما تفاقمت مشاكله مع فاطمة رشدي حتى أنها اعتدت عليه بالضرب (بالشبشب)! وجه اهتمامه للمثلة الفاتنة روز اليوسف وأطلق عليها (لولو) حتى عرف بعد ذلك العاملين في مجلتها روز اليوسف (بحزب لولو) واستمر معها عاطفياً وصحفياً من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٣ واستغلت "روز اليوسف" الحالة العاطفية بينهما في نقل طموحاته من الكتابة الفنية إلى الكتابة السياسية وأنه عند بداية الكتابة السياسية معها كان يكتب بغشم وبقلم انتحاري ومن أجل طموحاتها تعدد دخوله السجن بسبب كتاباته، وأنها أفهمته بأنها تصدر المجلة من أجله!!

أما الرواية الثانية: فتقدر أنه في أواخر ١٩٢٣ وقد جمعت موائد (كساب الحلواني) ومكانه الآن سينما ديانا. كلا من روز اليوسف وإبراهيم خليل وزكي طليمات وآخرون.نادى البائع على مجلة (الحاوي) وهي تحمل نقداً فنيا، لاذعاً للمسرح المصري – فاقترحت روز عمل مجلة فنية تقاوم هذا الغش الإنساني والشخصي وتسموا بالأعمال المسرحية وتدعو لمسرح المقاومة للوقوف مع سعد زغلول. ووافقوا على أهمية هذه المجلة ويؤكد

مصطفى أمين(١٠) هذا الرأي وهو الذي اشتغل في روز اليوسف في بدايات عمله الصحفي فهو يقول (قالت لي مرة روز اليوسف وهي تضحك، أنها أَدارت مجلتها وهي لا تريد إلا أن تهاجم يوسف وهبي صاحب الفرقة التي كانت هي ممثلتها الأولى!! فهي لم تنس ما قاله لها من أنه هو التاريخ وبغيره ينساها الناس فأرادت أن يكون اسمها على مجلتها للأبد وأن تكون مجلتها فنية!! فإنها لم تتحول للسياسة إلا في وقت عزل سعد زغلول من الوزارة وصدرت المجلة وكانت المعارضة الأساسية من الجميع بما فيهم التابعي.

اشترطت روز اليوسف من البداية أن تحمل المجلة اسمها، وتقول روز اليوسف عن ذلك في مذكراتها: (عجبوا إذا أسميت صحيفتي باسمي وقالوا نزاعة إلى الشهرة!! أية شهرة!! الطبل العزاف إنني منه في صمم، ولم العجب أليست صحيفتي شعبة من نفسي؟!) وقد احتج على الاسم (التابعي) و(عباس العقاد) واحتج الوفد بعد أن أصبحت المجلة سياسية ثم قبل الجميع بهذا الاسم. ولم يكن الرفض للاسم فقط بل الرفض لأن صاحبة المجلة سيدة وفنانة، وحتى أن العقاد رفض في البداية أن يكتب في مجلة (تملكها سيدة). حتى بعد أن نجحت المجلة وانتشرت وأصبح لها جمهورها، كان هناك بعض من هذا الجمهور يخجل من أن يصرح بأنه يطالعها، فقد ذكر أحد المتصلين بروز اليوسف أنه صادف أحد النواب يقرأ مجلة يبدو من غلافها أنها مجلة (النواب) وبدأ أنه يضع شيئاً آخر داخل المجلة فإذا به مجلة (روز اليوسف) وعلق البعض على ذلك بأن

---

(١٠) السبب في ذلك أن يوسف وهبي رفض أن يعطيها دور فتاة عمرها ١٨ سنة في رواية الذبائح وأعطى الدور لممثلة ناشئة في ذلك الوقت اسمها (الآنسة أمينة رزق).

النائب المحترم لا يريد أن يعرف الناس أنه يقرأ مجلة روز اليوسف، ربما لأنها مجلة تحمل اسم سيدة!! غير أن المتناقشين طرحوا تساؤلاً هل لو كانت المجلة تحمل اسم هدى شعراوي أو نبوية موسى فهل يجد النائب حرجاً في قراءتها علناً؟! إذن السبب أن المجلة تحمل اسم فنانة.

وشعر الوفد بأن روز اليوسف مجلته، واشتهر اسم روز اليوسف ولمع سياسياً ويحكي عن ذلك إحسان عبد القدوس: (وحصل مرة أن مندوب مجلة روز اليوسف في الإسكندرية مرض فكلمتني والدتي وكنت لسه طالب ثانوي وقالت لي روح لوكاندة ولسون هتلاقي الوزراء قاعدين هناك هات لي منهم أخبار؟ كان عندي لسة ١٧ سنة، رحت اللوكاندة ولقيت فعلاً هيكل باشا قاعد والوزراء كلهم قاعدين، فقلت لهم ماما بتسلم عليكم وبتقولكم هي عايزة أخبار، وطبعاً إدوني فعلاً أخبار، وقعد الوزراء أنفسهم يساعدوني في كيفية تدوينها، ووالدتي انبسطت قوي)..

واشترك كل أعضاء الوفد في مجلة (روز اليوسف) إلا سعد باشا زغلول – إنه يعرف أخبارها من أعضاء الوفد ويسأل عنها في بيته ولا يجدها ولا يصدق أن روز اليوسف وفدية أكثر من الوفد نفسه –. وتتعجب روز أن زعيم الوفد لا يحدثها عن مجلتها بل إنه لا يدفع الاشتراك، مع أنها بنفسها تتأكد من وصول المجلة لبيته؟! واستمر السر غامضاً حتى عمل مصطفى أمين في مجلة (روز اليوسف ١٩٣٠) واعترف لها بأنه هو السبب فقد كانت المجلات والجرائد تصل للمنزل فتتصفحها (صفية زغلول) وأحياناً تضع خطوط تحت بعض الأخبار ليهتم بها زوجها

سعد وكان علي أمين ومصطفى أمين ينتظران أن تفرغ من ذلك – فإذا تركت الصحف على مكتب الزعيم دخلا لحجرته وأخذا (روز اليوسف) واختفيا بها، فقد كان إعجابهما بالتابعي لا ينقطع! وتنهدت روزاليوسف وكأن حجراً ثقيلاً تزحزح من قلبها وأمسكت بتلابيب مصطفى أمين فقد حرمها من أن تعيش أحلى اللحظات في حياتها بوصول كلمتها للزعيم وبحديثه معها وبسرعة أظهرت كرماً نادراً ووزعت مكافأة على العاملين بالمجلة.

وتأثر مصطفى أمين فاصطحبها لضريح سعد ولبيت الأمة وأخذتها صفية زغلول بالأحضان فهي التي قرأت كل ما كتبته وعرفت كل ما قدمته مجلتها (للوفد) ونظرت في عيناها، ولم تجد (روز اليوسف) نظرات الشك والريبة التي وجدتها في زيارتها الأولى. تغيرت العيون فشعرت بتغير القلوب، ولم تجد أحد ينتقدها وإنما وجدت "منيرة ثابت" تقبلها وتفاجئها بأنها حفرت في تاريخ المرأة طريقاً باسمها. وقالت لها أنها تبنت ما نادت به وحدثت عنه وزير المعارف، فقد رأت روز اليوسف أنه لابد من حصول المرأة على تعويض مالي مناسب بعد الطلاق نظراً للأضرار الاجتماعية التي تنجم عن تلك الحالة وخاصة إذا كانت الزوجة عاملة لأن قانون العمل وبالذات في مهنة التدريس– في تلك الفترة– كانت تفرض استقالة المدرسة عند الزواج فإذا طلقت فإنها بذلك تخسر عملها وزوجها فلا بد من حصولها على تعويض مالي يناسب تلك الخسائر ويقدرها القاضي؟! ولم تنسحب روز اليوسف هذه المرأة وإنما قالت لمنيرة ثابت: والفنانة التي تعمل بجد واجتهاد ماذا يحدث لها إذا تزوجت أيضاً، بل إذا ضاعت منها

صحتها. قوللي أين أذهب يا منيرة هانم!! الفنانة امرأة عاملة كالفلاحة والمدرسة! وحينما أرادت الانصراف إذا بأم المصريين تنتفض قائلة: ما بدري خليكي قاعدة شوية ما بدري يا ست روز!!.. ويقول مصطفى أمين وعند انصرافها كان في داخلها ألف رجل!! وانعكس ذلك في كتاباتها: فعندما عقد المؤتمر النسائي العربي عام ١٩٤٤ لتوحيد جهود المرأة الشرقية وتقرير حقوقها المدنية والسياسية، دعت هدى شعراوي روز اليوسف لحضور حفل شاي في دارها للمشتركات في المؤتمر الشرقي.

وكتبت روز تحت عنوان (ثلاث ساعات بين الهوانم والمدموازيلات): (ذهبت إلى الحفلة بعد تردد دام طويلا، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي أحضر فيها اجتماعاً نسائياً صرفاً، وكان على أن أتأبط كمية من (نون النسوة) لأتمكن من وصف الحفلة، على فرط ما بيني وبين نون النسوة من سوء تفاهم شديد. والحق على صاحبة الجلالة الصحافة التي جعلتني غريبة على اجتماعات بنات جنسي فلست أنكر أنني كنت في هذه الحفلة أشبع الأشياء بالفضولي يندس بين مدعوين لا يعرفونه ولا يعرفهم.

وكتبت في وصف آخر للمؤتمر على الخطبة التي ألقتها إحدى عضوات المؤتمر عن مآساة فلسطين فلم تتحمل المدعوات سماع هذه الخطبة الفياضة فأصبحن بين أمرين إما أن يطلقن العنان لدموعهن، وإما أن يتجلدن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه (ولكن ترددهن لم يطل فانبعثت الدموع من أعينهن وأمسكن بالمناديل يلتقطن الدموع التقاطاً قبل أن يختلط الأحمر بالأبيض) هكذا وصفت روز وقائع المؤتمر وكأنها تراه بعيني رجل

ويبدو أن مهنة التمثيل كان لها تأثيرها على خيالاتها وكتاباتها فكان يحلو لها أن يرسم لها رسم كاريكاتيري في المجلة وهي بملابس الرجال، ففي أحد أعداد المجلة نشرت لنفسها كاريكاتيراً وهي ترتدي الجبة والقفطان والعمامة وكتبت تحتها (الأستاذة روز اليوسف) الأمر الذي أثار عليها بعض الأزهريين فأرسلوا إلى المجلة يحتجون على هذا الرسم باعتبار أن العمامة (هي تاج الأزهر والإسلام) وأنهم لم يروا حتى القرن العشرين سيدة ترتدى العمامة، فأوضحت روز أنها إنما أرادت المبالغة في توضيح فكرة الأستاذية بعد أن طلبت من أصدقائها استبدال بكلمة (الست) لقب (الأستاذة)، وقد حدث ذلك عندما علمت بتصريح سعد زغلول إلى عدد من المتصلين به بأنه معجب بالمجلة (ذات الدم الخفيف) فتملك روز زهو شديد بنفسها ونشرت هذا الرسم واستخدمت هذا اللقب.

وفي مرة أخرى نشرت رسماً لها وهي ترتدي بدلة وطربوشاً وتمسك بالعصا، وجاء هذا الرسم في مقال للاحتجاج على أن كونها سيدة يمنعها بحكم العرف والتقاليد والبروتوكول من الحصول على الباشوية، واعتبرت روز اليوسف أنها جاهدت وأدت الخدمات للبلاد بينما هناك من السيدات (وتقصد زوجة النحاس باشا) حصلن على ألقاب الشرف لمجرد زواجها من أحد العظماء فكتبت (وليس الزواج فيما أظن في قائمة التضحية والجهاد، فحرم النحاس باشا التي نالت أرفع الأوسمة شأناً مع أنها لم تخرج من دارها إلا للنزهة وشم الهواء، أو للسفر إلى الخارج طلباً للراحة من عناء شم الهواء!! أما زواجها برفعة النحاس باشا، فعمل ليس وطنياً فيما أعلم ولا

حساب له إلا عند الله!! فكيف تفضلني عند تقدير الجهود وكيف تسبقني إلى ما أنا أحق منها به؟!).

ولم تكن روز اليوسف بمعزل عن قضايا المرأة ومشكلاتها، فحول الموضوع القديم الحديث:هل يصح للمرأة أن تشارك الرجل عمله ونقاسمه ميدان العمل؟! كتبت عن نابيلون عندما سئل (أي حصون فرنسا أمنع؟ فأجاب: المرأة الصالحة) وقسمت روز اليوسف الرجال لثلاثة أقسام: القسم الأول يدرك حقيقة الحياة التي أصبحت قاسية وظالمة فلم يعد يرى غضاضة في أن يتخذ من كتف المرأة سلماً يطل منه على الحياة وأن تمهد له سبل الارتزاق، وقسم ثان زاد اعتزازه برجولته عن المقدار المقرر في روشتة الحياة فعد المرأة ضعيفة عاجزة ونسب لها القصور والتقصير وجرى في الحياة لمساعدة هذا الجنس الضعيف العاجز الذي تضمه جدران البيت الأربعة، وقسم ثالث وهو الذي يقدر المرأة ويعرف لها جانبها الخطير في الحياة ويعمل من جانبه لمساعدة المرأة في هذا الواجب الكبير فإذا أبعدنا وأسقطنا القسم الأول حيث إن إنكاره خير من الاعتراف به والتغاضي عنه أفضل من إثباته بقي لدينا القسمان الثاني والثالث، ونظرة سطحية تكفي لأن نقول إن الكثرة الغالبة يضمها القسم الثاني أما الثالث فهو قليل نادر، ورفعت روز اليوسف دعوتها: (ابحثوا عن الرجل قبل كل شيء وصبوه في القالب المطلوب ثم تكلموا عن المرأة ما شئتم لأن واجبها إذا قامت به على أتم الوجوه لأعدت أمه أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولكن لو عرف الرجال واجبهم وقدروا المرأة وعملها أقول لو!!) وسارت المجلة تضرب في بحر السياسة بينما كانت صاحبتها في باريس، واحتجت

السلطات على بعض المقالات التي رأت فيها مساساً بأصحاب المناصب، الأمر الذي أدى إلى القبض على المدير المسئول وإيقاف المجلة عن الصدور لمدة تزيد على الشهر، مما دفع بعودة صاحبتها من باريس التي عادت فوجدت بحر السياسة هائجاً مزيد الموج فلم تتردد في أن تصد العدد ١٢٠ يحمل اسمها بصفتها المديرة المسئولة عن سياسة المجلة. وازدادت ضراوة الحرب بين (روز اليوسف) و(الكشكول) وعندما قامت الأخيرة بمهاجمة زوجة مكرم عبيد لم تتردد روز اليوسف في الكيل للكشكول من نفس الوعاء يدفعها في ذلك عاملان على حد تعبيرها: عامل الحزبية، وعامل الغيرة، على واحدة من بنات جنسها، وكان أن تقدم سليمان فوزي صاحب (الكشكول) بشكوى ضدها، وفي تحقيق النيابة دفعت ضريبة نزولها ميدان العمل الصحفي عندما سألها المحقق: بتشتمي ليه حرم سليمان أفندي؟ أجابت: هو كمان بيشتمني وأنا كمان حرمة. أجاب المحقق: أيوة لكن أنت حرمة عمومية؟ وعندما بدا على روز التأثر من كلمة (عمومية)، سارع المحقق قبل أن تبدي اعتراضها واعتذر وأوضح لها أنه يقصد أنها صحفية وشخصية عامة..

ولم يكن دفاعها عن زوجة مكرم عبيد هو الذي أوضح ميلها للوفد فقد كتبت روز اليوسف بمناسبة حادث من أبرز حوادث التاريخ المصري الحديث واعتبرته (روز) أول عمل تقوم به في الصحافة السياسية، وذلك من خلال محاكمة "أحمد ماهر، والنقراشي" بتهمة تكوين عصابة قامت باغتيال السردار وغيره من الإنجليز، وكان الدفاع يقوم به عدد كبير من المحامين الوفديين على رأسهم مصطفى النحاس، وكان الإنجليز يبغون دمغ

الوفد كله بالتآمر والجريمة والأرهاب، بإدانة عضوين بارزين فيه، وحضرت روز جلسات المحاكمة، وكتبت عنها في مجلتها، وعندما ظهرت براءة المتهمين اقتربت من قفص الاتهام لتصافحهما مهنئة.

وفي سنة ١٩٢٦ هبط توزيع المجلة إلى خمسمائة نسخة أسبوعياً منها ١٥٠ نسخة اشتراكات وذهبت روز اليوسف للتابعي تسأله: هل سعد زغلول غاضب علينا؟! وسألها التابعي: وما علاقة التوزيع بسعد زغلول؟! وإذا بها تذكره بشيء، وقد كان أمين الرافعي صديقاً حميماً لسعد زغلول، واشترك في ثورة ١٩١٩ وكان يصدر جريدة (الأخبار) وكانت الجريدة تعتبر لساناً من ألسنة سعد زغلول، ثم حدث أن اختلف أمين الرافعي مع سعد زغلول في الرأي السياسي، وكانت جريدة الأخبار قد وصلت في توزيعها أن أصبحت أوسع صحف مصر انتشاراً! كانت توزع في تلك الأيام حوالي خمسين ألف نسخة! ولم يصدر سعد زغلول قراراً بمقاطعة الجريدة؛ كل ما فعله أن قال في إحدى خطبه (أنا لا أقرأ جريدة الأخبار)؟! وفي اليوم الثاني هبط توزيع الأخبار من خمسين ألف نسخة إلى ثلاثة آلاف نسخة، وطمأنها التابعي فهو لم يسمع شيئاً يسوء في العلاقة بين المجلة وبين الوفد ثم أن الاشتراكات كلها من أعضاء الوفد وهي مستمرة وتزيد!

لم تكتف السيدة روز اليوسف بنجاحها الصحفي، بل عاشت تتمنى عودتها إلى أضواء المسرح، وقاومت أصدقاءها ومحرريها الذين عارضوا أن تظهر على المسرح تمثل أدوار الحب والغرام بعد أن أصبحت صاحبة أكبر مجلة سياسية في مصر، ولكنها بعنادها وإصرارها تحدت الجميع وظهرت

ليلتين متواليتين على مسرح الأزبكية في دور مارجريت جوتيه العاشقة في مسرحية (غادة الكاميليا)، وذلك لصالح المنكوبين في حريق هائل في قرية محلة زياد، ونجحت الصحفية في دور الممثلة، كما نجحت الممثلة في دور الصحفية، ثم فكرت في أن تمثل فيلماً في السبنما في أول دخول الأفلام الناطقة إلى مصر، وأجرت تجربة سينمائية لم تعجبها لأنها بدت عجوزاً، وكانت تريد وهي في الخمسين أن تمثل دور فتاة صغيرة!

ولكن روز اليوسف مع كل هذا لم تصل إلى صدارة المجلات السياسية، وفجأة تولى مُحَمَّد محمود باشا الحكم وبدأ عهده بمصادرة روز اليوسف، ودوى النبأ كالرعد في مصر، فقد كانت أول مجلة تصادر في عهد الدستور، وكتبت الصحف عن المصادرة وخطب النحاس باشا رئيس الوفد محتجاً على مصادرة روز اليوسف، وأطلق كتاب الحكومة على الوفد (حزب روز اليوسف) وخطب النحاس وقال: (نعم نحن حزب روز اليوسف)

وكانت المصادرة نعمة وبركة على المجلة فتضاعف توزيعها وزاد انتشارها، وأصبحت لأول مرة المجلة الأولى في مصر، وصمدت روز اليوسف للتهديد والوعيد والتعطيل والمصادرة والتنكيل، وفي كل يوم تقوى روز اليوسف وتضعف الصحف والمجلات التي اختارت السلامة، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معركة، ولا تنجو من أزمة إلا وتقع في أزمة أشد وأخطر. وكانت روز اليوسف امرأة ضعيفة في أيام النعمة، وامرأة قوية جبارة شرسة في أيام النقمة، كانت كالوردة البيضاء في أوقات الرخاء

وكالخنجر المسموم في أوقات الشدة، متعتها أن تحارب ولا تستسلم، أن تندفع ولا تتراجع، أن تنضرب ولا تجري، وكانت شجاعتها النادرة تثير الحماس في كل من حولها، فيقف القاعد، ويتحرك الساكن، وينطق الأخرس ويقدم المتردد، ويطمئن الخائف، ويتشجع الجبان.

وبدأ إحسان عبد القدوس ابنها يطل بقلمه السياسي مندفعا بخيال الأدباء وثورة السياسيين، وأصبحت المجلة لا تهلل لكل ما يفعله الوفد بل تنتقد وتوجه، وتطرقت روز اليوسف لحرم النحاس باشا وإسرافها وسيطرتها. وقام خلاف بينها وبين الوفد، وحاول النحاس باشا أن يقنعها بأن تلتزم بسياسة الوفد، فعاندت ورفضت أن تنزل عن حريتها في نقد الحكومة، واجتمع الوفد وقرر التبرؤ من جريدة روز اليوسف وأصدر أمرا للجانه بمقاطعتها، وجاءت المظاهرات الحاشدة إلى دار الجريدة تهتف بسقوطها، فخرجت إليهم وحدها واندفعت تهتف بسقوط النحاس، وتلقت اللعنات والشتائم فتصدت لها وأبت أن تتراجع أو تخضع أو تركع أمام غضب الجماهير.

ودخل إحسان ابنها السجن عن مقال ضد (اللورد كيلرن) سفير الإنجليز وقتها في مصر وكان له سلطان ومهابة، كان العنوان (هذا الرجل يجب أن يذهب إنه بطل حادث ٤ فبراير) وهذا الحادث هو الذي أتى بالوفد على رأس الحكومة في أيام الملك فاروق. وكان رئيس الوزراء وقتها صديقاً (لروز اليوسف) فقال لها: أنا أسعى للمفاوضات وإحسان يريد أن يوقف هذه المفاوضات.

وقالت روز: يسجن ابني ولا يرجع في رأيه!! ولم يسجن وقتها إحسان. ولكنه سجن لأول مرة عام **١٩٥٤** في عصر الثورة؟! وفي **١٥** مارس **١٩٥٤** كتب (إحسان عبد القدوس) ضد الثورة ضد الجمعية السرية التي تحكم مصر ودفع إحسان ثمن مقاله، ودخل السجن، واتهم أيضاً هو وأمه (فاطمة اليوسف) وزوجها مع **٢١** صحفياً آخر بأنهم يتقاضون المصروفات السرية من السرايا (وقال صلاح سالم في احتفال بتوزيع الأراضي على الفلاحين (إن الصحافة تنادي بالحرية والديمقراطية ليأخذ الصحفيون باسم الحرية المصاريف السرية) والمصروف السرى (هو أسوأ اتهام يمكن أن يوجه إلى صحفي، وكانت تلك تهمة أخطر من التهمة التي وجهت رسمياً لإحسان عبد القدوس وهي (العمل على قلب نظام الحكم)، أو كما قال الأستاذ إحسان بعد أن خرج من ثلاثة أشهر حبساً في السجن الحربي، بينها شهر انفرادي، وفي مقاله (**٩٥** يوماً في السجن) (إنها أخطر تهمة يمكن أن يتعرض لها مواطن، فما بالكم لو كان صحفيا؟)..يذكر بعد أن خرج إحسان من السجن استدعاه عبد الناصر لتناول الطعام معه، وظل طوال شهر كامل يدعوه ليشاهد معه فيلماً سينمائياً يوميا، ويقول له أنه كان (يربيه)؟!.ولم يعد إحسان يقول لجمال "يا جو"، وإنما سيادتك وعظمتك، وبعدها تمام يا ريس!

وقالت روز لابنها إحسان عبد القدوس: إذا كان يريد أن (يربيك) فهذا معناه أنه يعتقد بوفاة أمك، فكيف أتعامل مع من يعتبرونني في القبر!! واعتزلت روز اليوسف في منزل العائلة الكبير في كفر الشيخ ومعها زوجها حفيد قاسم أمين الذي تزوجها وكانت تكبره بـ**٣٠** سنة ويقول لها:

ماما روز!!.. وأغرب ما في قصة هذه المعجزة، أنها كانت قارئة ممتازة، وذواقة رائعة، تقرأ المقال فتعرف على الفور إذا كان يستحق أن ينشر في الصفحة الأولى، أو يلقى به في سلة المهملات، تقرأ الخبر فتفرق بين الماس الصحفي، والزجاج الصحفي، هوايتها اكتشاف المواهب الشابة، ودفعها إلى الأمام، قادرة أن تحول اليأس إلى أمل، والكسل إلى عمل، والخمول إلى انطلاق!!

الفصل الخامس

سفر الترويح "يا بلح زغلول.. يا حليوه يا بلح!"

منيرة المهدية ١٨٩٠–١٩٦٥

وكان (سعد زغلول) من حين لآخر يختلس الوقت ليروح عن نفسه وعقله، وكان يميل إلى سماع الأغاني من عبده الحامولي ومُحَمَّد عثمان وسلامة حجازي، كما كان يقرأ الشعر ويحفظه خاصة: المتنبي والمعري، وذات يوم قرر (سعد زغلول) أن يذهب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية تقوم ببطولتها الفنانة المطربة الكبيرة منيرة المهدية، وحرص سعد على كتابة ماشاهده في مذكراته بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ فيقول: (دعاني أمس إسماعيل صدقي إلى تياترو (برانتانيا) لحضور تمثيل رواية كارمن، بواسطة جوقة منيرة المهدية، ودعا معي: عدلي باشا وثروت باشا وقد كان التياترو على سعته، غاصاً بالمتفرجين، والألواج مملوءة جداً ولكن أغلبهم كانوا من الطبقة الوسطى والدنيا، ومنيرة المهدية فنانة في الثلاثين من عمرها، خمرية اللون رشيقة القد مليحة الوجه، خفيفة الروح، رخيمة الصوت وطويلة النفس، وتمثيلها لا بأس به كما لا بأس ببعض أفراد الممثلين معها.

وقد رأيت التمثيل تقدم عن ذي قبل كثيراً، ولكن الشعب لم يتهذب بعد، ولم يترب فيه ذوق هذه المشاهد، فهو يصفق لما يجب السكوت عنده ويسكت لما يجب له التصفيق، ويضحك عندما يلزم البكاء ويسكت بعضه

بعضاً فيكون لا إسكات أدعى للجلبة من التشويش، وقد لبثت إلى ما قبل الفصل الأخير وانصرفت مع عدلي (يكن) وبقي صدقي وثروت بعد أن خرجا معنا، بحجة أنهما يريدان السير على الأقدام، ولكن يظهر من حالتهما أنهما كانا يريدان أمراً آخر، ولقد تحدث الناس بوليمة صنعها زوج (منيرة) المذكورة لثروت باشا، وبعض القضاة والمحامين، وانتقدوا الوزير انتقاداً مراً. ولقد قيل إلى ثروت: إن سري باشا يقول أن منيرة هذه ليست حميدة السيرة فاكفهر وجهه واحتقن وعلاه الكدر وقال: على ذلك سيرفض الإذن في التمثيل في الأوبرا السلطانية.

ويحكى أنه عندما كانت (صفية زغلول) تستقبل في بيتها صديقاتها والمقربات منها، لم يكن سعد زغلول يخرج لملاقاتهن، ولاحظت إحدى صديقات صفية هذا الأمر، وتذكرت الشائعة التي انتشرت لفترة أن (سعد زغلول) تزوج من أخرى فسألت هذه السيدة صفية بفضول شديد: هل صحيح أن لزوجك سعد باشا بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال؟!

وبكل جدية ترد صفية زغلول: نعم له زوجة أخرى ولكنها في هذا البيت! أنظرن، سأريكن إياها وأسمعكن أسرار (سعد) معها في هذه اللحظة!! وتزداد دهشة السيدة ويتملكها حب الفضول والاستطلاع من جواب (صفية) وتنهض الصديقات لرؤية (ضرة) صفية، وتكون المفاجأت في جلوس (سعد) منكباً على مكتبه بين أوراقه وكتبه يقرأ بصوت جهير على عادة الأزهريين، وإلى جانبه سرير أعد للنوم إذا تأخر به الدرس إلى هزيع الليل الأخير.

وتسأل (صفية) صديقاتها:

- أسمعتن؟!

- نعم ولكن أين الزوجة؟!

- الزوجة هي هذه الأوراق، وهي الضرة التي سمعتن بها؟!

وفجأة وقبل انصرافهن يسمعن صوت جرمافون يصدر منه صوت يغني (أسمر ملك روحي يا حبيبي.. تعالى.. بالعجل) ويضحك النساء ويلعب الفأر في عب صفية زغلول، وبعد أن تنتهي الزيارة تذهب لزوجها بكوب حلبة باللبن، وتسأله من هذه المطربة، ويجيب سعد زغلول: "منيرة المهدية" (سلطانة الطرب) وكانت هذه شهرتها. وتسأله صفية بتعجب وقد حدث لها تداعي من أقوال صديقاتها: لكنك لا تسمع إلا الشيخ رفعت أو عبده الحامولي أو سلامة حجازي.

ويجيب سعد: إن سلامة حجازي قد أعطى جوقته لمنيرة المهدية.

وفجأة فجرت صفية قنبلة: طلقني يا سعد، أو طلق السهر والقمار، فأنت وعدتني أكثر من مرة بأنك لن تبقى خارج المنزل بعد الساعة الثامنة ولكنك لا تحضر قبل الساعة الثانية عشرة.

وانفجر سعد زغلول: ما علاقة القمار بمنيرة المهدية بالسهر؟

وقالت صفية: كلها سكة واحدة منفده على بعض!!

ولم يكن سعد زغلول يعلم حتى هذه اللحظة أن زوج (منيرة المهدية) له بارتيتة قمار خاصة يلعب معها!! وأن لمنيرة المهدية عوامة تغني فيها ويلعب فيها زوجها القمار. ويبدو أن سعد زغلول بالفعل حنث في يمينه مع زوجته ففي مذكراته بتاريخ ٥ يناير ١٩١٧ يقول (سعد زغلول): قمت أمس باكراً، وأصبحت اليوم نشطاً منتعشاً، ولقد تعهدت تعهداً وثيقاً بأن لا أبقى خارج المنزل إلا إلى الساعة ٨، وإني آخذ نفسي بهذا التعهد، وملزمها الوفاء به لأن فيه راحتى، وراحة زوجتي التي تتألم كثيراً من سهري!! وتكاد تموت إذا غبت عن العشاء، ولذلك حرم علي أن أعمل على أذاها، وأن أتلذذ بعذابها، على أنه لا لذة في البقاء زمناً طويلاً خارج البيت خصوصاً لمن كان في سني وصحتي؛ فاللهم أعنّي على العمل بما يضمن راحتي وأهلي، إنك سميع الدعاء..

وقبل حوالى أسبوع بالضبط من تسجيل هذه الخواطر، كان (سعد زغلول) قد عاد من مسجد وصيف عند الفجر فيقول: (ورأيت حرمي بعد عودتي في الساعة ٢ تنتظرني، فقالت: خضيتني وغضبت، وغضب ثم اصطلح الحال).

لقد كان حب (صفية زغلول) لزوجها سعد حباً لا حدود له، ولم تتزعزع مكانة هذا الحب أبداً، وعاشت (صفية) تتمنى من كل قلبها أن يكف (سعد) عن لعب القمار!!.

ومن أطرف ما جرى في أواخر يوليو ١٩١٨ عندما نشرت جريدة المقطم خبراً يقول إن حكمدار بوليس القاهرة أرسل منشوراً لرؤساء جميع النوادي يحرم عليها لعب الورق بجميع أنواعه كان هذا القرار مصدر فرح وسعادة لصفية زغلول، كما كان مصدر حزن وغضب لسعد زغلول، وحرص (سعد) على تسجيل ذلك في مذكراته (٢٩ يوليو) فيقول: (ارتاحت حرمي لهذا المنع غاية الارتياح، ولكني قرأت اليوم أن هذا المنع خاص بالنوادي التي تأسست على اللعب وللعب، لا التي تأسست لأغراض أخرى فارتحت ولكن لم يسر ذلك حرمي).

وهكذا لم تدم فرحة صفية زغلول!! وفي أواخر ١٩١٨ أقلع سعد زغلول تماماً عن القمار وقرر أن يعيد ترتيب مكتبته واهتم بالجغرافيا واللغات والتاريخ القديم وأعطى أسطوانة (منيرة المهدية) لأخيه (سعيد زغلول) الذي كان يعتبر ابنه بالتبني وكتب في مذكراته يقول: أرى (حرمي) مسرورة من حالي وقد زادت ساعات المؤانسة والمجالسة فيما بيننا. لأنها إن كانت وحدها كانت مؤانستها ضرورية لازمة لإزالة الوحشة من نفسها، وإن كان معها غيرها كان ذلك على الأقل دفاعاً لما يتوهمه الأجنبي من وجود شيء من الجفاء بيننا. إذا كنت أظلم نفسي باللعب وأظلم من يجبى بالإعراض عنه، فمن لا أظلم؟ ومن أخدم؟! اتق الله في نفسك وأهلك، وقسم وقتك بين الأنس والعمل.

في أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطاني أمراً عسكرياً بسجن كل من يذكر اسم زغليم الثورة سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل

وجلده عشرين جلدة.. وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة (يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح، عليك بنادي في كل نادي، يا بلح يا حليوة يا بلح). وانتشرت الأغنية، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين حتى تحولت إلى ما يشبه النشيد الوطني تحدياً لأمر قائد جيوش الاحتلال! والمعنى أن المهم الرمز، وزغلول موجود.. سعد موجود.

وكتب مستر ريجنالد ديليني مراسل رويتر: (إن الذي يمشي في شوارع مدن مصر وقراها يخيل إليه أن جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال تحولوا إلى باعة متجولين، يبيعون بلحاً اسمه بلح زغلول)!

ثم أن منيرة المهدية لها أغان مشهورة (أسمر ملك روحي) و(عصفوري يامة عصفوري) وهي قادرة على أغاني صعبة لسيد درويش وداود حسني وهي أول من صرف على المسرح وألفت فرقة مسرحية مثلت على المسرح روايات: (كلها يومين) لحنها سيد درويش و(كليوباترا) ولحنها سيد درويش، وأكملها مُحَمَّد عبد الوهاب!! وكان أول ظهورها مع (شفيقة القبطية)، ثم أصبحت المطرية الأولى في مصر بلا منازع.

وفي مذكرات ثروت باشا بضع سطور عنها: كانت منيرة المهدية صوتاً يطرب. لم تكن شخصيتها على مستوى صوتها، فهي مسيطرة، لحوحة في طلباتها، لا تترك فرصة إلا وعاجلتها بالاقتناص، وفي كل مرة أروح فيها بسماعها كانت تتحايل لالتقاط الصور معها لي ولمن معي. وكان زوجها مثلها إلا أنه أكثر إلحاحاً وفظاظة، ويفجر مفاجأة حين يذكر: توفي سيد

درويش قبل عودة الزعيم سعد زغلول بخمسة عشر يوماً من منفاه وذهبت على رأس وفد من حزب الوفد للعزاء، بعدما علمنا من أنه يعد احتفالاً قضى فيه وقتاً طويلاً لهذا اليوم، وبالفعل وجدت هناك بالإسكندرية المنشدين والعازفين، وقد استعدوا لحفل استقبال الزعيم، واقترح الشيخ ماضي الفقي أن يتحول المنشدون والجوقة لأداء جماعي وغير في بعض كلام النشيد فحول (كلنا جميعاً للوطن ضحية) إلى (كلنا في حب الوطن ضحية) وحاولت أن أعارضه في ذلك لاختلاف المعنى، ولكنه أوضح صعوبة ذلك في الأداء الجماعي، وإذا بي أجد زوج (منيرة المهدية) الفظ اللحوح، يخبرني أنه ومنيرة قد حضرا لواجب العزاء وأن منيرة المهدية تريد أن تحل محل سيد درويش في استقبال الزعيم. ووجدت أن ذلك يجعل المنشدين والعازفين يعودون للسياق الذي وضعه سيد درويش، فوافقت مبدئياً إلا أن (عبد الرحمن فهمي) حضر للإسكندرية قبل موعد الزعيم بأسبوع، ولما علم الخبر ثار ثورة عارمة ورفض رفضاً باتاً، وقال في ثورته: ما تجيبوا عوالم ورقاصين!.. ورفعت يدى عن الأمر، ووصل الأمر لحد رفض الاحتفال كله.

ولكن الإسكندرية خرجت كلها في يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٢٣ عند عودة سعد، وقد حفظ الناس لحن سيد درويش واستقبلوه به، واختلط المنشدون بالبشر والعازفين، والغريبة أنهم جميعاً أدوا اللحن صحيحاً وكما وضعه الشيخ سيد درويش!

مصـــرنا وطننـــا ســـعدها أملنـــا   كلنـــا جميعـــاً للـــوطن ضـــحية

أجمعـت قلوبنـا هلالنـا وصـليبنا	أن تعـيش مصـر عيشـة هنيـة
عـــزك حياتنـــا.. ذلـــك مماتنـــا	يا مصـر بعـدك مالنـاش سـعادة

أما الكاتب الصحفي حنفي المحلاوي فيذكر بديعة مصابني في كتابه (من قتل سيد درويش) فيقرر أنه كان في حياة سيد درويش نساء كثيرات وليست فقط (جليلة) فهناك فتاة من طنطا اسمها (فردوس) قال فيها:

يا ناس أنا مـــــت في حـــــبي	وجـــم ملايكـــة يحاســـبوني
قـــالوا لي روح جنـــة رضـــوان	اخـــترت أنا جنـــة فـــردوس

وأحب الفنانة حياة صبري ومن ضمن من يذكر منيرة المهدية!! ويذكر أن أوراق التحقيقات في مقتل سيد درويش ورد فيها اسم (منيرة المهدية) قال الشيخ خاطر في هذه الأقوال عن وفاة أو مقتل صديقه سيد درويش؟! قال الشاهد المهم في هذه الأقوال المسجلة:

(كان الشيخ سيد درويش قد وضع لحناً جديداً في القاهرة لمنيرة المهدية، وفي خلال البروفات اختلف معها (عواد الفرقة) الذي سافر إلى الإسكندرية وأعطى لحن الشيخ سيد درويش لمطربة اسمها (وداد)، وعندما رجع الشيخ سيد إلى مدينة الإسكندرية في آخر رحلاته لها، سمع المطربة (وداد) تتغنى باللحن وبطريقة خاطئة شوهت من اللحن، فثار عليها وصعد إلى التخت وهجم على (العواد) ثم خطف منه العود وحطمه فوق رأسه، كما شتم المطربة وكاد بلطجية المسرح أن يفتكوا بسيد درويش لولا أنقذته شلة من الأصدقاء كانوا معه، ولكن المطربة تظاهرت بعد ذلك بأيام

بالتودد من جديد للشيخ سيد وطلبت منه أن يعلمها أصول الغناء، ولذلك دعته إلى منزلها ليقوم بتدريبها وبتحفيظها لحناً جديداً له، وكانت قد عرفت أنه أكول جداً، ولا يستغني عن الكوكايين، فأعدت له كميات ضخمة منه؟! وسهر الشيخ سيد بالفعل عند (وداد) حتى مطلع الفجر، ثم عاد إلى منزله في بيت شقيقته (فريدة) بمحرم بك، وكان متعباً وفي حالة إعياء شديد لدرجة أن شقيقته استدعتني من منزلي بكوم الدكة لأجلس إلى جواره ولأعرف ماذا أصابه؟!

وفي الصباح كان الشيخ سيد درويش جثة هامدة، وعند عرضه على طبيب صحة محرم بك الدكتور مُحَمَّد حسن، قال: إنه يشتبه فعلاً في أن يكون الشيخ قد مات مسموماً! ووضعنا جميعاً أمام هذا السؤال:

– هل تريدون أن أحيل الموضوع إلى النيابة؟

وتسمرنا جميعاً، وأطبق علينا الصمت، لقد كنا نعرف أن معنى هذا البلاغ تشريح جثة سيد درويش! أما أوراق الفنانة (حياة صبري) فغريبة يرد فيها أنها كانت تعمل في فرقة (منيرة المهدية) كمغنية ورآها الشيخ سيد درويش فأعجب بها وزادت العلاقة بينهما ارتباطاً حينما علم أنها من الإسكندرية، ومن عائلة (عبد العال) من محرم بك وأن اسمها الحقيقى (عائشة مُحَمَّد ابراهيم عبد العال) وأنها هربت إلى القاهرة لتعمل كمطربة. ولاحظت (منيرة المهدية) العلاقة بينهما وأنه يقدمها في الجوقة ويعطيها بعض الدخلات في مسرحياتها فطردتها، فقد كانت منيرة المهدية تغار عليه،

ولكنه لم يكن يبادلها ذلك إلا في أوقات البروفات، فإذا انتهت المسرحية فض يده عنها!! وعندما طردتها الست منيرة. ماذا فعل معها الشيخ سيد درويش؟! إنها تقول على لسانها: فأغرقني في الرفاهية واستأجر لي شقة مفروشة لنقيم بها، وكان يتردد علي في هذه الشقة مع بعض الأصدقاء حيث كان يشعر بأني مهبط الوحي الفني.

وتتوالى الحكايات عن منيرة المهدية، المرأة التي اختصها سعد زغلول ببضع سطور ضمن مذكراته التي لم يكتب فيها إلا عن سبعة نساء: أمه، وزوجته صفية، وابنته بالتبني (رتيبة) أم علي ومصطفى أمين، وحماته، ومنيرة ثابت، الملكة نازلي، وسابعهم (منيرة المهدية)!!

مثلاً يكتب: (إنها رفضت بيع عوامتها الخاصة للملكة نازلي، رغم أن الملكة زارتها بنفسها فيها وحينما قالت لها نازلي: يظهر أنك ناسية أني ملكة مصر. ردت عليها منيرة: أنت اللى ناسية يا مولاتي أني سلطانة الطرب؟!). ومثل آخر ما سجله وراءه علامات تعجب واستفهام سعد زغلول في مذكراته فبراير ١٩١٤ (من أن حسين رشدي باشا عقد جلسة مجلس الوزراء في عوامة منيرة المهدية، وعلل ذلك بأنه وجد كل الوزراء هناك في ندوتها التي تضم كبار رجالات البلد!!)

ولم تبع ولم تسكن منيرة في عصر سعد زغلول، ولكنها باعت عوامتها واحتجبت عام ١٩٤٢ ولمدة عشرة سنوات عادت بعدها للطرب في أكبر

سقطة لها حيث لم يتحملها الجمهور ونادور عليها: شدوا الستارة منيرة دى ولا غارة!! و.. والعوا النور منيرة بلعت وابور؟!

وقد انضمت (منيرة المهدية) لزميلتها في الكار (فاطمة سري) في قضيتها مع (مُحَمَّد شعراوي، وهدى شعراوي) السابق الإشارة إليها – وأرسلت فكري أباظة المحامي ليقف معها في قضيتها فقد كانت لمنيرة قضية مشابهة، فقد غرر بها ابن أحد البشوات، وحملت منه، وخطف أهله بنتها التي أنجبتها منه، فهربت من أهلها، وبدأت حياتها كمطربة متخفية في ملابس الرجال حتى لا يعرف مكانها أهلها – ثم تزوجت من بطل المصارعة (حسن كمال) ليحميها وبدأت في الظهور بجنسها الحقيقى!! ولذا شعرت أن قضية فاطمة سري قضيتها، قضية الفن ضد الباشوات. إلا أن أغرب حكايات (منيرة المهدية) كانت مع أم كلثوم حينما شعرت أن هذه الفتاة الصغيرة تهدد عرش سلطانته (سلطنة الطرب) وقد فعلت العجائب من أجل الحفاظ على اللقب للأبد ولكن كما يقولون (لو دامت لغيرك ما وصلت لك)!! لقد شعرت بأهمية سلاح (الصحافة) في قضية (فاطمة سري) فأرادت أن تستعمله ضد أم كلثوم!! لم يسعفها سلاحها المعروف (الباشوات) وغنوتها المشهورة (ما تخفش عليا.. أنا واحدة سجوريا.. في العشق يا أنتا واخدة البكلوريا) وأشار عليها البعض إلى اثنين: فكري أباظة، وعبد المجيد حلمي.. وسألت من أكثرهم استقامة وقلة خبرة وقلة شهرة وحاجة، وتعجب الجميع ولكنهم قالوا لها: عبد المجيد حلمي رئيس تحرير مجلة (المسرح)، وقلمه عنيف وهو صعيدي وشاب لم يسبق له نزوات، ولم يعرف عنه مغامرات في عالم العشق والهوى. وقررت منيرة

المهدية أن تقع في غرام الصحفي الشاب، ودعته إلى الغذاء في عوامتها وبعد ساعة واحدة كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق وهي تلقي البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران! وخرج عبد المجيد الطيب من عند منيرة وهو مقتنع بأنه حبها الأول والأخير، وأصبحت مجلة المسرح هي مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب في مصر والشرق! وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم وقالت في ١٧ يناير سنة ١٩٢٧، أم كلثوم لها مئات العشاق ولا أدري ماذا يحبون فيها، فهي ليست على شيء من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع. وفي١٣ ينايرسنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول (إن أم كلثوم نجمها قد غرب) وفي ٣١ يناير أيضاً كتبت مجلة المسرح تقول (أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين بأن شاباً من القرية اغتصبها) ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره أبداً لأنه كان خبراً مختلقا، ولكن هذا الخبر كاد ينجح في إعادة أم كلثوم إلى قريتها فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم وأقسم ألا تبقى أم كلثوم بالقاهرة بعد أن بزغ نجمها ولكن الأب أصر لولا أن صديقاً للأسرة حضر في تلك اللحظة واستطاع أن يقنع الشيخ ابراهيم بالبقاء.

ولكن هذه الحملة العنيفة على المطربة الشابة أم كلثوم لم تصرف الناس وفجأة جاء أولاد الحلال وقالوا لها.. لنغير ونعدل.. سنضرب أم كلثوم من المسرح، وبسرعة أقنعت الست منيرة "عبد الوهاب" بإكمال لحن سيد درويش (كليوباترا)، وكان الفضل لمسرح منيرة المهدية التي اكتشفت محمد عبد الوهاب والذي يكتب في مذكراته عن ذلك الحدث: بأن هذه المرحلة جعلته يلمع كملحن بعد أن لمع كمطرب، ولكنه يذكر

أيضاً ذلك المشهد الذي تلقي فيه (كليوباترا) بنفسها على صدره منتحرة بسم الثعبان، ويقول ولأن منيرة المهدية لا تقل عن ١٥٠ كيلو شحم فإنها في كل ليلة كانت تخرج روحه حينما تموت على صدره متوهمة بأنها كليوباترا!!

ونجحت الفكرة مرحلياً عندما نشر الأستاذ فكري أباظة مقالاً في الأهرام بعنوان (معجزة الموسم) قال فيه (منيرة وعبد الوهاب يغردان تغريد البلابل، والجمهور يضج ضجيج الإعجاب العنيف بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال مجرم في حق نفسه وحق الفن من لا يشهد رواية كليواترا في الحال مجرم في حق النبوغ والعبقرية من لا يبادر بإذاعة خبر هذا النصر الحاسم والنجاح البالغ عنان السماء!)

وأبدت منيرة إعجابها الشديد بفكري أباظة، وغار عبد المجيد من فكري أباظة. وفي ٧ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد حلمي إلى حبيبته يقول (كان الشرط ألا نتراسل، مهما جد في غرامنا، ومهما وقع لنا، ولكني أحب أن أقص في غيبتي ما لا أستطيع ذكره أمامك)، نذالة في الرجل يا سيدتي أن يغدر، ولكنها طهارة أيضاً ألا يكون مخادعاً ولا غشاشاً، وأنا اليوم أغدر بك، ولكنى لا أغشك ولا أخدعك.كنت أنت النار التي أشعلت حسي، ولا أقول قلبي، ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب، فظننت أني أحبك، وظننت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا لك أو من أجلك وفي سبيلك وفي ذلك النهار الممطر الذي قضيناه معاً في

منزلي، فجأة دفعتك عني كشيء قذر تمرغت فيه برهة ثم عافته نفسي فتنصلت منه أصبحت (لا شيء) في حين أنك منذ دقائق كنت (كل شيء)كنت أعتقد أنني أحبك وأنني لا أستطيع فراقك كنت أغار عليك حين تمدين يدك بالسلام لمخلوق ما وكنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخص آخر كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلاً غيري نظر إليك وابتسم لك.. أما الآن فلا أتمنى على الله إلا أن يبعدني عنك إلى الأبد.

وقالت منيرة المهدية: هذا الحشرة يتركني أنا.. يترك ست الستات.. لست المرأة التي يتركها رجل أنا الذي أترك.. وجن جنون برج الحمل برج منيرة المهدية آه من برج الحمل.. وآن من امرأة يبدأ اسمها بحرف ميم إذا قررت الانتقام والثورة. وجاء أولاد الحلال، وقالوا لها: بشبشي له.. اسحري له.. وقالت إيه الكلام الفارغ ده.. وقالوا لها وصفة معروفة بعض الآيات وبعض الطلاسم تكتب على ورق بالزعفران وتغسل بالماء ويشرب منها المحبوب!! أو شيء من أطره قطعة قماش منديل. وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٨ كتب إليها عبد المجيد حلمي يقول (أصدقائي يصورنك لى بصورة بشعة، وما يزيدني ذلك إلا حباً فيك، وشغفاً بك وحنيناً إلى لقياك، إن حديث السوء عنك يصيب جرحاً في عاطفتي فيذيبها، المرأة التي أحببتها يحتقرها الناس؟!)..وفي يوم ٩ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد لها يقول (أنت طاغية في حبك الأبله، طاغية في تفكيرك الجنوني، طاغية في عبثك الأثيم، طاغية في استهتارك السخيف، طاغية في إحساسك وشعورك، ومصرع كل طاغية رهيب).

فهل هذا بسبب الحب.. أم بسبب السحر أم بسببهما معاً؟!

وسقط عبد المجيد حلمي صريع الحمى والحب، وارتفعت درجة حرارته، وأصبح يهذي ويذكر اسم منيرة..منيرة وحدها! وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو ١٩٢٧: (الآن وقد مضت علي الأيام الستة وأنا فريسة المرض، بدأت الخيالات تمر أمامي تباعاً، أعيد على ذكرياتي الماضي بعيدة وقريبة، فيشتد الألم وتزداد قواي انحلالاً، تألفت علي عناصر الطبيعة تريد أن تصرعني وتألبت لتغلبني ووقفت لها أحتمل ولا أدفع، وأصبر فلا أجزع، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع!).

وهبت العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها، البعض لعنها، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها، والجمهور قاطعها ومضت منيرة تقاوم الصحف كلها والمجلات كلها والنقاد كلها، كل أصدقائها تخلو عنها حكموا عليها بغير محاكمة رفضوا أن يسمعوا شهودها أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها! كان عبد المجيد معبوداً بين الشباب فقاطعوا مسرحها، وأطلقوا عليها اسم القاتلة، وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة أو يعمي عينيها الجميلتين المطلتين من إعلانات الحائط. ولكن منيرة المهدية بقيت تذكر شيئين: إنها وفدية سعدية، وفدية نحاسية، وفدية ولو على رأس الوفد غراب!!

أما الشيء الثاني تلك الصورة التي التقطت لحسين رشدي باشا رئيس مجلس الشيوخ!! ونشرتها الصحف وروز اليوسف (أنها مدت يدها

ليسلم عليها رئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا ووجد الرجل نفسه يقبل يدها ليحدث أزمة برلمانية يقف فيها بسذاجة يقول: (ليس في الدستور المصري مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يقبل يد مطربة).

كانت منيرة المهدية تحب شيئاً واحداً هو منيرة المهدية.. إن أي واحد أحبها قال هذه العبارة (أنا وهي نحب شخصاً واحد: هي!!) وإذا احتاجت لشيء لم تفصل بين الحب وما تحتاجه، وتفعل هذا قبل الحب تمسح وتنكس وتكوي وتهب كل شيء ولها صوت مؤثر وكلام مؤثر وخطاباتها قصيرة. وعن ذلك يحكي (مصطفى أمين): وفجأة سألتها؟

– وإيه حكاية عبد المجيد؟

– قالت في استغراب: عبد المجيد مين؟

– عبد المجيد حلمي مجلة المسرح.

– آه.. آه.. عبد المجيد دي حكاية بسيطة، كان يحبني حباً جنونياً وكنت أعطف عيه لطيبته وبراءته ولكني لم أحبه لأن غيرته كانت كالإعصار تحطم كل شيء أمامها!

ومضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عن الغناء، وذات مساء اتصلت بى أم كلثوم تليفونياً وقالت لى: (إني أدعوك معي في حفل ساهر اشتريت بنوار في صالة بديعة وستغني منيرة المهدية، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها وألحت إلحاحاً عجيباً أن أصاحبها) وذهبنا وغنت منيرة المهدية

ويا ليتها ما غنت، كان صوتها أشبه بالأسطوانة المشروخة، فقد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته، وكانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد، ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق وتزغدني في كتفي لأشاركها في التصفيق، وخيل إلى أننا وحدنا الذين كنا نصفق وأن الجالسين في الصالة انهمكا في الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب وبريقها الفتان، ولم تكن التي أمامنا: منيرة المهدية، بل شبح منيرة المهدية، وشعرت أم كلثوم أن القصاص قد جاء، وإن كان تأخر ٤٠ سنة منذ أول مقالة كتبها الصحفي المتيم المسحور عبد المجيد حلمي، ضدها!!

الفصل السادس

سفر المودة "لست ملكاً حتى يؤرقني أمر الإنجاب"

صفية زغلول ١٨٧٨-١٩٤٦

روت صفية زغلول أنها في يوم زفافها عام ١٨٩٦ استدعتها أمها أصانيش هانم وقالت لها بعد الفرح: سيأخذك زوجك من بيت أبيك في باب اللوق إلى بيت زوجك في غمرة في عربة حانطور، اجلسي صامتة طوال الطريق، عندما تصل العربة أمام بيت العريس سينزل سعد ويقول لك: تفضلي!.. اجلسي في مكانك ولا تتحركي! ..سيقول لك المرة الثانية : تفضلي! اجلسى في مكانك ولا تتحركي! ..سيقول لك في المرة الثالثة: تفضلي! عندئذ تنزلين من العربة وتدخلين معه إلى البيت حتى يعرف من أنت؟

وقالت صفية أنها اتبعت تعليمات أمها فلما وقفت العربة نزل منها سعد وقال لها: تفضلي، فلم تنزل، وعندئذ فوجئت صفية زغلول بسعد زغلول يتركها ويدير ظهره ويمشي نحو باب البيت، وعندئذ وجدت نفسي أقفز من العربة وأجري خلفه، وما زلت منذ ذلك اليوم أجري خلفه إلى الآن! وهكذا لم تشعر هذه العروس الصغيرة إلا أن هذا الرجل سيدها وإلهها الصغير لا تتحرك إلا بإذنه ولا تتكلم إلا همساً.. نسيت منذ تلك اللحظة أنها ابنة رئيس وزراء مصر الذي تولى حكم مصر ١٤ سنة بغير

انقطاع ونسيت أنها ولدت وأبوها وزير، وأنها كانت طفلة أبيها المدللة، وأنها عاشت طفولتها في قصر أبيها الحاكم بين الجواري والأغوات، وقد كان لديها في قصر أبيها أغا اسمه "فيروز" حملها وهي طفلة فلما تزوجت أهدتها أمها هذا الأغا وإذا بعريسها يرفض هذه الهدية، ويقول أنه يرفض أن يعيش في بيته أغا لأن خصي الرجل وحرمانه من رجولته وبيعه كالرقيق عمل غير إنساني، وهو لا يقبل أن تعيش في بيته جريمة تمشي على قدمين! وهكذا كان سعد في بيته يرتدي الجاكتة والبنطلون فوق جلابية الفلاح الزرقاء!!

وروى (مصطفى أمين) في مذكراته تلك الحكاية فكتب يقول: (استدعى الزعيم الولدين الصغيرين (علي ومصطفى) وقال لهما إنني سأكلفكما بمهمة سرية خطيرة لا أريد أن تعلم بها أمكما ولا ستكما)!! وفرح الولدان وتصورا أن جدهما سيكلفهما بمهمة سرية ثورية، وأحسا أن هذا شرف عظيم وقال لهما: تذهبان إلى محل شيكوريل وتشتريان قفازاً كهذا القفاز على ألا يزيد ثمنه على عشرة جنيهات، غداً عيد ميلاد (ستكم صفية) وأريد أن أفاجئها وأقدم لها هدية بمناسبة هذا اليوم السعيد!! ثم أعطاهما عشرة جنيهات وخمسة قروش مصاريف ركوبهما الترام وقفازاً قديماً من قفازات صفية زغلول حتى يحصلا على قفاز من نفس النوع.

وقام الولدان بالمهمة السرية في كتمان شديد، واشتريا هذا القفاز وأخفياه ثم عادا إلى بيت الأمة وقابلا سعد في مكتبه بالسلاملك وقدما له

القفاز، وفرحا عندما أثنى على ذوقهما في اختيار القفاز، وكان أسود اللون، وخرج الولدان في سعادة غامرة وهما يشعران أنهما أصبحا موضع ثقة زعيم الأمة، ولهذا كلفهما بهذه المهمة السرية على الرغم من أن عمرهما كان يومئذ ١١سنة، وكانت هذه أول مرة يحتفل بها سعد بعيد ميلاد زوجته، ولم يقم لها مأدبة أو حفلة عيد ميلاد ولم يأمر بعمل (تورتة) يضع فيها شموعاً بعدد سنوات حياتها! وكانت (صفية) سعيدة بهذه الهدية البسيطة التي يبلغ ثمنها عشرة جنيهات، وكانت أكثر اهتماماً بكيف اشترى سعد هذا القفاز؟! فكان – سعد – يضحك ويرفض أن يخبرها بسر الولدين الصغيرين، وكان يقول إن الجهاز السري للثورة هو الذي اشترى القفاز!!..

(وفي مذكرات (سعد زغلول) كتب يقول: إن هذا اليوم ١٦ يونيو– ولادة قرينتي– وقد أهديتها قفازاً قيمته عشرة جنيهات)

وفي بداية الزواج كانت صفية زغلول تذهب بكثرة لمنزل والدها وكان هذا الأمر لا يعجب سعد زغلول، وكان يعتقد أنه لا يعجب حماه أيضاً مصطفى فهمي باشا، واعتقد أن الأمر يرجع لحماته (أصانيش هانم) وكان يبدي ضيقه بروح من السخرية المهذبة فيقول لصفية: كيف أحوال الباشا وقصاقيص هانم، بدلاً من أصانيش وتعرف صفية أنها تأخرت أو غالت في الزيارات!! ولم يفقد (سعد زغلول) أبداً روحه الساخرة وقفشاته اللاذغة، وهي حسب ما يقول العقاد: (حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذة أو رد مكيدة أو إلزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة

مضحكة، فهي تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح، وهي مؤنة تصلح حيناً لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حيناً لمناجزة الأعداء) وقد حدث مرة في الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ أن أطباءه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب في ذلك اليوم، ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره! فليتكلم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤوم ورجاء الأصدقاء، وقد تكلم كما شاء وحي الطبيعة واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فإذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل. وماذا حدث؟! ها تحقق الخطر؟! هل تعب! هل اقتصر الأمر على السلامة؟! لا عولج مما كان يشكوه وعاد كأقوى مما كان

وحسب ما يقول (مصطفى أمين) كان سعد زغلول إذا شعر بالإجهاد قال بسخرية: ربنا يرزقنا بأزمة مع الإنجليز حتى نجدد شبابنا!!

وكانت أسوأ أيامه هي الأيام التي يأمره الأطباء فيها بعدم مغادرة غرفة نومه وكان يسمى هذا (أمراً بالقبض عليه واعتقاله) وكان يناقش أمر الاعتقال ويعارضه ويحاول إقناع الأطباء بتخفيض مدة الحبس!! ويتذكر سعد زغلول في مذكراته مسألة نسائية بحتة إنها يوم (التنفيض) وكان (سعد) يضيق بهذا اليوم، فالمطلوب منه أن يترك غرفته مبكراً حيث يبدأ التنظيف من الدور العلوي والبداية من غرفة نوم (سعد)، وهو يعرف أنه لا بد وأن يتناول طعام الإفطار بسرعة، ولا يستقبل أي زوار في ذلك اليوم، وعليه أن يتناول طعام غدائه في نادي مُحَمَّد علي!!

في يوم التنفيض كانت (صفية) تدخل غرفة (سعد) وتقف أمامه لا تتحرك ولا تتكلم، ويفهم (سعد) من هذه الحركة – كما يقول (مصطفى أمين) – أنها تدعوه إلى الجلاء إلى البيت بسرعة، وكان (سعد) يسمي (صفية) في ذلك اليوم (مقلقة الراحات وهادمة اللذات)!!

وكان (سعد زغلول) يقول إن (صفية) مريضة بمرض اسمه (النظافة) وكانت صفية تضع منفضة من الحديد في أدنى درجات السلم الخارجي ومنفضة من سعف النخيل في أعلى، الأولى ليمسح فيها الزائر قدميه من الطين والثانية ليمسح فيها الزائر حذاءه من التراب، فإذا وجدت – صفية – آثار أقدام على الرخام الأبيض في سلم السلاملك، نادت (عبد الكريم) فراش السلاملك ليسارع إلى محو هذه الآثار حتى تبدو درجات السلم الرخامية ناصعة البياض تبرق وتلمح وتضئ، فقد كانت ترى آثر الأحذية على الرخام كأنها وصمة عار في جبين البيت الأبيض النظيف!!

كان أغلب الكبار والوزراء والأسماء اللامعة في ذلك الوقت يلعبون القمار قتلاً للوقت والتسلية ودفعاً للملل، وكانت الزوجات هن أول من يدفع الثمن: غضباً وقلقاً ومشاجرات وخسارة أيضاً!! وعندما أصبح (أحمد فؤاد) سلطاناً على مصر كان أول قرار أصدره أن تتولى الدولة تسديد ديونه، وكانت (ديون القمار) على رأس هذه الديون!! وحاول (سعد زغلول) عشرات المرات أن يقلع عن عادة لعب القمار، حتى لا يغضب (صفية) التي كانت تكره وتمقت القمار، وحتى لا تتزايد خسائره وديونه!! كانت (صفية) غاضبة بلا حدود، وثائرة على تلك العادة التي

تمكنت من سعد زغلول. ومن جانبه لم ينكر (سعد) أنه حاول مرات كثيرة الإقلاع عن اللعب لكنه كان يفشل. وفي ٨ مايو ١٩١٧ يعترف في مذكراته قائلاً: (لأني أتردد هذه الأيام على النادى فأنا لا أريد أن أفكر في عدم استطاعتي ترك اللعب، ولكن بما أني ملتزم كان عليّ أن أترك الرذيلة كيف أعرف كل عيوب القمار وأتمسك به؟! إن زوجتى تعاني كثيراً من جراء ذلك حتى أنها لا تكاد تنام وهي دائماً غاضبة)..

وكان مما يزيد الأمر على (صفية) أنها شعرت بأن سهره في القمار له أبعاد أخرى، فقد طاف بها من قبل على الأطباء في مصر وأوروبا، وعرضها على أكبر الأطباء، فأجمعا على أنها لا يمكن أن تلد!! ولعب الفأر في عب (صفية)!!

وكان سعد يطمئنها بأنه ليس ملكاً ليهتم بأمر الإنجاب، وأنه عندما تزوجها كان يريدها لذاتها لا بسبب الأولاد، وأنه رجل يرضى بما يقسم به الله، وفيما بعد أقلع سعد عن القمار عندما ازداد شك زوجته وحول النساء لها الشك إلى نار لا تنطفئ!!.. وكان (سعد زغلول) يعزي نفسه قائلاً:

– إن كثيراً من العظماء لم يرزقهم الله أولاداً لحكمة يعلمها!!

وبتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٩١٧ كتب (سعد زغلول) في مذكراته يقول: (أتمنى الآن لو يكون لي ولد، وأن أبني بواحدة (أي أتزوج واحدة) من الفلاحين أو غيرهم، ويشغل هذا الفكر بالي، ولكن تحقيق هذه الأمنية

صعب، لأني أريد أن يكون ذلك سراً وذلك من المستحيل تقريباً فالأفضل ترك هذا الفكر من أصله. لكن (سعد) انشغل بما هو أكثر خطورة من الزواج ثانية، وانشغلت صفية بهذه المصيبة؟! وحاول سعد أن يشغلها بتبني أولاد أخته سعيد ورتيبة وفعلاً عاشوا في بيته ولكنهم كبار وهي تريد ولدا على الزيرو!!

وإذا بالصدفة تحدث يوم ولادة رتيبة، ووصل الدكتور ملتون، ودخل الحجرة في الساعة الأولى بعد ظهر يوم السبت ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ وبعد دقائق كان يحمل في يده مولوداً أكبر من الحجم المعتاد وراح يضرب ظهره بيده فينطلق صراخه. وتتلقى صفية زغلول الطفل وتدور به في الغرفة وهي تصيح في فرح وزهو: ولد! ولد!. ومضت "صفية" تقول وهي تلف المولود باللفات والأربطة: معذورة رتيبة! إن ضخامة جسم المولود هي السبب في صراخها وعويلها..

وإذا بالسيدة الحكيمة التي كانت تساعد الدكتور ملتون تصرخ في فزع:

– الحقوني! الحقوني!

واتجهت صفية في رعب إلى الفراش الذي ترقد فيه رتيبة وتصورت أنها ماتت في أثناء الوضع، وقالت الحكيمة وهي لا تزال منحنية على جسم رتيبة: فيه واحد ثاني.

وأخرجت الحكيمة مولوداً هزيلاً ضعيفاً ضئيلاً، حجمه أقل من المعتاد ويدق قلبه كما تدق الساعات الرخيصة التي لا تنتظم خمس دقائق إلا لتتوقف خمس دقائق. وراح الدكتور ملتون يضرب بيده ظهر الطفل الهزيل فلا ينطق، واستمر يضربه حتى خرج من فمه صوت هزيل ضعيف أقرب إلى حشرجة عجائز يموتون منه إلى صراخ أطفال يولدون! وسلمت صفية المولود الأول إلى الحكيمة، وحملت المولود الثاني وصاحت في دهشة: ولد كمان!؟.. ولد تاني؟

وما كادت رتيبة تعلم أنها رزقت بولدين توأمين حتى أغمي عليها من الفزع وأسرع الطبيب يسعفها من أثر الصدمة الهائلة! لم تكن ولادة التوأمين منتشرة في مصر في تلك الأيام كما هي منتشرة الآن، كانت رتيبة تحمل هم تربية مولود واحد، فإذا بها تفاجأ بأنها رزقت بولدين معاً في وقت واحد. كيف تربيهما معاً؟ كيف تحملهما معاً؟ إن هذه أول مرة تلد فيها، وهي لا تعرف كيف تعنى بطفل واحد، لا بطفلين اثنين في وقت واحد. وهي قد أعدت ملابس ولوازم طفل.. فماذا تفعل بالطفلين! ومضت رتيبة تبكي وتندب سوء بختها، وقلة حظها، لماذا هي وحدها دون نساء العالم ترزق بمولودين معاً! وكانت رتيبة تشهق بالبكاء حزناً وأسى بسبب المصيبة الفادحة التي حلت بها، وتندب حظها لأنها رزقت وحدها دون جميع أمهات الأسرة بولدين في وقت واحد، وتركتها صفية وخرجت إلى الغرفة المجاورة التي كان يجلس فيها سعد زغلول ثم عادت مرة أخرى. وجلست بجوار رتيبة في فراشها تهدئ روعها وتقول لها: إن سعد قال لى الآن أنه أسعد رجل في العالم لأنك رزقت بولدين.

فقالت رتيبة ودموعها تنهمر من عينيها: ولكني أتعس أم في العالم؟! كيف يمكن أن أربي ولدين في وقت واحد؟

قالت صفية: إن سعد حل هذه المشكلة.. إنه يقول إن الله شاء بهذين الولدين أن يحل مشكلتنا. أنا وخالك نتمنى أن يكون لنا ولد.. هذه هي أمنيتنا الكبرى. وقد حقق الله أمنيتنا فرزقك بولدين، لنأخذ نحن أحدهما وتأخذي أنت الثاني..

قالت رتيبة في سعادة: صحيح هل وافق خالي حقاً على أن يأخذ أحدهما خذي من تريدين منهما؟

قالت صفية: لقد اقترحت أن أسمي الأول علي باسم عمي (علي زكي) وأسمي الثاني مصطفى باسم والدي وقد وافق سعد على ذلك، وقال أنه يترك لك على المولود القوى الصحيح، وسيأخذ هو المولود الضعيف الهزيل مصطفى وسوف نتبناه.. وسوف يحمل اسم خالك سعد زغلول، وسيكون اسمه في شهادة الميلاد مقروناً باسم والده سعد زغلول وأمه صفية زغلول.

وأجهشت رتيبة بالبكاء

وقالت صفية: وقد عرض علي الفكرة، فرحبت بها من كل قلبي، إنك تسعدين خالك إذا نزلت عن (مصطفى له).

قالت رتيبة: إنني مدينة لخالي بحياتي إنه هو الذي رباني وأنا طفلة يتيمة كما تبناني مع أخي سعيد، ولو طلب حياتي لأعطيتها له. إنني لا أظن أن في الدنيا أبا خيراً من خالي سعد ولا يوجد في الدنيا أم خير منك.

قالت صفية: وهل سيوافق زوجك على أن نأخذ مصطفى؟

قالت رتيبة في عتاب: يوافق؟ إنه سيرقص من الفرح والفخر..

وأبلغته رتيبة باقتراح سعد وصفية أن يسمي الولد الأول علي والولد الثاني مصطفى فرحب بالاقتراح، ولكن ما كادت رتيبة تخبر زوجها باقتراح سعد أن يتبنى مصطفى حتى غضب الأب وثار ورفض الاقتراح بعنف، وقال: لا يمكن أن أبيع ابني!

قالت رتيبة: إن المسألة ليست مسألة بيع وشراء، إننا كنا نريد من الله ولداً واحداً وأعطانا ولدين، وقد صدمت أنت كما صدمت أنا بالنبأ. جاء خالى وطلب أن يتبنى مصطفى لأنه محروم من نعمة الأولاد. فلماذا لا نسعده بأن نعطيه الولد الضعيف الهزيل؟!

قال الأب: أنا لا يمكن أن أعطي ابني لأحد!

قالت رتيبة: إنه ليس (أحد) إنه خالي وأبي الذي تبناني ورباني أنا وأخي وأنا يتيمة الأبوين فأقل ما أفعله أن أرد له جميله

وبكت رتيبة على رفض زوجها أن يتبنى خالها مولودها الضعيف، ولم تمر هذه الأزمة ببساطة على بيت سعد زغلول. إنها جرحته، لقد عاش سعد بضع ساعات يتصور أنه أصبح أباً. وأن ولداً سيحمل اسمه. إنه سيحمله بين يديه. سيحبو فوق ركبتيه. سيسلي به شيخوخته. سيطربه صراخه. سيملأ صوته الصغير البيت الهادئ الساكن الوقور. وعندما تلقى سعد رفض أمين يوسف عبس وجهه واكفهر. تحولت عيناه الضاحكتان إلى عينين جامدتين حزينتين.. وهكذا خرج للحياة التوأمان (مصطفى وعلي يوسف أمين)

ويقول رشاد كامل في كتابه (الهانم والزعيم): وعاش (سعد زغلول) في تلك الأيام لحظات قاسية من الحزن والهم والغم، وحاولت (رتيبة) و(صفية) أن تخففا وتسريا عنه وأن تزيلا كآبته، وجاء الأب (أمين يوسف) يعرض اقتراحاً على سعد زغلول، وهو أن يبقى الطفلان في كنفه دائماً وإن حملا اسم أبيهما!! ورفض سعد زغلول هذا الاقتراح بشدة في أول الأمر، ثم عاد وقبله ووافق عليه وفي أيام أخرى كان سعد يجد متعة في ملاعبة الطفلين الصغيرين، يداعبهما ويحملهما ويدرس تصرفاتهما ويسأل عنهما إذا غابا ويبحث عنهما إذا اختفيا، وفي أحيان أخرى تعود إليه رغبته في أن يكون (أباً) وضايقه بأنه حرم من أن يتبنى أحد الطفلين فيطلب إلى (صفية) أن تبعد الطفلين حتى لا يتذكر أنه فقد أحدهما ويفضل أن يعتكف وحيداً في غرفته بمسجد وصيف (طوال الصيف) ويطلب إلى صفية أن تعطى رتيبة نفقات المصيف لتصحب الطفلين الصغيرين إلى أى مصيف بدلاً من أن

يمضوا الصيف معه، حتى لا يتذكر في كل يوم أنه حرم من أن يكون أباً لأحدهما، وتنفذ (صفية) أمر زوجها

والذي لا يعرفه الكثيرون أن (سعد زغلول) وقع في يده كتابات رفاعة رافع الطهطاوي، واندهش به ووجد عنده السلوى، فرفاعة عاش في عصر الجواري والرقيق، كان يمكن أن يتزوج أربع نساء ويعشق مائة جارية ولكنه لم يفعل ذلك، ليس فقط استقامة خلق، ولكن استقامة فكر، فالرجل لم يكن مثل غيره من ممتهني الفكر في مصر، فهو يقول ويفعل، ويؤمن فينفذ. قد تزوج رفاعة الطهطاوي من ابنة خاله. فماذا فعل معها؟ وعلى طريقة رجال عصرنا ماذا فعل بها؟

لنقرأ الآن – قبل أي شيء – رأيه في (الحب) والحب الذي حلاوته (بالقنطار) لم يكن معروفاً في زمن رجل عاش من (١٨٠١ إلى ١٨٧٣) بكل ما يفرضه ذلك من حمق وجبروت في التعامل مع النساء. قال رفاعة أيامها: (معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس، وإن كان صعباً في حد ذاته، لأنه يستدعي كمال التربية والإنصاف بالعدل، وقوة العقل، وذكاء الفطنة، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن ومعرفة الاعتناء بالوسائل التي تستدعيها (الصداقة) بين الزوجين لاشتراكهما في المنفعة العمومية) فينبغى أن يكون (الحب) الموجود في قلب المرأة والرجل بعضهما لبعض، عبارة عن وداد خالص وصفاء فؤاد خلى من تجربة الغرام، ومشوب

بحرارة الشبوبية في غالب الأحوال، فمتى تمكن (الحب) في قلب كل منهما فجميع وسائل اللذة توجد فيها، (فالمحبة) هنا مشوبة (بالصداقة) الأكيدة.

وقد أعجب سعد زغلول ما قدمه رفاعة الطهطاوي لزوجته في عقد زواجهما، وقال سعد زغلول: ليقرأ نساء هذه الأيام كيف يستطيع رجل حر أن يعطيهم ما يقاتلون من أجله؟ لقد رأى أن (الحب) هو الحزب النسائي الأول والأخير في حياة النساء

وفي مذكرات (سعد زغلول) بتاريخ سبتمبر ١٩١٦ كتب يقول:

توأمان، أحدهما يدعى (مصطفى) والثاني (علي) ولا يتجاوز عمرهما الآن سنتين ونصفاً، وهما يحبان بعضهما، ويلعبان معاً، وإذا غاب الواحد بحث الآخر عنه! ومصطفى ضعيف البنية، ولكنه رقيق المزاج، وكل منهما سريع التأثر، ولكن مصطفى أسرع، وفيه حسن التفات، ورقة قلب وحنان. وقد ربتهما والدتهما على النظافة، ولكن لشدة حبها الأموي عدتهما أن تطيع شهواتهما إذا بكيا، فتجد الواحد منهما يطلب الشيء، فإذا منع بكى بكاء مراً، وإذا نهي عن أمر كان يميل إليه بكى أيضاً كذلك، ولكن بكاء (مصطفى) يؤثر فيها أكثر لضعفه، فتسارع إليه، وربما أعود إلى الكلام عنهما بعد ذلك في فرصة أخرى.

ويحرص (سعد زغلول) على تسجيل واقعة طريفة خاصة بالتوأمين، فيكتب في مذكراته بتاريخ ٣١ أغسطس ١٩١٨: (غداً تأتي رتيبة مع أخيها ونجليها (علي ومصطفى أمين) وأظهرت للست عدم رغبتي في طهارة

(ختان) نجليها عندنا، ورأيت الأوفق أن يكون ذلك عندها، وقلت إني مستعد لأن أساعد الأقارب من بعد، لا من قرب، فوجدت فيه شقائي)

ويعلق (مصطفى أمين) على خلاف (سعد زغلول) و(صفية) بسبب طهور الولدين، فقد كان مع ذلك انتصرت (صفية) بعد ذلك بثلاثة أعوام، وتم طهور الولدين في الطابق الأعلى ببيت الأمة ورفض سعد أن يدخل غرفتهما التي لازماها بضعة أيام بعد الطهور، ولم تصبح المشكلة كبيرة على (صفية زغلول) أن الصغار يتربيا في كنفها ثم أنها أصبحت أم المصريين كلهم

ويعلق على ذلك مصطفى أمين في كتابه (من واحد لعشرة) الذي كان ينادى (سعد زغلول) بـ(جدو): ويبدو أن ذلك هو حال العظماء في الدنيا؛ فمصطفى كمال أتاتورك زعيم ثورة تركيا لم يرزق ولداً ولا بنتاً وقاسم أمين زعيم سفور المرأة الشرقية لم يرزق ولداً، وإنما رزق عدة بنات، ومُحَمَّد عبده زعيم الإصلاح الديني في مصر لم يرزق ولداً وإنما رزق بنتاً، وطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي لم يرزق ولداً ولكنه رزق ثلاث بنات، ورياض الصلح أحد زعماء الحرية والقومية العربية لم يرزق ولداً وإنما رزق بنتاً، وفتحي زغلول لم يرزق لا ولداً ولا بنتاً، وكذلك عباس العقاد، ومصطفى النحاس، ومحمود مختار (المثال المصري)، وأم كلثوم، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي.. كل هؤلاء وغيرهم لم يرزقوا لا أولاداً ولا بنات. ولكن مع كل ما وصل إليه هؤلاء من مجد، كان الكثيرون منهم يشعرون بحسرة لأنهم لم يرزقوا ولداً يكون امتداداً لهم، كأن تاريخهم لا يكفيهم، أو كأنهم تصوروا

أن الولد يمكن أن يعيش عمراً أطول من عمر التاريخ! أو أنهم خشوا أن يعجز التاريخ عن أن يحمل للغد صورهم على الورق، فتمنوا لو أن صورتهم رسمت باللحم والدم على أولادهم! ثم أن هناك جانب آخر في القضية ماذا لو أصبح هؤلاء الأبناء أو الذكور طالحين وليسوا صالحين؟!!! وقد لا يعرف كثيرون أن سعد زغلول لم يطلب من زوجته أن تقود ثورة **١٩١٩** بعد نفيه، بل إنه لم يتوقع أنها تستطيع أن تقوم بهذا الدور كل ما فعله قبل قيام الثورة أنه قال لها: يا صفية: لقد قررت أن أضع رأسي على كفي اليمنى.

فقالت صفية: وضع يا سعد رأسي على كفك اليسرى!

وفهم سعد من هذا الحديث أنها مستعدة لأن تتحمل ما يصيبها من تضحيته بنفسه في الثورة، ولكنها فهمت في الواقع أنها وقعت معه ميثاقاً مكتوباً بأن تقود الثورة إذا غاب زوجها عن مكانه! وعندما قبض الإنجليز على سعد زغلول في يوم ٨ مارس سارع علي باشا شعراوي وكيل الوفد ودعا أعضاء الوفد الذين لم ينفوا مع سعد إلى اجتماع طارئ يعقد في بيت علي شعراوي لبحث الموقف..

وسمعت صفية زغلول بأمر الدعوة فثارت واتصلت بمنزل علي شعراوي باشا فردت زوجته هدى شعراوي، وطلبت صفية التحدث إلى علي شعراوي، ودهشت هدى شعراوي. فلم تكن التقاليد أيامها تسمح

لسيدة متزوجة بأن تطلب التحدث مع رجل متزوج في التليفون، واستدعت زوجها فقالت له صفية:

– سمعت أنك ستعقد اجتماعاً للوفد في بيتك! هذا الاجتماع يجب أن يعقد في بيت سعد.

– كيف نعقد الاجتماع في بيت سعد باشا وهو غير موجود؟.

– إنه موجود! وسوف يكون موجوداً ولو قتله الإنجليز! إن هذا ليس بيت سعد. إنه بيت الأمة. إنه قلعة الثورة. كيف تستسلم القلعة لأن قائد الجيش أسره العدو. يجب أن تبقى القلعة وتقاوم

– لك حق.. سنجئ ونعقد الاجتماع في بيت سعد باشا، ولكني أحب أن أحذرك، فقد تتعرضين للمتاعب نتيجة لهذا

– بعد أن أخذوه لم تعد لحياتي قيمة! قيمة حياتي وهو هنا!

وأمرت صفية بفتح أبواب البيت، وتخصيص كل غرفه للثورة، واحتفظت بثلاث غرف: غرفة لها، وغرفة لرتيبة وولديها، وغرفة لسعد زغلول، وخصصت كل غرف الدار وصالوناتها وحديقتها لمكاتب الثوار!

وكتبت السيدة سيزا نبراوي التي عاصرت الثورة في مذكراتها التي نشرتها في مجلة المصور في ٧ مارس سنة ١٩٦٩ تقول:

(لقد تعرف العالم على المرأة المصرية كإنسانة وكرائدة منذ ثورة ١٩ وأذكر موقف السيدة صفية زغلول زوجة سعد زغلول حينما نفي زوجها ومنعها الإنجليز من اصطحابه إلى المنفى، وكان لهذا المنع أثر في إذكاء نار الثورة في النفوس المصرية، وهذه نبذة من بيانها الذي أذاعته على الشعب بعد نفي سعد).

أبناء وطني:

[لما رأيتهم يطوفون بالبيت، ويملأون الحديقة، وينتزعون سعداً، كان أول شعور قام في نفسي أن أتبعه خطوة فخطوة، أينما شاءت القوة أن تذهب به، فلما رأيتكم تقتلون من أجله، تحول إليكم فجأة كل حبي وإحساسي وشعرت من أعماق قلبي بأني غير مستطيعة أن أترككم في مثل هذا الوقت العصيب، وبأن واجبي أن أقاسمكم حظاً شاءته الأقدار لكم، ولئن كانت خدمتي لسعد لأزمة، وهو محتاج إليها الآن حاجة قصوى، فأنا أعلم أنه عن مسلكي راض. وبهذه التضحية مغتبط. لأنه ضحى من أجل الوطن بكل شيء بسكينة وارتياح. أبنائي البررة! لقد أثبتكم أنكم مستعدون لبذل دمائكم فداء للوطن، حتى لو لم يكن في ذلك البذل إلا أن تثبتوا للعدو أنكم بواسل تفضلون الموت على أن تعيشوا عبيداً أذلاء]

وكان لهذا البيان فعل السحر في الشعب المصري؛ فأرسل اللورد اللنبي إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول:

–مدام زغلول باشا نشرت بياناً من نار هذه المرأة أقوى من ألف رجل. أرى أن وجودها في مصر خطر. أرى السماح لها بالسفر مع زوجها.

ولقد اعتقل زوجها (زغلول باشا) للمرة الثانية في ديسمبر سنة ١٩٢١ بعدها رفض أن يعتكف في عزبته وشهدت (صفية هانم) اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت، وخيرت – أي صفية – بين أن تصحب زوجها أو أن تبقى، وكان عليها أن تحسم هذا السؤال الخطير ولكنها بعد تفكير عميق قررت أن تبقى وأن تتم الرسالة التي تركها زوجها، لأنه إذا كانت حاجة زوجها إليها شديدة فإن حاجة مصر أشد.

وكما قالت صفية: إن سعداً سجين في (سيشل) ولكنني هنا، روحه الثانية وزوجته التي تصون مكانه.

ولقد كان ردها على دار المندوب السامي قاسياً تاريخياً، فقد أمسكت بالتليفون وقالت للمتحدث حينما أخبرها أنها تستطيع اصطحاب زوجها:

–أخبر سعادة المندوب السامى أنني سأظل في القاهرة وسأعمل كل ما في وسعي لأتم عمل زوجي، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد ولكنكم لا تستطيعون أن تنفوا روحه لأنها تعيش وستظل تعيش وفي بيته، وأنا سأكون (سعداً) حتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب لن يسمح بغيابه ولن يمكنكم من إبعاده طويلاً. وحتى لو مات (سعد) فسيأتي كثيرون غيره

وسيتقدمون الصفوف، وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة في سبيل استقلال مصر.

وبعد ساعات قليلة من اعتقال أعضاء الوفد، قام البوليس بتفتيش (بيت الأمة)!!كان سعد زغلول زعيم الوفد والأمة خارج بيت الأمة، كان خارج مصر كلها!! كان البوليس أول من يعلم أن صاحب البيت غائب من البيت، ومع ذلك وصلت قوات البوليس إلى بيت سعد زغلول!!

لم تكن صفية زغلول وحدها في بيت الأمة بل كان معها ويقف إلى جوارها زملاء وأصدقاء وخلصاء زوجها سعد زغلول باشا، كان واحداً من هؤلاء: سعد فخري عبد النور الذي شاهد ما جرى ورواه في مذكراته.. يقول: كانت صاحبة العصمة أم المصريين موجودة وكنا بجوارها، فأراد الضابط أخذ أوراق من شكمجية كانت أم المصريين تحتفظ بها فمنعته من ذلك، وقالت

– إن هذه الأوراق هي خطابات من والدي مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء، ومن زوجي إلي

إلا أن الضابط أصر على أخذها!! فأصرت أم المصريين على منعه من ذلك!! فاتصل الضابط تليفونياً بمستر (أبلت) مساعد الحكمدار، وأبلغه ما حصل فطلب منه أن يتركها ما دامت أم المصريين تقول أنها خطابات من والدها ومن زوجها إليها!! فخجل الضابط – وكان مأمور قسم السيدة زينب – من موقفه وانصرف.

ولم تكن صفية زغلول كاذبة فيما قالته للضابط الإنجليزي بشأن الخطابات الخاصة التي كانت تحتفظ بها!! كانت هذه الخطابات بالفعل هي خطابات غرامية وعاطفية كان يكتبها لها زوجها الزعيم سعد زغلول!!

لم يصدق أحد أن داخل هذا الصندوق تحتفظ السيدة صفية زغلول بأجمل وأعذب وأرق خطابات غرام كتبها سعد زعلول لها، واعتقد أن بداخله منشورات الثورة أو على الأقل أسماء لها علاقة بالثورة!!

ولكن صفية زغلول كانت صادقة وهي تحتضن هذا الصندوق وتصرخ في وجه الضابط وكان الشر يتطاير من عينيها قائلة:

– لن أدعكم تمسون هذا الصندوق!! لقد تركتكم تلوثون غرفة نومي بأقدامكم، لكني لن أسمح لكم بأن تلوثوا بأيديكم هذا الصندوق، إن فيه خطابات زوجي لي، ولن أسمح ليد أن تمتد إليها وأنا على قيد الحياة..

ويعترف الكاتب الكبير مصطفى أمين بأن صفية زغلول كانت تقول أن زوجها تعوّد أن يكتب لها خطابات غرامية في كل مرة يتناول فيها طعامه خارج البيت!! وكان يحرص دائماً على أن يعوضها عن غيابه عنها بكلمات رقيقة تنبض بالدفء والحب والحنان!!

واستمر سعد زغلول يكتب لـ صفية خطابات الغرام إلى ما بعد سن الستين، فقد كان يؤمن بأن العمر لا يمكن أن يطفئ الحب، ولم تلبث صفية

زغلول أن اتخذت قراراً غريباً ومدهشاً ومحيراً بشأن كل هذه الخطابات العذبة الرقيقة!!.. لقد قررت أن تحرقها وتتخلص منها إلى الأبد!!

ويعترف جورج خياط بك، وهو واحد من الأعضاء السبعة للوفد الذين حكم عليهم الإنجليز بالإعدام وهو مسيحي، أنه بدأ ينهار بسبب حالته الصحية في السجن، وأن محاميه زاره ونصحه بأن يكتب استرحاماً للقائد العام البريطاني يطلب العفو، وإذا بصفية زغلول تعلم بالأمر فتطلب من والد التوأمين (مُحَمَّد أمين يوسف) أن يضع خطة للوصول إلى جورج خياط في سجنه. وتضع فكرة أول علم من تصميهما وتنفذه (الهلال والصليب متعانقان فوق علم مصر الأخضر) وصنعته من الحرير وقالت لمحمد أمين: صنعه على صدر جورج خياط وأبلغه مني سلامي!! ويصل العلم لجورج خياط فإذا بالرجل المريض اليائس يصيح في زنزانته قائداً لمظاهرة من داخل السجن! "نموت. نموت وتحيا مصر." وفي اليوم التالي رفض مقابلة محاميه! ولم يلبث أن أصبح هذا العلم هو العلم الوحيد الذي ترفعه كل المظاهرات في الثورة.

في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ فتح (سعد) عينيه فأرادت صفية أن تطمئن عليه فقالت له: أنت أحسن الآن!!

قال سعد: لا.. ما فيش فايدة!!

وسلم روحه لبارئها، وهكذا عرفت القاهرة نبأ وفاة (سعد)!!

وكانت (أم كلثوم) تغني في ملهى البوسفور أمام محطة مصر، وفوجئت بالمتفرجين يتسللون واحداً وراء واحد، وتركوا الصالة خالية، وتلفتت حولها فوجدت الموسيقيين توقفوا عن العزف ولم يبق إلا الموسيقار (مُحَمَّد القصبجي) بجوارها مستمراً في العزف، وتوقفت (أم كلثوم) عن الغناء وسألته ماذا حدث؟! قال القصبجي: مات سعد!

وماتت – كما يقول مصطفى أمين – الأغنية على شفتي أم كلثوم وانهارت على مقعد جالسة وبعد ذلك وضع لها الشاعر (أحمد رامي) أنشودة أنا انتهيت، فبدأوا جميعاً، وقد وزعت شركة جرامفون منها نصف مليون أسطوانة!! وبعد ظهر اليوم التالي **٢٤** أغسطس **١٩٢٧** شيعت جنازة سعد زغلول في موكب مهيب لم يحدث أن شاهدت مصر مثله في تاريخها كله!!

وابتداء من ذلك التاريخ، وحسب ما يقول (هندرسون) القائم بأعمال المندوب السامي البريطاني فقد طويت صفحة جديدة من تاريخ مصر لوفاة سعد زغلول!! مضى الرجل كشمعة احترقت، وليس هناك من يمكن أن يخلف (سعد زغلول) ويملأ مكانه في زعامة حزب الوفد أو في رئاسة مجلس النواب، وسيظل الموقف السياسي يغلي فترة من الوقت!! كانت مصر كلها حزينة، لكن حزن (صفية زغلول) كان لا حدود ولا نهاية له!!

بعد سنوات طويلة روى (مصطفى أمين) في كتابه (من عشرة لعشرين) قصة الرثاء الذي اعتبره (أول نصر صحفي في حياته)!! هذا النصر الذي قرأه كل مصري في نفس يوم نشره ولم تقرأه (أم المصريين) إلا بعد حوالي أربعين يوماً من نشره!!

في نفس يوم الوفاة دخل مصطفى وشقيقه التوأم على إلى غرفة نوم سعد وسمعاً صفية تبكي، وتقول لجثمان سعد الراقد على السرير كلمات دامية، كل كلمة تنزف دموعاً!! وعندما سمع (مصطفى) هذا الكلمات أحس أن هذا الكلام يجب أن يسمعه الناس، وجلس وكتبه على شكل مقال قال فيه على لسان (صفية زغلول):

(ألومك وأعتب عليك!! كثيراً ما نهيتك عن العمل والكتابة إشفاقاً على نفسي وعليك، ولكنك كنت تكتب وتعمل وتجاهد وتكافح حتى آخر لحظة، وكنت تجيبني: أنا مسئول ووراءي ناس!!).

ألم يكتب لك وأنت في مرضك الأخير صاحب حاجة فاضطررت أن تتحامل على نفسك وترد عليه؟! ما كان أغناني وأغناك عن هذا الذي قضيت به على نفسك! وما أشد عتبي الآن عليك ووجيعتي لإصرارك على العمل رغم نصيحة الأطباء!!

يا لمصابي.. لقد قضينا ثلاثين سنة كنت فيها البر كله، لم أسمع خلالها منك كلمة سوء أذكرك بها اليوم.. بلغ من برك بي إن كنت تكتم عني ما يكدر حرصاً على إحساسي.. فلا أعرفه إلا بعد انقضاء أمره، ثم كان لي

مجدك، وكان لي عزل، رفعني الناس برفعتك وفضلك ومحبتهم إياك ومحبتك إياهم. وكم تمنيت أن يكون لنا ابن يطالعنا ونطالعه، فكان جوابك أنه ليس لك ابن ولكن لك أربعة عشر مليوناً من الأبناء، ولبكاء هؤلاء الأبناء اليوم عليك أنا أشد جزعاً وأحر بكاءً، ما أشد شفقتي عليهم وبلواي بحزنهم..

وها أنت تتركني وتترك أبناءك ولا تترك من ورائك وصية لي ولا لهم، ولم تكلم في شأننا أحداً.. فهل أعتب عليك لهذا أيضاً؟!

كنت تكره النحيب حتى منعته لما مات ابننا (بالتبني) سعيد زغلول، ولما تأثرت أخته قلت لها بلسانك: (إني اتفقت وإياكِ أينا سبق به الموت صاحبه أن يكظم حزنه لأن سعيد كان حاله كحال ابننا فإذا مات سعيد نفسه فلنكظم حزننا إبقاءً على رضانا بحكمة الله في ذلك). وأشد ما يحزنني أن ألبس عليك السواد، وقد كنت تكرهه، ولكن ما لي إلى ذلك من بد وليس أمره في يدي..

إنني أعدك يا سعد أنني سأصنع ما بقيت أيامي ما صنعت أنت طوال أيامك، فلك مني آخر نقطة من دمي)

كان هذا هو المقال الذي كتبه (مصطفى أمين) على لسان (صفية زغلول) وعندما نزل إلى السلاملك رأى أمامه (مُحَمَّد حسنين هيكل) رئيس تحرير جريدة السياسة فأعطاه المقال.

قرأ هيكل باشا المقال وأعجب به وقام بإجراء تصحيحات لبعض عباراته ثم قام بنشره في جريدة السياسة في ٢٧ أغسطس ١٩٢٧ بعنوان (في غرفة الموت).

وعاشت صفية زغلول عشرين عاماً بعد وفاة سعد ودفن سعد في أول الأمر في قبر في حي الإمام الشافعي، وأقيمت له جنازة شعبية ثانية عام ١٩٣٦ ومكثت صفية زغلول تقطع يومياً هذه المسافة لمدة تسع سنوات إلى أن قام برلمان منتخب انتخاباً حراً، وأصر على نقل جثمان سعد من قبره من الإمام الشافعي إلى ضريحه أمام بيت الأمة، وأقيمت له جنازة شعبية ثانية في عام ١٩٢٦ لا تقل روعة ولا ضخامة عن جنازته الأولى عام ١٩٢٧.

واقترح أحد الوزراء تخليد ذكرى سعد باشا زغلول، وقرر المثّال (محمود مختار) أن يتولى أمر هذا التخليد بصنع تمثالين لسعد باشا، وتحمست الأرملة الثكلى صفية زغلول، لذلك فقد كانت غرفة نوم صفية تطل على الضريح، وكانت إذا استيقظت من نومها اتجهت أول ما تفتح عينيها إلى نافذتها التي تطل على الضريح، وتقرأ الفاتحة على روح الرجل الذي أحبته منذ رأته لأول مرة ليلة فرحها! وبعد الظهر ترتدي ملابسها وتذهب إلى القبر وتنثر عليه الزهور والرياحين وتقف خاشعة أمام القبر عشر دقائق وكأنها تناجي رجلها بصوت لا يسمعه إلا هي وهو! وعندما أرسل القرار بتخليد سعد زغلول إلى الملك فؤاد وكان وقتها في أوربا ليوقعه هاج الملك وماج واستدعى رئيس الوزراء ثروت باشا إلى (فيشي) وقال له:

كيف يقام لرجل من الرعية تمثالاً وأبي إسماعيل ليس له تمثال واحد؟! وبحث الملك عن اسم الوزير الذي اقترح ذلك التخليد وعلم أنه (أحمد زكي أبو السعود) وقرر الملك ألا يدخل الرجل الوزارة مرة أخرى. كما قرر أن يضع تمثالي سعد زغلول في مخازن وزارة الأشغال.

وتوفي الملك فؤاد وفوجئت صفية زغلول بشابة متحجبة ترتدي ملابس سوداء عرفتها بنفسها أنها (فتحية أبو أصبع) وصيفة الملكة نازلي. وتذكرت صفية هذا الوجه الذي حضر لمقابلة زوجها سعد زغلول عقب قتل السردار الإنجليزي، وكان معها رسالة وأيضاً من الملكة (نازلي)، ولم يصدق (سعد) يومها رسالة الملكة ولم يتصور أن الملك فؤاد يمكن أن يتفق مع المندوب السامي البريطاني بالنيابة على قتله أدبياً، وعلى تلفيق التهم له وعلى تزوير الانتخابات!!

وفي ذلك الوقت تصور (سعد زغلول) أن الملكة نازلي تشاجرت مع الملك فؤاد لمسألة شخصية فأرادت أن تنتقم من زوجها بالاتصال بعدوه!!

وقال سعد لـ صفية إنه لا يتصور أن الملك يهدد نازلي بالطلاق لأنها نصحته نصيحة في مصلحته، وكان رأيه أنها تتهم رئيس الديوان الملكي بالنيابة بتدبير المقابلات الغرامية للملك!! ولكن وقع كل ما قالته الملكة نازلي واضطر سعد للاستقالة من رئاسة الوزراء؟!

فلم يثق سعد في نازلي بعد أن تركت ابن أخته (سعيد زغلول) وتزوجت الملك فؤاد!! ولكن صفية زغلول كانت تعذرها ولا تستطيع أن

تنسى أنها ربتها ولها غلاوة عندها؛ فهي بمثابة ابنتها وقالت (فتحية أبو أصبع): الملكة تبشرك سيفرج عن تمثالي سعد قريباً، وسيقوم ابنها الملك فاروق بنفسه بإزاحة الستار عنهما!!

وسرحت صفية زغلول في قصة (الملكة نازلي)، تلك الفتاة رشيقة القوام صاحبة البشرة البيضاء كاللبن الحليب والشعر الذي يسدل على الكتفين ويصل لخصرها أسود كالليل، وكيف أرسل الملك فؤاد إلى سعد زغلول يطلب إليه إرسال زوجته (صفية زغلول) إلى قصر عابدين كوصيفة بالقصر ذلك بعد طلاقه للأميرة شويكار، فثار سعد زغلول واشتاط غضباً وقال لرسول الملك: (قل للسلطان فؤاد إن سعداً ينصحك أن تتزوج فوراً) وهذه العبارة التي خرجت من فم سعد زغلول غيرت مجرى الأحداث وترتيبات زواج سعيد زغلول من نازلي!!

ومما يؤسف له في هذا الصدد أن فكرة وعبارة سعد زغلول لاقت استحساناً من جانب الملك فؤاد وبدأ البحث عن زوجة تنجب له ولي العهد خاصة أن ابن الملك فؤاد من الأميرة (شويكار) قد توفي بعد ٧ شهور من ولادته وكان اسمه (إسماعيل) مما أضاع أمله في أن يكون له وريث يرث العز والجاه والملك وسطوته! أما كيف تعرف عليها وكيف تم ترشيحها للزواج من الملك، فقد كانت – كما أسلفنا – جميلة الجميلات كأنها ملكة تنتظر الملك الفارس وكانت الـ (ليدي جراهام) زوجة السكرتير الأول للمقر البريطاني تعرفها جيداً وتعرف والدتها لكن نازلي رفضت الزواج في البداية فأصر الملك على طلبه، وفي هذا الأثناء أراد (سعيد) الفوز بمحبوبته

نازلي ففاتح زوجة أخيه (صفية زغلول) في شأن تعجيل خطبته على نازلي، الأمر الذي جعل سعد زغلول يتقدم لطلبها من والدها لخطبتها لأخيه سعيد زغلول لكن عبد الرحيم باشا صبري تلعثم وتردد وأجاب إجابة مبهمة! وحين يكون الصراع على قلب امرأة بين السلطان أحمد فؤاد وسعيد زغلول (موظف القصر الملكي) فالفائز بالطبع سيكون سلطان البلاد المطلق البالغ من العمر ٥٠ عاماً صاحب الأمر والنهي وصاحب الخليلات الإيطاليات واليهوديات!!

وفتحت صفية النافذة وأطلت على الضريح، وقالت:

– إن قلبي يصدق نازلي.. يا سعد!!

وبالفعل رأى الملك فاروق أن يصالح شعبه ويعتذر عن موقف أبيه من تخليد سعد زغلول ويزيح الستار بنفسه عن التمثال الأول لسعد زغلول في الإسكندرية، وكان ذلك عام ١٩٣٨.

ودعا الملك صفية زغلول لحضور الاحتفال، وقبلت أم المصريين الدعوة ولكن قبل الحفل علمت أنها لن تجلس عن يمين الملك –كما جرت العادة في أوروبا عند إزاحة الستار عن تماثيل العظماء – بل إنه سيخصص مكان للحريم تجلس هي فيه! ورفضت صفية أن تجلس في الحريم وقالت إن ثورة سعد قامت لإلغاء الحريم، وجلوسها في الحريم هو إهانة لمبادئ سعد الذي يحتفلون بإزاحة الستار عن تمثاله! وأبلغ مُحَمَّد محمود باشا الملك أن صفية زغلول ترفض حضور هذا الاحتفال.

وأوفد الملك فاروق إلى رئيس الوزراء مُحَمَّد محمود باشا، علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي يقول له أن الملك لا يستطيع أن يجلس بجواره سيدة في احتفال رسمي لأن ذلك سيثير رجال الأزهر والبلاد الإسلامية! وقالت صفية زغلول:

– قولوا لجلالة الملك.. إنه يشرفه كثيراً أن يجلس إلى جواري، ولا يشرفني كثيراً أن أجلس إلى جواره.

فقيل لصفية أن إصرارها على رفض حضور الاحتفال الملكي بإزاحة الستار عن تمثال سعد، قد يؤدي إلى غضب الملك، وعدوله عن حضور الاحتفال..قالت صفية:

– إن سعد زغلول دخل التاريخ من باب الشعب، ولا يهمه أن يدخله من الباب الملكي..

وأخفى علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي عن الملك رسالة صفية زغلول العنيفة الموجهة إلى الملك، حتى لا يثير غضبه!

وحضر الملك فاروق الاحتفال وراح يتلفت حوله فوجد مقعدها خالياً في المكان المخصص للحريم، والتفت الملك إلى رئيس الوزراء وقال له: إن رأس صفية هانم ناشف مثل رأس زوجها! كان أبي يقول إن رأس سعد كان (أنشف) رأس في المملكة! ورفع الملك رأسه. ونظر إلى رأس

التمثال المصنوع من الجرانيت! وكأنه كان يقارن بين صلابة التمثال وصلابة الرجال!

وسقطت حكومات، وتألفت حكومات، وقامت دول وهوت دول، وانهارت عروش وتوالى حكام، وبقي التمثالان، بضعة أحجار من الجرانيت صمدت لكل معاول الطغاة والمستبدين!

الفهرس